جواهر
من النصف الثاني
للقرآن الكريم

جواهر الهداية من
الأجزاء الثلاثين

المجلد الثاني – مسارات الحكمة الإلهية
(الأجزاء 16 – 30)

د. ممدوح محمد سلامة

Contents

دُرَر الهداية من الثلاثين جزءًا 8
المجلد الثاني: مسالك الحكمة الإلهية (الجزء السادس عشر إلى الثلاثين) 8
عن هذا المجلد 9
رحلة عبر القرآن الكريم: جزء بجزء، وعشر جواهر في كل مرة 9
المقدمة 10
مدخل: القرآن الكريم، كنز الجواهر الإلهية 11
جواهر الجزء السادس عشر: الهداية والحكمة والقوة 12
1. ذو القرنين: تحليل الهوية 12
تحليل هوية ذي القرنين استنادًا إلى البيانات القرآنية 14
2. يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم 17
3. أهمية القوتين المادية وغير المادية 21
4. التواضع رغم النجاح العظيم 23
5. نعمة أن تكون محبوبًا 23
6. القوة العاطفية: الرجل والمرأة 24
7. وحي الله معدًّ لليُسر 25
8. النجاح في الآخرة في جملة واحدة 26
9. تمزيق الوحدة لا يُعالَج باستهانة 27
10. المثابرة 27
جواهر الجزء السابع عشر: تأملات في الابتلاء والتوكل والسند الإلهي 29
1. الوقت ينفد سريعًا 29
2. التحقق من المعرفة عبر الخبرة والعقل السليم 30
3. تأكيد وجود كائنات عاقلة خارج الأرض 31
4. سر خلق الكون 32
5. الوحي والتطور الحضاري 34
6. دعاء مضمون الاستجابة الفورية 35
8. أنت تُؤدِّي الأمر والله يُحقِّق النتائج 38
9. القاعدة الجوهرية لاستحقاق النصر الإلهي 39
10. معرفة الله من خلال أبسط آيات الخلق 40
جواهر الجزء الثامن عشر: النور الإلهي والمسؤولية الإنسانية والنظام الاجتماعي 42
1. قارن أخلاقك بأخلاق المؤمنين الفائزين 42
2. إمداد الحياة الإنسانية: الماء تحت سيطرة الله المطلقة 43
3. مصر ومكانتها الفريدة في السرد القرآني 44
4. كل ابتلاء موزون وفق الطاقة 45

46 ..... 5. سمو الأمر الإلهي في إرساء النظام الأخلاقي
47 ..... 6. آداب زيارة البيوت
48 ..... 7. توجيهات الحشمة في لباس المرأة
49 ..... 8. المسجد مصدر النور الإلهي وناشره
50 ..... 9. الوعد الإلهي المشروط
51 ..... 10. طبيعة الرسل
53 ..... جواهر الجزء التاسع عشر: الحق والنزاهة وهندسة الهداية الإلهية
53 ..... 1. الدراسة المتأنية والموضوعية للقرآن
54 ..... 2. خير تفسير للقرآن هو التفسير الإلهي
55 ..... 3. الظل
56 ..... 4. قارن نفسك بعباد الرحمن الصالحين
57 ..... 5. وحدة الصالحين والرسل
58 ..... 6. النصر الإلهي ودور السحرة
59 ..... 7. بنو إسرائيل بعد غرق فرعون
61 ..... 8. قوم عاد: فرضية مستندة إلى القرآن
63 ..... 10. ابدأ بمحاسبة نفسك قبل اتهام الآخرين
65 ..... جواهر الجزء العشرين: الإيمان والابتلاء ومصير الإنسان
65 ..... 1. ظهور الدابة: آية كبرى قبيل الساعة
67 ..... 2. الجبال: التصميم الإلهي المتقن
68 ..... 3. احذر من التعالي والإفساد
68 ..... 4. الإيجاز في نقل طبقات متعددة من المعنى
69 ..... 5. حتى فرعون كان مقيَّدًا بالقانون
70 ..... 6. التباين الاجتماعي لبني إسرائيل في مصر
71 ..... 7. السنة الإلهية: الإيمان لا بد أن يتجلى
72 ..... 8. الدعوة الإلهية إلى الاستكشاف
73 ..... 9. التوكل على غير الله كالتوكل على بيت العنكبوت
74 ..... 10. الأثر الأخلاقي للصلاة
76 ..... جواهر الجزء الحادي والعشرين: الفطرة والأسرة والقيادة الإيمانية
76 ..... 1. أكرم آيات الله بإكرام الزوجة
77 ..... 2. الدين الحق والفطرة النقية
79 ..... 3. الفساد في الأرض من صنع الإنسان
80 ..... 4. شكر الله لصالحك أنت
81 ..... 5. أولويات تعليم الأبناء
83 ..... 6. إكرام الوالدين وبخاصة الأم

7. خلق النفس وبعثها 84
8. لعاصي الذي يُمنّي نفسه 85
9. النبي صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة 86
10. القادة يُصنَعون بالصبر واليقين 88
جواهر الجزء الثاني والعشرين: من الإجلال الفكري إلى المسؤولية الحضارية 90
1. هرم الإيمان: من الهوية إلى الإتقان 90
2. ورثة الكتاب: أمل لكل نفس ساعية 91
3. الخضوع التام: النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الحي 93
4. استراتيجية التأمل الجاد: تجنب الضجيج 94
5. مصدر الكرامة الحقيقية: السعي إلى مصدر واحد 96
6. الصلاة على النبي: شراكة إلهية 97
7. الأمانة العظمى: تمكين النفس الإنسانية 98
8. واجب الفرد: لا أحد معفو من الرسالة 100
9. العلماء: علماء الخلق 101
10. لعنة الجشع: لماذا سقطت مملكة سبأ 102
جواهر الجزء الثالث والعشرين: الإيمان تحت الابتلاء والقوة في الأمانة والطريق إلى الله 105
1. نِعَمٌ إلهية يغفل عنها كثير من الناس 105
2. لأنعام: خلقٌ مُهيَّأ بعناية 107
3. الإحسان: الإرث النبوي للتميز 109
5. التفاعل مع القرآن: أمر التدبُّر 112
6. إرث النبي داود: القوة والصبر وحدود السلطة 114
7. ابتلاء القوة: مرض سليمان ومملكته 116
8. ابتلاء أيوب وتعافيه: الصبر والجهد والتجديد الأخلاقي 117
9. الدين الخالص: بلا وسطاء 119
10. علامة الذكاء: التبصُّر واختيار الأفضل 121
جواهر الجزء الرابع والعشرين: رحلة عبر النفس والكون والأمر الإلهي 123
1. الإخلاص والتفاني الخالص 123
2. علامات القلب الصادق 124
3. معجزة النوم 125
4. إعطاء الله حق قدره 127
5. الرحلة الأخيرة: حكاية بابين 128
6. منظومة الدعم الملائكي 129
7. طبيعة الوحي: خلق أم أمر؟ 130
8. معجزة نمو النبات 131

9. الأرزاق المُقدَّرة 132
10. البوصلة الأخلاقية للمُبلِّغ عن الله 132
جواهر الجزء الخامس والعشرين: من الكون الداخلي للنفس إلى الوحدة الجماعية للأمة 135
1. المعجزة الخالدة: العلم والوحي 135
2. تحريم استخدام الدين ذريعةً للتفرقة 136
3. الوسائل الأساسية للقضاء على الفرقة 137
4. معالجة الخلاف الأسري: القضاء الإلهي في الحياة الأسرية 139
5. عالمية الإسلام ومحورية مكة 140
6. الخسارة الجسيمة: حقيقة الخذلان الإلهي 140
7. الثبات على الصراط المستقيم وحقيقة القوة 142
8. الآيات الكبرى: تحذيرات إلهية واستعداد بشري 143
9. المحاسبة: السجل الفردي والجماعي 144
10. الزينة الحقيقية في مقابل البريق الزائف 145
جواهر الجزء السادس والعشرين: من التميز الفردي إلى الشهادة على البشرية 148
2. القرآن: وحي للإنس والجن 149
3. السنة الإلهية للنصر والصراع 150
4. الحفظ بالصدقة 151
5. السمات الفريدة للمؤمنين 152
6. أخلاقيات المعلومات: مبدأ التثبت 153
7. المنظومة الإلهية لأخلاقيات المجتمع 154
8. المقياس الإلهي: إعادة تعريف شرف الإنسان 155
9. يقين الرزق 156
10. الوعي الأعلى: العيش في ظل القُرب الإلهي 157
جواهر الجزء السابع والعشرين: من السموات المتسعة إلى القلب المتواضع: منهج موحَّد للتميز الروحي والحضاري 159
1. اتساع الكون 159
2. وجوب العبادة: غاية الخلق 160
3. الراحة الإلهية: العثور على القوة في نظر الله 161
4. طريق التميز: الإخلاص لا الكمال 162
5. المعجزة المتاحة: قرآن لكل قلب 163
6. المعلِّم الحقيقي للقرآن 164
7. الفئات الثلاث من البشر 165
8. القوة حارسة العدل: رمزية الحديد 167
9. عضلة القوة: التضحية المالية والقرض الحسن 168
10. النداء إلى القلب: لقد حان الوقت 169

171 ..... من القرب الإلهي إلى مسؤولية الإنسان عن نفسه ومجتمعه :جواهر الجزء الثامن والعشرين
171 ..... 1. قرب الله وسماعه لكل ما تقول
172 ..... 2. إفساح المجال للآخرين: من المسجد إلى القلب
174 ..... 3. قياس القلب: كيف يتفاعل مع القرآن؟
175 ..... 4. العلاقة مع غير المسلمين المسالمين: معيار البر
176 ..... 5. الإسلام يصنع مؤمنين مفكرين
177 ..... 6. التضامن في صلاة الجمعة: الإيقاع الإلهي
178 ..... 7. الحسرة على الصدقة المؤجلة
179 ..... 8. المال والأسرة: الاختبار الخفي
180 ..... 9. مسؤولية البيت: إنقاذ الأسرة
182 ..... 10. الاتساع الذي يفوق الإدراك في الخلق
185 ..... حيث يخاطب القرآن الروح مباشرة: هنا والآن :جواهر الجزء التاسع والعشرين
185 ..... 1. الموت والحياة مجرد اختبار: فاسعَ في الاتجاه الصحيح
187 ..... 2. الجوهرة التي على تاج النبي: مكارم الأخلاق
188 ..... 3. الالتزام بإطعام الفقراء علامة فاصلة على الإيمان
190 ..... 5. قوة الاستغفار
192 ..... 6. الخطر العظيم في طلب العون من الجن
193 ..... 7. من التزمل إلى القيام: نداء حي من سورتي المزمل والمدثر
197 ..... 8. لا أعذار: أنت الشاهد على نفسك
198 ..... 9. صفات الأبرار ومركزية إطعام الطعام
200 ..... 10. الكاذبون حقًا: إنكار الحقيقة الواضحة
203 ..... جواهر الجزء الثلاثين: النداء الأخير — من الوعي إلى العمل
203 ..... 1. معرفة الله: أساس كل عمل
204 ..... 2. اليقين بالآخرة: المحرك الحقيقي للسلوك
205 ..... 3. المحاسبة المطلقة: لا شيء يضيع
206 ..... 4. العدل: الإيمان حين يظهر في المعاملات
207 ..... 5. طريق الشجاعة الأخلاقية
208 ..... 6. المسؤولية الفردية: ستقف وحدك
209 ..... 7. المعركة الداخلية: تزكية النفس
210 ..... 8. جوهر الدين الحقيقي
212 ..... 9. الوقت والخسارة: إلحاح الحياة
215 ..... 10. معرفة الخطر وطلب الحماية
219 ..... عن المؤلف

جواهر القرآن

دُرَر الهداية من الثلاثين جزءًا

المجلد الثاني: مسالك الحكمة الإلهية (الجزء السادس عشر إلى الثلاثين)

تُقدِّم جواهر الخمسة عشر جزءًا الثانية عشرَ بصائر مختارة بعناية من كل جزء، تأخذ القارئَ في رحلة تمتد من ختام سورة الكهف إلى سورة الناس، عبر الموضوعات الخالدة للقرآن الكريم في الهداية، والسلوك القويم، والحكمة الإلهية..

يُضيء هذا المجلد البنيةَ الأخلاقية للقرآن الكريم: دعوتَه إلى العزة والتواضع، والتوكل على الله، ووضوح الغاية، مستمدًّا ذلك كله من كلمات الرسالة الإلهية الخاتمة.

ميسورُ الأسلوب، عميقُ التأمل، يدعو هذا الكتابُ القارئَ إلى أن يعيش مع القرآن دليلًا حيًّا؛ دليلًا لا يزال يُشكِّل القلوبَ والبيوتَ والمجتمعاتِ عبر الأجيال.

تبدأ الرحلة هنا، مع جواهر تُنير مسار الإيمان.

عن هذا المجلد

رحلة عبر القرآن الكريم: جزء بجزء، وعشر جواهر في كل مرة

تأخذ *جواهرُ الأجزاءِ الخمسةَ عشرَ الأخيرة* القارئَ في رحلةٍ تأملية عبر النصف الثاني من القرآن الكريم، من ختام سورة الكهف إلى سورة الناس، مُضيئةً أبرزَ الموضوعات المحورية التي تُشكِّل الإيمان، وتُرسِّخ الشخصية، وتُحدِّد الغاية الحضارية.

وعبر هذه الأجزاء الخمسة عشر، يكشف القرآن الكريم عن بنيته الروحية العميقة: وعدَه بالتأييد الإلهي لمن يسلك طريق الاستقامة، والصراعَ مع النفس، وسننَ الله الجارية في التاريخ، وتهذيبَ القول والعمل، والتوكلَ على الله في مواجهة البلاء، وكرامةَ الإنسان، والرؤيةَ الأخلاقية التي ترتقي بالأفراد والمجتمعات على حدٍّ سواء.

يحتوي كل فصل على عشر جواهر: آيات مختارة بعناية تُضيء رسالةً محورية داخل الجزء. وتتضافر هذه الجواهر لتنسج نسيجًا من البصائر:

- تُعمِّق الصلة بالله
- تُوضِّح سنن الهداية والضلال
- تُبرز كرامة الإنسان ومسؤوليته
- تُعلِّم التوكل والصبر والتواضع والحكمة
- تُبيِّن كيف تُحوِّل الهداية الإلهية القلوبَ والحضارات
- تكشف القرآن منهجًا حيًّا للحياة

ومن القصص العميقة للأنبياء في سورة الإسراء إلى النداء الملحِّ المُزلزل للنفوس في سورة الناس، تقود هذه الجواهر القارئ عبر الأجزاء المتأخرة من القرآن الكريم: كثيفةِ المعنى، غنيةِ الغاية، مباشرةِ الخطاب إلى القلب الإنساني.

ميسورُ الأسلوب، عميقُ التأمل، راسخُ الجذور في البنية الموضوعية للقرآن الكريم، يُعدُّ هذا المجلد مناسبًا للدراسة الفردية، وقراءة رمضان، والبرامج التعليمية، وحلقات التدبر المجتمعية.

هذا هو المجلد الثاني من سلسلة مكوَّنة من مجلدين :**جواهر القرآن: دُرَر الهداية من الثلاثين جزءًا**.

المقدمة

لسنوات طويلة، تلا المسلمون القرآن الكريم بمحبةٍ وخشوعٍ وشوق، غير أنهم لم يسلكوا دائمًا مسارًا منهجيًّا يكشف جماله الموضوعي، وبنيته الأخلاقية، ورؤيته الحضارية. وانطلق هذا العمل، *جواهر القرآن*، من سعيٍ إلى إضاءة عشر بصائر مختارة من كل جزء، ابتغاءَ بناء رحلةٍ تأملية تُقرِّب القارئ من قلب الحكمة الإلهية.

يصدر هذا المجلد الثاني، الممتد من الجزء السادس عشر إلى الجزء الثلاثين، ثمرةَ سنواتٍ من الدراسة، والكتابة، والتعليم، والتأمل العميق. وهو رفيق للمجلد الأول الذي تناول الأجزاء الخمسة عشر الأولى، غير أنه يحمل طابعًا مستقلًّا مميزًا. فإن كان النصف الأول من القرآن يُرسِّخ أسس الإيمان، والشريعة، والتاريخ النبوي، فإن النصف الثاني يخاطب النفس بوضوحٍ ومباشرةٍ متزايدين: داعيًا إياها إلى المحاسبة، وحاثًّا إياها على العمل، ومُذكِّرًا إياها بقرب خالقها.

يحتوي كل جزء في هذا المجلد على جواهر: آيات تتلألأ بالمعنى والتوجيه والطاقة التحويلية. تُعلِّمنا كيف نحيا بكرامة، وكيف نُكرِّم الخلق، وكيف نفهم الهداية، وكيف نتوكل على الله، وكيف نرتقي بأخلاقنا في مختلف المواقف. والجزء الأخير، على وجه الخصوص ، يختم مسيرة القرآن بنداء ملحٍّ حميم: من الوعي إلى العمل، ومن المعرفة إلى الالتزام، ومن الذات إلى الرحاب الأوسع من حولها.

ولا تدَّعي هذه التأملات استبدالَ التفسير الكلاسيكي، ولا الإحاطةَ بأغوار القرآن الكريم، وإنما تُقدِّم مدخلًا موضوعيًّا يدعو القارئ إلى أن يعيش مع القرآن دليلًا حيًّا، جزءًا بعد جزء، وأن يكتشف الحكمة المُودَعة في بنيته الفريدة.

وبحمد الله وحده، أُقدِّم هذا المجلد إتمامًا لمشروعٍ يستوعب الأجزاء الثلاثين كاملة. فليجد كل قارئ في هذه الجواهر شرارةً تُنير القلب، وتُقرِّبه من خالقه.

مدخل: القرآن الكريم، كنز الجواهر الإلهية

القرآن الكريم ليس كتابًا كسائر الكتب، بل هو الرسالة الإلهية الخاتمة المحفوظة للبشرية: مئة وأربع عشرة سورة، موزَّعة على ثلاثين جزءًا، تحتضن آياتُها كنوزًا لا تُقدَّر من الحكمة والهداية والنور، تنتظر من يكتشفها عبر التدبُّر؛ ذلك التأمل العميق الصادق في كلام الله. غير أن القرآن كثيرًا ما يُقارَب من باب التعظيم والتلاوة وحدهما، بينما تظل طاقته التحويلية بوصفه دليلًا للحياة رهينةَ الإهمال وضعف التفاعل.

التلاوة عبادة جليلة، لكن القرآن أُنزل لأبعد من ذلك بكثير. إنه ميثاقٌ حيٌّ للحضارة: مصدر هداية يُشكِّل الأفراد والمجتمعات والأمم. نورٌ يُستضاء به في مواجهة التحديات، وروحٌ تُحيي القلوب، ودستورٌ إلهي قادر على إحياء القيم، وتعزيز المجتمعات، وتأهيل المؤمنين ليكونوا منارات للعدل والرحمة للبشرية جمعاء.

ومن أعظم مآسي الواقع الإسلامي المعاصر أن القرآن، وإن كان محلَّ تعظيمٍ ودفاع، يُهجَر في كثير من الأحيان بوصفه مصدرًا للهداية العملية. يثور الغضب حين تُنتهَك حرمة أوراقه المادية، بينما يسود اللامبالاة حين تُهمَل حكمته في تشكيل أخلاقنا، وقراراتنا، وسياساتنا، وبنائنا الاجتماعي. وهذا التناقض يُجسِّد الشكوى المؤلمة التي رفعها النبي صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٣٠)

يسعى هذا الكتاب إلى الاستجابة لتلك الشكوى بإحياء التفاعل مع القرآن عبر التأمل الهادف. والمنهج بسيطٌ في ظاهره، عميقُ الأثر في جوهره: من كل جزء تُنتقى عشر جواهر، آياتٌ تُضيء حقائق عميقة عن الإيمان، والشخصية، والمجتمع، والسنن التي يُدير الله بها مصائر البشر. وتكشف هذه الجواهر دورَ القرآن لا بوصفه نصًّا روحيًّا فحسب، بل دليلًا شاملًا للحياة.

ويجمع هذا المجلد الثاني، الممتد من الجزء السادس عشر إلى الجزء الثلاثين، بين معاني الحكمة الإلهية والمسؤولية الحضارية، وتهذيب الشخصية عبر البلاء والصبر، وبناء الشجاعة الأخلاقية، ويقين المساءلة، والنداء الملحِّ للعودة إلى الله قبل نفاد الوقت. وتخاطب هذه الأجزاء القارئَ بقدرٍ متزايد من الحميمية والمباشرة: تُخاطب النفس، وتُواجِه الغرور، وتدعو المؤمن إلى حياةٍ قائمة على الغاية والتفاعل الواعي مع خالقه.

ومن خلال استجلاء هذه الجواهر، يدعو هذا الكتاب القارئَ إلى أن يعيش مع القرآن بوصفه محادثةً حيَّة: ينبوعًا للوضوح والغاية، ومعينًا لا ينضب من الحكمة الإلهية التي تُضيء كل جانب من جوانب رحلة الإنسان.

المؤلف

جواهر الجزء السادس عشر: الهداية والحكمة والقوة

(الكهف 18: 75 - طه 20: 135)

مقدمة

يجمع الجزء السادس عشر مقاطعَ قرآنية تؤكد كيف يُنزَّل الوحي بالحكمة، ويُقوِّي القلبَ على امتداد الطريق، ويُقدِّم «أحسن تفسير» لكل حيرةٍ وتحدٍّ. وفي هذا السياق، تتجاوز قصة ذي القرنين كونها سردًا تاريخيًّا، لتتحول إلى درسٍ حيٍّ في القوة المنضبطة بالرشد، والمعرفة المسخَّرة للحماية، والتواضع بعد الإنجاز، والمسؤولية الحضارية في مقاومة الفساد دون السقوط فيه.

وفي الوقت نفسه، يُبرز هذا الجزء حقائقَ روحيةً تُشكِّل الحياة الإنسانية: محبةَ الله الخاصة للصالحين، وحكمةَ المحاسبة داخل الأسرة، والقرآنَ مصدرًا لليسر لا للعسر، وشروطَ النجاح الحقيقي في الآخرة، وخطرَ تمزيق الوحدة الجماعية، وضرورةَ المثابرة بالصلاة والصبر.

وتُقدَّم هذه التأملات بتواضع، لا بوصفها يقينًا نهائيًّا، بل دعوةً إلى تفاعلٍ أعمق مع القرآن الكريم، وإلى إدراك أن هدايته لم تُنزَّل لمجرد التلاوة، بل لبناء العقول، وتهذيب القلوب، وإصلاح الأسر، والنهوض بالمجتمعات.

1. ذو القرنين: تحليل الهوية

يُرسي هذا القسم هوية ذي القرنين بتطبيق المنهج العلمي لابن الهيثم والبيانات القرآنية. تقوم منهجية ابن الهيثم البحثية، التي صاغها قبل أكثر من ألف عام، على التساؤل الدقيق، والاستدلال القائم على الأدلة، والتواضع الفكري. وقد عُرف في المصادر اللاتينية باسم Alhazen (ت. 1040م / 431هـ)، ويُعدُّ على نطاق واسع من أوائل المفكرين الذين صاغوا ما نسميه اليوم المنهج العلمي. وفي أعماله الكبرى، ولا سيما كتاب المناظر، رفض التسليم الأعمى للسلطة، والتخمين بغير دليل، والاستنتاجات المستندة إلى التراث وحده.

أكد ابن الهيثم أن طالب الحقيقة يجب أن:

- يشكِّك في الافتراضات
- يعتمد على الأدلة
- يختبر الأفكار بعناية
- يقبل التصحيح حين يقتضيه الدليل

وشدَّد على أن الباحث الحق لا بد أن يكون مستعدًّا للتشكيك حتى في استنتاجاته الخاصة إن لم تسندها الأدلة.

هذا النهج مهم لأن طريقة دراسة الموضوع في أي مجال بحثي كثيرًا ما تكون أكثر أهمية من الموضوع نفسه. فالاستنتاجات السليمة تنشأ من التحقيق المنضبط، لا من الافتراضات الموروثة أو القناعات الشخصية. وينطبق هذا المبدأ على الفيزياء والتاريخ بقدر ما ينطبق على الدراسات النصية والدينية.

يمكن تلخيص منهج ابن الهيثم في خمس خطوات واضحة:

1. **طرح سؤال محدد :**يبدأ البحث بتعريف مشكلة أو إشكالية بعينها؛ فالأسئلة المبهمة تُفضي إلى إجابات مبهمة.
2. **اقتراح فرضية :**الفرضية تفسير مؤقت قابل للاختبار والرفض.
3. **جمع الأدلة (البيانات) :**يجب أن تأتي الأدلة من مصادر أولية موثوقة. وفي الدراسات النصية، يكون النص الأولي ذاته هو البيانات.
4. **اختبار الفرضية :**تواجه الفرضية جميع الأدلة المتاحة. وإن تعارضت مع البيانات وجب تعديلها أو رفضها.
5. **المراجعة أو الاستنتاج :**تظل الاستنتاجات مؤقتة. تتنامى الثقة باتساق الأدلة، ولا يُدَّعى اليقين إلا حيث يكون الدليل صريحًا.

يحمي هذا المنهج الباحث من إرغام البيانات لتناسب استنتاجات مسبقة.

تطبيق المنهج العلمي على الدراسات القرآنية

رغم أن ابن الهيثم طوَّر نهجه لدراسة الظواهر الطبيعية، فإن منطقه الجوهري ينطبق على جميع أشكال التحقيق، بما فيها دراسة النصوص المقدسة.

عند تطبيقه على التحليل القرآني، يعني ذلك:

- تُعامَل الآيات القرآنية بوصفها بيانات أولية، لا استشهادات ثانوية
- تُعامَل التفسيرات بوصفها فرضيات، لا حقائق مطلقة
- تعمل اللغة والبنية والسياق قيودًا على التفسير
- لا تُقبَل الاستنتاجات إلا إن انسجمت مع مجمل الأدلة القرآنية

يتوافق هذا النهج مع دعوة القرآن المتكررة إلى التأمل والفحص والتعقل (التدبُّر).

الالتزام المنهجي لهذه الدراسة

تعتمد هذه الدراسة المنهج العلمي لابن الهيثم إطارًا توجيهيًّا، وبناءً على ذلك:

- لا يُفترَض أي استنتاج مسبقًا

- تُختبَر جميع الادعاءات في مواجهة النص القرآني
- حيث يكون القرآن صريحًا، يُذعن التحليل
- حيث يصمت القرآن، يبقى التحليل حذرًا

الهدف ليس تحدي العلماء الكلاسيكيين ولا الترويج للجدة، بل إظهار كيف يعمِّق التفكير المنضبط، المتجذِّر في التراث الفكري الإسلامي، الفهمَ ويُشحذ التفكير النقدي. وهذا ذو قيمة بالغة للطلاب المتعلمين دراسة النصوص المعقدة بمسؤولية.

بتأسيس هذا المنهج، تنتقل الدراسة إلى دراسة قرآنية حالة مركَّزة: هوية ذي القرنين وطبيعة يأجوج ومأجوج. بدلًا من البدء بالتفسيرات الموروثة، يبدأ التحليل بالأسئلة، ويُشكِّل الفرضيات، ويفحص البيانات القرآنية، ويختبر كل ادعاء في مواجهة الأدلة اللغوية والبنيوية والسياقية، اتساقًا تامًّا مع التراث العلمي لابن الهيثم.

تحليل هوية ذي القرنين استنادًا إلى البيانات القرآنية

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ (الكهف: 83)

1. تعريف البيانات
المصدر الأولي للبيانات :القرآن الكريم ذاته، وتحديدًا:
- سورة الكهف(98-83 :18)
- الآيات القرآنية المتقاطعة التي تُعرِّف الألقاب والوظائف والصفات

2. مجموعة البيانات (أ): لقب "ذو" في الاستخدام القرآني

البيانات: تعريف اللقب
يستخدم القرآن "ذو" (ذو) لتحديد الهوية الوظيفية، لا الأسماء الشخصية.
الدليل :يمنح القرآن لقب "ذو" لخمسة أشخاص:
1. ذَا ٱلۡأَيۡدِ
2. ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ
3. ذَا ٱلنُّونِ
4. ذَا ٱلۡكِفۡلِ
5. ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ

ومن هؤلاء، اثنان مُحدَّدان صراحةً في القرآن:
.1النبي داود بوصفه ذا الأيد :﴿ٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ (ص 38: 17)

هنا يُشير الأيد إلى القوة والقدرة، مناسبًا للقوة الممنوحة إلهيًّا لداود.

.2فرعون بوصفه ذا الأوتاد :﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ (الفجر 89: 10)
يعكس هذا اللقب سلطانه الجبار وهيمنته الراسخة.

.3ذو النون: مُحدَّد بالسياق
رغم عدم تسميته صراحةً، فإن ذا النون هو النبي يونس بوضوح، استنادًا إلى السياق القرآني والحديث النبوي: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء 21: 87)

الملاحظة :في الحالات الثلاث، يُبرز اللقب سمةً محورية مُعرِّفة ولا يستلزم ذكر الاسم الشخصي مجددًا.

3. مجموعة البيانات (ب): أشخاص "ذو" غير المُحدَّدين

ذو الكفل: مُسمًّى صراحةً بين الأنبياء لكنه غير مُفسَّر وظيفيًّا
﴿وَإِسۡمَـٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (الأنبياء 21: 85)

البيانات اللغوية لكلمة كفل:
- **الكفالة :**﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران 3: 37)
- **النصيب المخصَّص :**﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَـٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾ " (النساء 4: 85)
- **التقسيم الإلهي المحدود :**﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ (الحديد 57: 28)

الاستنتاج :يدل مصطلح الكفل باستمرار على المسؤولية والتخصيص والكفالة، لا على الوصف الجسدي. والنبي الأكثر ارتباطًا بإدارة الموارد ورعاية الرفاه الاجتماعي وتوزيع الأرزاق وقت الأزمات هو النبي يوسف. ويتوافق هذا الارتباط الوظيفي توافقًا وثيقًا مع لقب ذي الكفل.

4. مجموعة البيانات (ج): النطاق الدلالي لكلمة "قرن"

الدليل :﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ (الأنعام 6: 6)
﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ (المؤمنون 23: 31)
الملاحظة :يستخدم القرآن "قرن" بمعنى جيل أو حضارة أو سلطان أو حقبة. وبذلك يُجيز "القرنين" لغويًّا: جيلين، أو حقبتين، أو نطاقين من السلطة.

5.مجموعة البيانات (د): الصفات المباشرة لذي القرنين (الأدلة الأولية)
د1: التمكين الشامل ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىۡءٖ سَبَبٗا﴾ (الكهف 84)

د2: السلطة القضائية ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُ ۥ عَذَابًا نُّكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُ ۥ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ ۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف 87-88)

د3: التواصل متعدد اللغات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (الكهف 93)
مع ذلك، وقع التواصل والتفاوض بوضوح.

د4: الهندسة والمعادن المتقدمة ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ ۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف 96)

6. اختبار الفرضية في مقابل سليمان (مع البيانات)

نطاقين من السلطة :﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ (النمل 17)
إتقان اللغات :﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ (النمل 16)
المعادن :﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سبأ 10)
﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ (12)

7. النتيجة

كل نقطة بيانات قرآنية مُعرِّفة لذي القرنين، موجودة صراحةً، تعكس وظيفيًّا وتدعم نصيًّا الصورة القرآنية للنبي سليمان.

8. الخلاصة

حين تُعامَل الآيات القرآنية بيانات أولية لا استشهادات توضيحية، فإن تعريف ذي القرنين بالنبي سليمان يُظهر أعلى درجات التماسك الداخلي. لا توجد فرضية منافسة تستوفي العدد ذاته من القيود القرآنية المستقلة دون استيراد افتراضات خارج القرآن.

2. يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم

ستُحدَّد طبيعة يأجوج ومأجوج باتباع المنهج العلمي لابن الهيثم، بدلًا من البدء بالتفسيرات الموروثة. يبدأ التحليل بالأسئلة، ويُشكّل الفرضيات، ويفحص البيانات القرآنية، ويختبر كل ادعاء في مواجهة الأدلة اللغوية والبنيوية والسياقية.

1. مشكلة البحث

يذكر القرآن يأجوج ومأجوج في سياقين مختلفين:
السياق (أ): داخل قصة ذي القرنين (سورة الكهف) ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (الكهف 94)

السياق (ب): علامة أخروية تسبق الساعة (سورة الأنبياء) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (96) وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ (الأنبياء 96-97)

مشكلة البحث: هل مرجع مصطلح "يأجوج ومأجوج" متطابق بالضرورة في السياقين، أم يُجيز الاستخدام القرآني حقائق مختلفة تحت عنوان وصفي مشترك؟

2. أسئلة البحث

س1 (النصي / المرجعي) :هل يستلزم الوصف القرآني في سورة الكهف أن يكون يأجوج ومأجوج جماعات بشرية؟

س2 (الهندسي / البنيوي) :هل يعمل البناء الموصوف في سورة الكهف كجدار عسكري في مواجهة البشر، أم كسد احتواء ضد خطر مادي؟

س3 (بين السياقين) :إن كانت سورة الأنبياء تشير إلى إطلاق جماعي قرب نهاية الزمن، فهل يستلزم ذلك أن سورة الكهف تشير هي الأخرى إلى بشر، أم يمكن أن يكون اللقب وصفيًا ومرتبطًا بالسياق؟

3. الفرضيات

الفرضية الصفرية (الافتراض الكلاسيكي) :يأجوج ومأجوج في سورة الكهف جماعات بشرية، والسد تحصين لإيقاف هجومهم.

الفرضية البديلة قيد الاختبار :في سورة الكهف، يُشير يأجوج ومأجوج إلى ظاهرة مدمِّرة تخرج من الممر وتستلزم الاحتواء لا العقوبة، بينما قد تشير سورة الأنبياء إلى خروج بشري لاحق تحت العنوان الوصفي ذاته.

يختبر هذا القسم الفرضية البديلة في مواجهة قيود البيانات القرآنية.

4. مجموعة البيانات (الأدلة القرآنية الأولية)

البيانات 1: شكوى "الفساد "﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الكهف 94)
الملاحظة: تصف الشكوى نتيجة (إفساد)، لا سيرة ذاتية.

البيانات 2: الهيكل المطلوب: "سد "﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ (الكهف 94)

البيانات 3: الهيكل المُنجَز: "ردم "﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ (الكهف 95)
قيد نصي أساسي: يُميِّز القرآن بين ما طُلب وما أُنجز.

البيانات 4: التركيب والعملية: حديد وحرارة ونحاس مذاب ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ (الكهف 96)

القيد: هذا ليس بناءً من الحجارة العادية؛ بل هو سد بالإغلاق المعدني عن طريق الصهر والطلاء.
تفصيل دقيق وذو دلالة في الوصف القرآني: أن ذا القرنين سوَّى أولًا بين الصدفين (جانبي الجبل المتقابلين). والجدير بالملاحظة أن القرآن لم يستخدم مصطلح السفح (سَفح) الذي يُشير عادةً إلى منحدر جبلي عادي يتميز بالتربة والتعرية والنباتات. بدلًا من ذلك، يُوحي مصطلح الصدف بأسطح صلبة صماء، ربما نتيجة نشاط بركاني أو جيولوجي سابق.

كان تسوية هذه الجوانب المتصلبة خطوة تحضيرية حاسمة؛ إذ تُزيل الفجوات غير المنتظمة وتمنع التسرب الجانبي، ولا سيما الغازات المضغوطة، حول البنية المردومة. كفل هذا التحضير أن يُشكِّل الردم اللاحق واجهة مستمرة ومحكمة مع الصخر المحيط، مانعًا أي مادة مضغوطة من اختراق السد عن طريق التسرب الجانبي أو الثقب بقوة الضغط.

البيانات 5: النتيجة الموصوفة: لا تجاوز من الجانبين ولا ثقب ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ (الكهف 97)
القيد: يُبرز القرآن نمطين من الإخفاق:

- يظهروه: عجزهم عن التجاوز من الجانبين أو من أعلى
- نقبًا: عجزهم عن الثقب أو الاختراق

البيانات 6: الحالة النهائية: "دكًّا "﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ (الكهف 18: 98)
المرجع المقارن: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ (الأعراف 143)
القيد: تدل "دكًّا" على سحق وانهيار كتلة صلبة متماسكة.

البيانات 7: السياق الثاني: الإطلاق قبل الساعة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ (الأنبياء 96)
القيد: "فتح" وانتشار عالمي النطاق "من كل حدب."

5. الاختبارات التحليلية

الاختبار 1: الاختبار البنيوي الوظيفي: "جدار أم سد؟"

إن كان الهدف عدوًّا بشريًّا، فالاستجابة الهندسية المتوقعة ستكون: منع التسلق، ومقاومة الاختراق، والدفاع العسكري. لكن البيانات القرآنية تُبرز: الردم (لا الجدار القائم)، وكتل الحديد المنصهرة بالحرارة وطلاء النحاس المذاب، مع التركيز على عدم التسرب الجانبي وعدم الثقب.(97 :18)

النتيجة :يتوافق هذا الوصف بصورة أكثر طبيعية مع احتواء خطر لا مع صد هجوم بشري.

الاختبار 2: الاختبار اللغوي لأنماط الإخفاق (18: 97)

لا يقول القرآن إنهم دمَّروه أو كسروه أو تغلبوا عليه. بدلًا من ذلك، يصف أنماط إخفاق تتسق مع التسرب والهروب والاختراق: يظهروه (التجاوز من الجانبين أو من الأعلى) ونقبًا (الاختراق بالثقب).
النتيجة :اللغة أكثر اتساقًا مع "سلامة الاحتواء" منها مع مفردات الحرب.

الاختبار 3: اختبار الأهلية الأخلاقية (18: 87 مقابل فعل ذي القرنين)

يُقرِّر ذو القرنين سياسة حاكمة لمعاقبة الظالمين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ (الكهف 18 87)
لكنه في مقطع يأجوج ومأجوج لا يواجههم ولا يعاقبهم؛ بل يلجأ إلى حل هندسي.

النتيجة :لو كان يأجوج ومأجوج فاعلين أخلاقيين، لكانت السردية متوقعة أن تتضمن تحكيمًا أخلاقيًّا.
يدعم التحول نحو الاحتواء التقني الادعاءَ بأن المشكلة ليست "جماعة" تستوجب العقوبة بل مصدر مدمِّر يستلزم التحييد.

(ملاحظة مهمة: هذا استنتاج ليس تصريح قرآني. هو صالح فقط بوصفه اختبارًا تحليليا.)

6. المقترح اللغوي (الأسماء بوصفها ألقابًا وصفية)

ارتباطات الجذر المقترحة (كآلية للفرضية)

قد تتصل المصطلحات بجذور تُوحي بـ: الاشتعال أو الهدير (أجَّ) والتدفق أو القذف (مجَّ).

لا يُعامَل هذا دليلًا قائمًا بذاته، بل آليةً تفسيرية محتملة تتسق مع "التسمية الوصفية"، على غرار: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ (المسد 1) "أبو لهب" لقب وصفي لعم النبي عبد العزى، يعكس دوره في إشعال الصراع، لا إشارة إلى نار حرفية.

7. اختبار التوفيق بين السياقين: مصطلح واحد، كيانان مختلفان؟

تُجيز لغة القران حمل معانٍ متعددة للكلمة الواحدة بحسب السياق. والمثال لذلك هو كلمة "أمة":"

- **أمة بمعنى قوم :**﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف 38)
- **أمة بمعنى حقبة زمنية :**﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف 45)
- **أمة بمعنى دين أو ملة :**﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف 23)

النتيجة :يدعم الاستخدام القرآني مبدأ أن المصطلح الواحد قد يتحول معناه بحسب السياق دون تناقض. مما يجعل من المحتمل ان يأجوج ومأجوج فى:

- سورة الكهف: لقب وصفي لظاهرة مدمِّرة
- سورة الأنبياء: لقب وصفي لخروج بشري لاحق يتسم بآثار "إفساد" مماثلة

8. الخلاصة الأولية

استنادًا إلى البيانات القرآنية والاختبارات البنيوية اللغوية:

1. تفاصيل البناء (الردم، واندماج الحديد، وطلاء النحاس المذاب) ووصف أنماط الإخفاق (لا تسرب جانبي، لا ثقب) تتسق بصورة أكثر طبيعية مع سد الاحتواء لا مع الجدار العسكري.
2. تحول السردية من العقوبة الأخلاقية ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ (18: 87) إلى الاحتواء التقني يدعم، باعتباره استنتاجًا للتماسك، أن التهديد في هذا السياق قد لا يكون خصمًا بشريًّا تقليديًّا.
3. يُقدِّم القرآن ذاته سابقة للمعاني المتغيرة بحسب السياق (أمة)، مما يفسح المجال لمصطلح يأجوج ومأجوج أن يعمل لافتةً وصفية عبر السياقين.

لذلك، تظل الفرضية القائلة بأن يأجوج ومأجوج في سورة الكهف يُشيران إلى ظاهرة مدمِّرة خارجة من الممر قابلةً للتحقق ومتماسكة نصيًّا. أما الفرضية الصفرية القائلة بأنهم جماعات بشرية فتستلزم افتراضات إضافية حول سبب تأكيد القرآن على أنماط إخفاق تشبه سد الاحتواء لا لغة الصراع.

9. محدودية الدراسة (ما لا تدَّعيه)

- لا تدَّعي هذه الدراسة يقينًا مطلقًا حول الهوية.
- تُعامَل ارتباطات الجذر اللغوية بوصفها احتمالًا داعمًا لا دليلًا قاطعًا.

- تُعترَف بالروايات النبوية عن الخروج الأخروي وتُعتبَر مرتبطة بسورة الأنبياء. وبذلك تحصر هذه الدراسة نفسها في البيانات القرآنية من سورة الكهف بوصفها أدلة أولية.

10. الخاتمة

يُثني الله على ذي القرنين لا لامتلاكه القوة فحسب، بل لتوظيف المعرفة والسلطة في كبح الفساد وحماية الحياة، بدلًا من السيطرة أو الإتلاف.

11. مشروع لباحث المسلم

استنادًا إلى الكهف 95-98، أي موقع مرشَّح يجب أن يُثبت جميع ما يلي:

1. جانبان جبليان متقابلان (صدفان)، لا تلال
2. ممر ضيق ، لا وادٍ واسع
3. أدلة على وجود أسطح صخرية مسوَّاة أو متصلبة (لا منحدرات ترابية)
4. تاريخ ضغط باطني (غاز، نشاط حراري أرضي)
5. مسارات تسرب طبيعية يمكن سدَّها
6. منطقة يكون فيها الإغلاق الهندسي (الردم) منطقيًّا فيزيائيًّا

3. أهمية القوتين المادية وغير المادية

ينشأ الفساد حين تُطلَق القوة دون ضابط أو توجيه أخلاقي. ومن ثَمَّ يغدو من مسؤولية المؤمنين احتواء الدمار باكتساب المعرفة وتطوير أشكال القوة المادية وغير المادية، وتوظيفهما بحكمة في كبح الشر وحماية المجتمع.

يُقدِّم ذو القرنين نموذجًا للقوة المنضبطة الأخلاقية. فهو لم يعتمد على السلطة والموارد التي منحه الله إياها وحدها؛ بل مكَّن الناس الذين كان يُعينهم بإشراكهم مباشرةً في العملية:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (الكهف 95)

في هذا الموقف، كانت القوة المادية، القوى البشرية والمواد والتنفيذ التقني، ضرورية لإنجاز المهمة. غير أن القوة المادية وحدها، دون توجيه، لا تستطيع تحقيق الأهداف الإلهية. لا بد أن توجِّهها القوة الروحية والأخلاقية المستمَدَّة من الوحي.

ويتجلى هذا التوازن في أمر الله للنبي يحيى عليه السلام:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ (مريم 19: 12)

لا يعني "أخذ الكتاب بقوة" مجرد قراءته، بل تعلُّمه بعمق واستيعاب هدايته والعيش به بعزيمة. تُقرِّر هذه الآية أن القوة غير المادية، العزيمة الأخلاقية والوضوح الفكري والانضباط الروحي، لا غنى عنها في أي مسعى رشيد.

وعليه، لا تزدهر الأمم الصالحة إلا حين تتوحد القدرة المادية والسلطة الروحية، كلتاهما متجذِّرتان في المعرفة وموجَّهتان بالوحي الإلهي.

حين كنت ناشئًا، كانت أغلفة الكتب المدرسية التي توزعها وزارة التربية و التعليم تحمل الأبيات الآتية:

تعلَّم العلم واقرأ تحز فخار النبوة
فالله قال ليحيى خذ الكتاب بقوة

.
للأسف، حُذفت هذه الأبيات لاحقًا، وبحذفها اختفت رسالة بالغة الأثر كانت تُلهم الطلاب لرؤية العلم مسؤولية روحية وحضارية في آن.

4. التواضع رغم النجاح العظيم

على الرغم من قوة ذي القرنين ومنجزاته، بقي متواضعًا وعزا كل شيء إلى الله:
﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ (الكهف 98)

تُعلّمنا قصته أن الشكر الحقيقي على القوة يتجلى في استخدامها بعدل ولصالح الآخرين. لم يُسمِّه القرآن، ربما ليحوِّل التركيز من هويته إلى دروس شخصيته وأفعاله. ويُتيح هذا الأسلوب أيضًا مجالًا للتأمل والتحليل.

5. نعمة أن تكون محبوبًا

كثير من النعم التي خلقها الله لتجميل الحياة يشترك فيها المؤمنون وغير المؤمنين. غير أن الله يمنح المؤمنين الذين يعملون الصالحات هبةً خاصة تقتصر عليهم: محبته الخاصة المعروفة بالوُد. يقول الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ (مريم 96)

رغم أن كلمتَي الحب والوُد تُترجَمان في الإنجليزية "love"، فإنهما تحملان معنيين مختلفين. يُشير الحب أساسًا إلى المشاعر العاطفية، في حين يُشير الوُد إلى المحبة المُعبَّر عنها بالفعل والالتزام.

قد يشعر الإنسان بالحب تجاه شخص ما دون أن يكون مستعدًّا للتضحية أو الفعل من أجله. أما حين يكون للإنسان وُد تجاه آخر، فإن تلك المحبة تتجلى في الجهد والاهتمام والعمل المستمر. ووُد الله يفوق المحبة البشرية بما لا يُقاس: فهو يعني أن الله يلتزم بالعناية بك ومساندتك ومنحك الخير، غالبًا أكثر مما طلبت.

تأمل كيف تشعر بالشرف والبهجة لو ذكرك شخص بارز أو مسؤول باسمك. فكيف ينبغي أن تكون سعادتك حين يذكرك الله، رب الكون وملك الملوك، ويُعلن محبته لك؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحِبَّه، قال: فيُحِبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحِبُّوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض." [مسلم عن أبي هريرة]

حين يُحبك الله، يُكبِّل أعداؤك عن إيذائك بما يشاؤون. إن ظفرت بوُد الله فهو دائمًا قريب، يدعوك للإفضاء إليه بمخاوفك وآلامك وحاجاتك. اجلس خاليًا وادعُ الودود . تحدَّث إليه في همومك وعملك وتجارتك وأبنائك ومستقبلك، وتوكل عليه في السند والفرج.

حين تبحث عن عزاء في الحزن، ورحمة في الضيق، أو مجرد من تسكب بين يديه قلبك، فالله الودود حاضر أبدًا. يُحبك دون أن ينتظر شيئًا في المقابل. يُسندك ويهديك لا لحاجة منه، بل من رحمته ومحبته لصدقك وصلاحك.

المحبة والكراهية البشريتان خارج سيطرتنا. فالقلوب ليست ملكًا للبشر؛ هي ملك الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء." (مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص)
وقال الله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ (الأنفال24)

لا تجتمع القلوب في محبة أحد إلا بإذن الله. ولهذا قال الإمام ابن حجر: "إن محبة قلوب الناس علامة محبة الله".

لبلوغ هذه العلاقة الرفيعة مع الله، لا بد من الإيمان الحق والعمل المستمر بالصالحات.

6. القوة العاطفية: الرجل والمرأة

اللافت في القرآن كيف يُحدِّد المسؤولية. فقد وضع الله اللوم كاملًا على آدم لا على حواء. فآدم هو الموصوف بنسيان العهد وضعف العزيمة، وهو المُصرَّح باسمه بأنه عصى ربه.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ (طه 115)

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (121) ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه 121-122)

رغم الفعل المشترك، يُفرد القرآن آدم بالمحاسبة. وهذا يعكس الحكمة الإلهية والفهم العميق للطبيعة الإنسانية. فالله يعلم الحساسية العاطفية للمرأة ولا يُثقِّلها بلوم يُؤذيها أو يَحُطَّ من شأنها.

من هذا تبرز درس أخلاقي بالغ: الرجل الحق يحمل المسؤولية، ولا سيما داخل الأسرة. والزوج الذي يتحمل اللوم بدلًا من توزيعه يصون الانسجام والأمان العاطفي في البيت. إن تعلُّم قول "أنا آسف"، حتى حين يُدرك المرء أنه ليس المخطئ، كثيرًا ما يُفضي إلى حياة أهدأ وأسعد وأكثر استقرارًا.

هذا ليس ضعفًا؛ بل هو قوة موجَّهة بالحكمة.

7. وحي الله معدَّ لليُسر

يُطمئن الله النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلاله جميع المؤمنين، موضِّحًا أن إنزال القرآن وأوامره ليست لإيقاع المشقة.

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ (طه 20: 2

وليُجسِّد هذا المبدأ، يعرض الله قصة النبي موسى عليه السلام، مُظهِرًا أن الوحي الإلهي معدَّ لإيصال الطمأنينة والراحة والسند الإلهي لمن يتلقاه ويبلِّغه. وضمن هذه القصة، يذكر الله تفصيلًا فريدًا لا يرد إلا مرة واحدة في القرآن كله، ويمكن ربطه ارتباطًا وثيقًا بالراحة ورفع المشقة:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ (11) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ (طه 11-12)

يأمر الله موسى بخلع نعليه دون تفسير صريح. وهذا يستدعي التأمل، ولا سيما في ضوء الإعلان الافتتاحي للسورة بأن الوحي ليس لإيقاع المشقة. وخلع النعل علامة طبيعية على الراحة والاسترخاء؛ فحين يعود المرء إلى البيت بعد تعب أو سفر طويل، يكون من أولى أفعال الاسترواح خلع النعلين.

وهكذا يرمز هذا الأمر إلى انتقال موسى إلى حالة من الطمأنينة والحماية الإلهية والراحة الداخلية حين اختير للنبوة. إنه بداية رسالة لا يحملها العبء وحده، بل يحملها السند الإلهي.

وتأكيدًا لهذا المعنى، يوضح الله لاحقًا أن المشقة لا يسببها الوحي ذاته، بل الإعراض عنه:

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ (طه 20: 124)

تُقدِّم كتب التفسير الكلاسيكية عادةً تفسيرين لأمر خلع النعلين:

1. كانت نعلا موسى مصنوعتين من جلد حمار ميت وكانتا غير لائقتين للوادي المقدس طوى.
2. أُمر بخلعهما ليلمس قدماه الأرض المباركة مباشرةً.

غير أن هذين التفسيرين يواجهان إشكاليات عدة:

1. الحمار ليس حيوانًا نجسًا أو دونيًا؛ فهو مذكور في القرآن ضمن قصة تُبرز قدرة الله على البعث (قصة العزير)، مما يُضعف القول بأن جلده نجس بطبيعته.
2. دخل الناس وادي طوى، ولا يزالون يدخلونه، بالنعال، والحيوانات تجول فيه بحرية.
3. كان موسى يسافر عبر الصحراء، وكانت نعلاه على الأرجح أنظف لا أكثر تلوثًا.
4. تُجيز الممارسة الإسلامية الصلاةَ في النعلين بل تُشجع عليها إن كانا طاهرين. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم".

وقال أيضًا: "إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر، فإن رأى في نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما." (أبو داود)

والجدير بالذكر أن هذا الأمر لا يرد إلا مرة واحدة في القرآن، رغم أن قصة موسى تُذكر نحو 136 مرة في 34 سورة. يُشير هذا الاستثناء القوي إلى أن التعليمة ليست عَرَضًا بل مرتبطة موضوعيًّا بالرسالة الجوهرية لسورة طه: أن الهداية الإلهية مصدر طمأنينة لا ضيق.

يتوافق أمر خلع النعلين بصورة طبيعية مع الإعلان الافتتاحي للسورة: وحي الله معدَّ لإيصال اليسر والراحة والاستقرار، لا لإيقاع المشقة.

8. النجاح في الآخرة في جملة واحدة

تُحدِّد هذه الآية، في عبارة واحدة، مَن هو الأحق حقًّا بأن يرجو لقاء الله. ذلك الإنسان الذي يأتي الله بعنصرين لا غنى عنهما: العمل الصالح المخلص والتوحيد الخالص. والعمل الصالح لا يقتصر على الشعائر التعبدية وحدها؛ بل يجب أن يُشكِّل المؤمن مثالًا أخلاقيًّا في كل مجال: في علاقته بالله، ومع الأهل والأصدقاء، ومع الخصوم، ومع الفقراء والأثرياء، ومع الخلق أجمعين من إنسان وحيوان وطبيعة.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ (الكهف 110)

والسبيل لبلوغ هذا السلوك المثالي هو اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم أسوةً. لا يستحق المرء حقًّا رجاءَ لقاء الله إلا باتباع سيرة النبي وهديه. يقول الله:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ (الأحزاب 21)

وعليه، فرجاء لقاء الله ليس مجرد ادعاء أو مشاعر؛ بل يستلزم دراسةً جادة ومستمرة لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والسعي الواعي لتجسيد هديه في جميع جوانب الحياة.

9. تمزيق الوحدة لا يُعالَج باستهانة

الوحدة بين أتباع أي نبي أمر بالغ الخطورة، لا سيما لأن كل جماعة مؤمنة تضم حتمًا منحرفين ومنافقين. فالتحدي إذن ليس في وقوع الانحراف، بل في كيفية التعامل معه دون تدمير وحدة الجماعة ذاتها.

يُجسِّد القرآن هذا التوازن الدقيق من خلال موقف النبي هارون إبان أزمة العجل الذهبي. فرغم جسامة الخطيئة التي ارتكبها بعض بني إسرائيل، امتنع هارون عن مواجهتهم بالعنف أو طردهم. وحين سأله موسى عن سبب هذا الكف، أجابه هارون:

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه 20: 94)

يكشف هذا الجواب مبدأً جوهريًّا في القيادة النبوية: الحفاظ على وحدة الجماعة قد يتقدم أحيانًا على المواجهة الفورية، حتى حين يكون الخطأ جسيمًا. أدرك هارون أن الفعل القسري في تلك اللحظة كان سيمزق الجماعة تمزيقًا لا يُمكن إصلاحه، مُقوِّضًا المهمة ذاتها التي اؤتُمن على حمايتها.

ويتجلى المبدأ ذاته في قيادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. فرغم علمه التام بمؤامرات المنافقين وأراجيفهم وفتنهم الداخلية في المدينة، آثر النبي صلى الله عليه وسلم الكف. وكان من أبرز مخاوفه أن يقول الناس: "محمد يقتل أصحابه." وكان هذا التصور سيُضر بالرسالة ويُمزق الجماعة.

وهكذا يُعلِّمنا القرآن والنموذج النبوي أن الوحدة أمانة هشة. لا يُعالَج تمزيقها باستهانة، ولا يُمكن ترميمها بسهولة بعد تشققها. وتكمن الحكمة في القيادة في التمييز بين تصحيح الانحراف وصون الجسد الجماعي: معرفة متى تُواجه، ومتى تكف، ومتى تُقدِّم بقاء الأمة وتماسكها على العقوبة الآنية.

10. المثابرة

طاعة الله تستلزم المثابرة، وسبيلها الصبر والصلاة. يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن خلاله جميع المؤمنين، بالثبات عبر الذكر الدائم والتفرغ للعبادة:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (طه 130)

في هذه الآية، كما في كثير غيرها، يُرسي القرآن الصبر والصلاة أساسَي الطاعة والتحمُّل الروحي. فالمثابرة لا تُصان بالعزيمة وحدها، بل بالصلة الدائمة بالله عبر العبادة والذكر.

ولهذا يأتي الأمر الإلهي المباشر بشأن أهل البيت:

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ (طه 132)

يُؤكد الله أن الأمر بالصلاة داخل الأسرة هو ذاته عمل يستلزم الصبر والمثابرة. فالهداية لا تُفرض في لحظة؛ بل تُرعى بالاتساق والقدوة والتحمُّل. والالتزام بهذا التوجيه الإلهي يُؤدي دورًا محوريًّا في تأسيس الاستقرار الروحي في البيت، وقد يُزيل كثيرًا من التوترات الأسرية بتأصيل الحياة اليومية في العبادة والتوكل والغاية المشتركة.

خاتمة

تُقدِّم جواهر هذا الجزء مجتمعةً رؤية قرآنية متماسكة للقوة الصالحة. فالقوة الحقيقية ليست القدرة على الهيمنة، بل القدرة على كبح الفساد وحماية الحياة، موجَّهةً بالوحي، منضبطةً بالتواضع، مستعينةً بالجهد الجماعي، كما يُجسِّد ذو القرنين. ويُذكَّر المؤمن بأن النجاح الروحي لا يُدَّعى بالكلام بل يُكتسب بالتوحيد الخالص والعمل الصالح الذي يُشعُّ نزاهةً في كل علاقة ومسؤولية.

في الوقت ذاته، يُعلِّم الجزء أن هداية الله ليست عبئًا بل رحمة: الإقبال عليها يُورث اليُسر، والإعراض عنها يُفضي إلى الضنك والمشقة. ويُذكِّرنا بأن الوحدة أمانة هشة تتشقق بسرعة وتُرمَّم بصعوبة؛ فالحكمة في مواجهة الانحراف دون تدمير الجماعة ذاتها. ويُثبِّت الجزء التحمُّل على أعظم ركيزتين له: الصبر والصلاة، في الحياة الشخصية أولًا ثم في البيت حيث يبدأ الاستقرار الدائم.

يدعو هذا الجزء القارئ إلى أن يكون من يَرجو لقاء الله حقًّا: متجذِّرًا في الوحي، مُقوَّى بالعبادة، مُهذَّبًا في الشخصية، ملتزمًا بتوظيف المعرفة والقوة رحمةً لا سلاحًا.

جواهر الجزء السابع عشر: تأملات في الابتلاء والتوكل والسند الإلهي

(الأنبياء 21: 1 - الحج 22: 78)

مقدمة

يعرض الجزء السابع عشر كوكبةً قويةً من الموضوعات تخاطب الرحلة الإنسانية عبر الزمن والمحاسبة مباشرةً. يواجه قُرب الحساب، ويكشف حقيقة الابتلاء الإلهي في اليسر والعسر معًا، ويجلو اتساع الكون الغيبي، ويتتبع صعود الحضارات وأفولها، ويكشف العلاقة الحميمة بين الدعاء الصادق والاستجابة الإلهية.

يجمع هذا الفصل آيات مختارة وتأملات تُظهر كيف يُعلّم الله البشرية عبر كتابين متكاملين: الكلمة الموحاة والعالم المخلوق. يُدرِّب هذان الكتابان معًا القلبَ على العبادة بإخلاص، والعقلَ على التفكير بوضوح، والإرادةَ على العمل بمسؤولية. في هذا الجزء، يبرز القرآن لا نصًا للشعائر وحدها، بل دليلًا شاملًا يُهيِّئ المؤمن للعيش بهدف وصبر وشجاعة وتوكل راسخ على الله.

1. الوقت ينفد سريعًا

منذ لحظة ولادة الإنسان، يبدأ ساعة العمر في العدّ التنازلي المستمر نحو نهاية حتمية: اللحظة التي يُقدَّم فيها سجله للحساب النهائي. غير أن كثيرًا من الناس يعيشون كأن الوقت لا نهاية له، يُبدِّدون أيامهم دون أن يُدركوا أن كل لحظة تمضي لا تعود. كالطلاب الذين لا يعلمون أن للامتحان وقتًا محدودًا، يُضيِّعون أثمن الأوقات رغم التحذيرات المتكررة.

يرصد القرآن هذا الوهم الخطير بوضوح مذهل:
﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ (الأنبياء 1)

ثم يصف القرآن استجابتهم للتذكير الإلهي:
﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ (2) لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ (الأنبياء 2-3)

المأساة ليست الجهل، بل الإهمال. التذكيرات مسموعة لكنها تُؤخذ باستهتار. يبقى القلب منفصلًا، كأن المحاسبة وهمٌ بعيد لا حقيقة مقبلة.

ثم يُزيل القرآن سوء فهم شائعًا آخر: أن الابتلاء الإلهي يقع من خلال المحن وحدها. والحقيقة أن الله يبتلي الإنسان بالشر والخير معًا:

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ (الأنبياء 35)

بل إن الرخاء كثيرًا ما يكون الابتلاء الأشد خطرًا. حين يواجه الناس المحن، يلجؤون فطريًّا إلى الله في خضوع وافتقار. أما حين يُبتلَون بالراحة والثروة والنفوذ والنجاح، فكثير منهم يُصابون بالغفلة، ويشعرون بحاجة أقل إلى الهداية. وعند هذا الحد بالذات تتعمق الغفلة، ويزداد تغرير الشيطان نجاعةً.

وهكذا يُشكِّل قُرب الحساب ودقة الابتلاء الإلهي معًا التحذير الافتتاحي لهذا الجزء: الوقت محدود، والابتلاء مستمر، والغفلة أشد أعدائه خطرًا.

2. التحقق من المعرفة عبر الخبرة والعقل السليم

من أبرز العقبات المتكررة أمام قبول الهداية الإلهية: الرفض المسبق لفكرة أن يُرسل الله بشرًا برسالته. فبعضهم يرفض ذلك رفضًا قاطعًا، عاجزين عن التوفيق بين الحياة البشرية العادية والوحي الإلهي. وآخرون يقبلون الرسول البشري لكنهم يرفعونه فوق حدود البشرية، فيقعون في التأليه محاولةً منهم لحل هذا التوتر.

يعالج القرآن هذا اللبس بخطوتين متكاملتين عقلانيتين.

أولًا: يوجِّه الله الناس إلى استشارة أهل العلم التاريخي والكتابي، من علماء الأديان السابقة وأتباعها، الذين يشهدون أن جميع رسل الله كانوا بشرًا. وهذا يُثبِّت الاستمرارية في السنة الإلهية ويُسقط حجة أن الرسول البشري أمر غير مسبوق:
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (الأنبياء 7)

ثانيًا: يُغلق الله باب التأليه بالاستناد إلى العقل الصريح البسيط. يُبرز سمتين إنسانيتين جوهريتين لا تنسجمان مع الألوهية: الحاجة والفناء:
﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ (الأنبياء 8)

الحاجة إلى الطعام تعني الافتقار، والفناء يعني المحدودية. وكلاهما صفة قاطعة للمخلوق لا للخالق. تُؤسِّس هاتان الآيتان معًا مبدأً قرآنيًّا جوهريًّا: الحق يُثبَّت بالسلطة المستنيرة ويتعزز بالعقل الصريح. المعرفة الصحيحة تُصادق على الوحي، في حين تهدم الملاحظة البسيطة المعتقدات الزائفة. لا يدعو الإرشاد الإلهي الناسَ إلى التخلي عن العقل؛ بل يدعوهم إلى توظيفه بأمانة.

هذا الوضوح العقلاني يُهيِّئ القارئ لما يلي في الجزء: سلسلة من الآيات والحجج والدروس التاريخية، لا لإرهاق العقل بل لإيقاظ القلب قبل نفاد الوقت.

3. تأكيد وجود كائنات عاقلة خارج الأرض

يُقرِّر القرآن أن كائنات عاقلة واعية تعمر الكون الفسيح خارج نطاق البشرية. وهذه الكائنات ليست بعيدة عن الوعي الإلهي؛ بل هي واعية بالله تمامًا ومنهمكة في التسبيح والعبادة باستمرار.

يقول الله:
﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ (الأنبياء 19-20)

تُؤسِّس عبارة "من في السموات والأرض" فئةً واسعة تتجاوز البشر. يتحدث القرآن عن كائنات مخلوقة وجودها ووعيها وتفانيها حقيقي، وإن ظلت طبيعتها خارج نطاق الإدراك البشري.

ثم يوسِّع القرآن هذه الرؤية بوصف خضوع كوني يشمل المخلوقات الحية وغير الحية:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ (الحج 22: 18)

تُرسي هذه الآيات رؤيةً قرآنيةً جوهرية للكون: كل الخلق حيٌّ بالغاية والوعي والطاعة، كل بحسب طبيعة وجوده. يؤكد القرآن مرارًا أن الخلق يمتلك أشكالًا من التواصل والخضوع هي حقيقية وإن خفيت عن حواس الإنسان. المحدودية إذن ليست في وعي المخلوقات، بل في إدراك الإنسان.

تتعارض هذه الرؤية القرآنية مع التكهنات العلمية الحديثة التي كثيرًا ما تتساءل هل البشرية وحيدة في الكون. وتُقدِّر الفلكيات المعاصرة أن الكون المرئي يحتوي على تريليونات المجرات، مع مليارات الكواكب التي يُرجَّح صلاحيتها للسكن. وفي مواجهة هذا الاتساع، اقترح العلماء نماذج احتمالية كمعادلة دريك لتقدير عدد الحضارات المتطورة تقنيًا التي قد توجد داخل مجرة درب التبانة:

$$N = R^* \times f_p \times n_e \times f_l \times f_i \times f_c \times L$$

حيث:

- N=عدد الحضارات القادرة على التواصل
- R^* = معدل تشكُّل النجوم في المجرة
- f_p =نسبة النجوم ذات الكواكب
- n_e = متوسط الكواكب الصالحة للحياة لكل نجم
- f_l =نسبة الكواكب التي نشأت عليها الحياة فعلًا
- f_i = نسبة الكواكب التي طوَّرت حياةً ذكيةً
- f_c = نسبة الحضارات التي طوَّرت تقنية لإرسال إشارات قابلة للرصد
- L = مدة إرسال الحضارة لإشارات قابلة للرصد

بينما تتباين استنتاجات هذه النماذج تباينًا كبيرًا، يُقارب القرآن السؤال من زاوية مختلفة تمامًا. فهو لا يتكهن بجزر معزولة من الذكاء تتصارع مع الظهور في كون صامت. بل يُقدِّم الكون مأهولًا بالكامل بخليقة واعية، منهمكة باستمرار في التسبيح والخضوع لخالقها.

ويُقدِّم القرآن أمثلةً على هذا الوعي المستور. فقد مُنح النبي سليمان عليه السلام القدرةَ على فهم كلام الطير وتواصل النمل، مجتمعات وُصفت بأنها منظَّمة ومقصودة وواعية أخلاقيًا. ولم تكن المعجزة أن هذه الكائنات تتواصل، بل أنه مُكِّن من فهم لغتها.

من المنظور القرآني إذن، الذكاء والوعي ليسا شذوذًا نادرًا في الكون؛ هما سمة جوهرية في الخلق. ما هو نادر ليس الحياة الواعية، بل التواضع الإنساني والاستعداد للاعتراف بأن الوجود يمتد بعيدًا عما تستطيع الحواس إدراكه.

4. سر خلق الكون

ظل البشر دائمًا مشدودين إلى السؤال عن كيفية بدء الكون وكيف سيكون خاتمته. وعبر التاريخ، اقترح العلماء والفلاسفة نظريات متنافسة لتفسير أصل الكون. ولا يدخل القرآن هذا النقاش لإشباع الفضول وحده، بل لإعادة توجيهه: داعيًا إلى التأمل، مُلهِمًا للبحث، ومُثبِّتًا الاستكشاف في الإجلال لله وانسجام تصميمه.
في سورة الأنبياء، تبرز آيتان بوصفهما مرجعًا جوهريًّا لبداية الكون ونهايته.

الأولى تصف السموات والأرض على أنها كانت كتلةً واحدة مُتحدة قبل أن تنفصل انفصالًا حاسمًا:

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ (الأنبياء 30)

لا يُحدِّد القرآن الآلية المادية لهذا الفتق، ولا يحاول اختزال الخلق في عملية تقنية. بل يُقرِّر حقيقتين راسختين: الوحدة سبقت التمايز، والانتقال وقع بأمر إلهي.

وفي الآية ذاتها، يربط الله فورًا الأصل الكوني بالحقيقة البيولوجية:
﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأنبياء 30)

هنا يربط القرآن بنية الكون بنشأة الحياة، مؤكدًا الاستمرارية بين الحجم الكوني العظيم وحقيقة الكائنات الحية. الحياة ليست حادثة مصادفة ولا منفصلة عن أصل الكون؛ بل هي منسوجة في تصميمه.

وفي موضع لاحق من السورة ذاتها، ينتقل القرآن من الأصل إلى المصير، مُقدِّمًا صورةً مذهلة لانطواء الكون:
﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ (الأنبياء 104)

تُوحي صورة الطي بالنظام والقصد والانعكاسية. كما بدأ الخلق بقصد، سينتهي بقصد. فالكون لا يتدهور نحو الفوضى، بل يسير نحو الاكتمال وفق وعد إلهي:

﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء 21: 104)

يصيغ القرآن الكونَ بوصفه محدودًا وهادفًا و نظامه منعكسًا(reversible System) ، لا يحكمه الصدفة بل الأمر.

ويعمِّق هذا الجزء الصورة الكونية بمفهوم جوهري: الوقت ليس موحَّدًا في جميع حقائق الوجود. يُقدِّم القرآن تصريحات متعددة تتحدى افتراض تدفق الوقت بصورة متماثلة في كل مكان. آيتان تُقارنان صراحةً الزمن الإلهي بالحساب البشري:

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج 47)

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة 5)

في الحالتين، تُثبِّت عبارة "مما تعدون" المقارنةَ صراحةً بالحساب الزمني البشري. يُقرُّ القرآن بالزمن البشري مقياسًا صحيحًا، لكنه ليس المقياس الوحيد.

وتُدخل آية ثالثة نطاقًا زمنيًّا أكبر بكثير:
﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ (المعارج 4) "

هنا لا يذكر ل القرآن عمدًا أي إشارة إلى الحساب البشري. وهذا ذو دلالة بالغة؛ إذ يُوحي بأن صعود الملائكة يقع ضمن حقيقة زمنية مختلفة، لا مجرد مدة أطول من الزمن الذي يعيشه البشر.

يُقدِّم القرآن الزمن إذن بوصفه متعددًا ونسبيًّا:

- زمن إنساني مرتبط بالدورات الأرضية
- إدارة إلهية تعمل على نطاقات مختلفة
- حقائق ملائكية تعمل ضمن أُطر زمنية متمايزة

لا يختزل القرآن هذه الأُطر في نموذج واحد، ولا يحاول قياسها رياضيًّا. يحفظ التمايز والتراتبية والغيب. وتوصَّل الفيزياء الحديثة، بعد قرون، إلى رؤية مشابهة: الزمن ليس مطلقًا. أثبتت نظرية النسبية الخاصة لأينشتاين أن الزمن يتوقف على الحركة؛ إذ كلما زادت السرعة تباطأ الزمن نسبةً إلى المراقب الساكن، وهو ما يُعرَف بالتمدد الزمني . وقد أُكِّد هذا التأثير تجريبيًّا عبر الساعات الذرية والأقمار الصناعية ونظام الملاحةGPS .

ما السرعة المقابلة لـ"يوم = ألف سنة"؟

إذا كان يوم واحد في إطار متحرك يعادل 1000 سنة على الأرض، فحل معادلة أينشتاين يُظهر أن هذه النسبة لا تتحقق إلا حين يتحرك النظام بسرعة 0.999999999996 c
أي: أقل من ملليمتر واحد في الثانية دون سرعة الضوء، وهو شرط يفوق الحركة الكونية الاعتيادية بكثير.

والقرآن ليس كتاب فيزياء، لكن هذا الاكتشاف العلمي يُقدِّم تشبيهًا مفيدًا. فهو يُظهر أن حدس توحيد الزمن خاطئ، وأن الزمن يتفاوت بحسب السياق، وأن التجربة البشرية لا تمثل إلا إطارًا واحدًا بين كثير.

يدعو القرآن البشرية إلى التأمل في أصل الكون وبنيته ومصيره لا بوصفها نتاج صدفة عمياء، بل تعبيرات عن نظام مقصود وإرادة إلهية. يُقدِّم كونًا يبدأ وينتهي بأمر، ويعمل عبر أُطر زمنية متعددة، ويظل مفهومًا دون أن يكون محدَّدًا استنفادًا.

والبحث العلمي، حين يتوجَّه بالتواضع، يغدو ضربًا من التأمل لا تنافسًا. فالقرآن لا يُحبِّط الاستكشاف؛ بل يُثبِّته، حتى يقود الدهشُ لا إلى الغرور بل إلى الاعتراف بالذي بدأ الخلق وسيُتمُّه.

5. الوحي والتطور الحضاري

كثيرًا ما يُفهم الوحي الإلهي فهمًا ضيِّقًا بوصفه هداية قاصرة على الاعتقاد والعبادة والأخلاق الشخصية. غير أن القرآن يُقدِّم رؤيةً أشمل للوحي: إلهامٌ إلهي يُغذِّي العقل البشري أيضًا ويُطوِّر الحِرَف والحضارة. فالوحي لا يُصلح القلوب فحسب؛ بل يُجهِّز البشرية بالمعرفة والمهارات اللازمة للحفاظ على الحياة وتنظيم المجتمع وأداء دور الخلافة في الأرض.

مثالٌ واضح يتجلى في مهمة النبي نوح عليه السلام الذي أُرشد إلهيًّا لبناء السفينة، إنجاز هندسي غير مسبوق أتاح البقاء أمام الكارثة الكونية ووضع أسسًا للعلوم البحرية. وكذلك منح الله النبي داود عليه السلام معرفةً متخصصة في صناعة المعادن وصنع الدروع:

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء 80)

الحديد من أشد المواد الطبيعية مقاومةً، ويستلزم تشكيلُه أسلوبًا مضبوطًا ودقةً عالية. يعزو القرآن هذا الإتقان لا إلى التجربة والخطأ وحدهما، بل إلى التمكين الإلهي، سواء عبر المعرفة الموحاة بالأساليب أو التيسير الاستثنائي أو كليهما معًا.

ويُفصِّل ذلك في سورة سبأ:
﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ (سبأ 10)

لا يُحدِّد القرآن كيفية هذا التليين؛ بل يترك احتمالات متعددة مفتوحة:

- إلهام بأساليب تشغيل المعادن المتقدمة

- حماية إلهية من مخاطر الحرارة والتطريق
- أو تعليق مؤقت للقيود الفيزيائية الاعتيادية

جميع الاحتمالات تُشير إلى الحقيقة ذاتها: الله سيِّد قوانين الطبيعة، ويمنح البشرية الوصول إليها حين تقتضي الحكمة والرحمة ذلك.

يمتد هذا النمط إلى ما وراء المعادن. من سفينة نوح نشأت مبادئ الطفو والتصميم الإنشائي؛ ومن إدارة يوسف نبعت نماذج التخطيط الاقتصادي وإدارة الأزمات؛ ومن سلطة سليمان جاءت تطورات في التنظيم والبناء والحكم. وكانت كل مهمة نبوية علامةً على تقدم في التوجه الروحي والمعرفة التطبيقية معًا.

يُقدِّم القرآن الوحيَ إذن محفِّزًا للحضارة لا عائقًا أمامها. حين احتضنت المجتمعات الإسلامية الدعوات القرآنية إلى التفكر والتعقل، ترجمت هذه المبادئ إلى منجزات ملموسة: أنظمة مائية متطورة، وصناعة معادن، وعمارة، وكيمياء، وهندسة. لم تزدهر المعرفة رغم الإيمان، بل بسببه.

فأشخاص كجابر بن حيان طوَّروا الكيمياء التجريبية وأساليب معالجة المعادن؛ وطوَّر المهندسون المسلمون أنظمة هيدروليكية معقدة؛ وأتقن الحرفيون صناعة الفولاذ عالي الجودة الشهير بالمتانة والدقة. وكانت هذه ليست إنجازات معزولة، بل تعبيرات عن الخلافة المتجذِّرة في التوحيد.

وفي هذا الإطار الشامل، يُعرِّف الله بمهمة خاتم رسله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء 107)

هذه الرحمة تشمل لا الخلاص الروحي فحسب، بل الهداية التي تُغذِّي الحياة وتصون الكرامة وتكبح الدمار وتبني الحضارة على أساس الوضوح الأخلاقي.

6. دعاء مضمون الاستجابة الفورية

رغم أن الله يسمع كل دعاء مخلص، يُبرز القرآن ابتهالات بعينها تحمل وعدًا صريحًا بالاستجابة الإلهية الفورية. ومن أقواها دعاء النبي يونس (ذو النون) حين وجد نفسه في أعماق الظلمات: جسدية وعاطفية وروحية.
﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء 87)

يجمع هذا الدعاء ثلاثة عناصر جوهرية:

- الإقرار المطلق بالتوحيد

- تنزيه الله عن كل نقص
- الاعتراف الصادق بالتقصير الشخصي

والاستجابة الإلهية فورية وشاملة:
﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۡجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنبياء 88)

لا يُقدِّم القرآن هذا النجاء حدثًا منعزلًا؛ بل يمدُّ الوعد صراحةً لكل مؤمن يدعو الله بالإخلاص والتواضع والوضوح ذاتهم.

تأمَّل الإمام جعفر الصادق هذا النمط القرآني بانتباه عميق، ملاحظًا كيف يقرن الله مرارًا لحظات الخوف أو الضيق بابتهالات بعينها يعقبها الفرج الإلهي فورًا. وتكشف تأملاته حقيقة عميقة: القرآن ليس هداية فحسب، بل دليل عملي للاستجابة الإلهية.

قال: "عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله تعالى:
﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران 3: 173)
فإني سمعت الله يقول عقبها: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ (آل عمران 3 174)"

وتابع: "وعجبت لمن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله تعالى في ذي النون:
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء87)
فإني سمعت الله يقول عقبها: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء 88)"

وأضاف: "وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قول المؤمن من آل فرعون:
﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر 44)
فإني سمعت الله يقول عقبها: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (غافر 40: 45)"

تكشف هذه التأملات حقيقةً قرآنية عميقة: القرآن ليس مجرد كتاب هداية، بل دليل حيٌّ للاستجابة الإلهية. بعض الابتهالات مقرونة عمدًا بالإجابة الإلهية الفورية، تدعو المؤمن إلى الثقة والدعاء وشهادة الوعد يتحقق بالإخلاص والإيمان.

7. حذار من خطر الإيمان المشروط

تُصدر هذه الآيات تحذيرًا جديًّا من الإيمان المشروط: الإيمان الذي يصمد في الرخاء وينهار تحت الابتلاء. يُوضِّح القرآن أن الإيمان الحقيقي لا يُقاس بالإقرار اللفظي، بل بالثبات حين تقسو الظروف.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ (11) يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ (12) يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ (الحج 11-13)

الصورة مُعبِّرة. أن تعبد الله "على حرف" يعني الوقوف على هامش الالتزام: لا تجذُّر حقيقي، ودائمًا على أهبة الانسحاب. هذا الإنسان يتعامل مع الإيمان معاملةً تجارية. ما دام الرخاء مستمرًّا، ظل الإيمان؛ وحين ظهرت المحنة، تراجع الإيمان. وعواقب ذلك واضحة: يخسر الدنيا والآخرة.

في الدنيا، يُنتج هذا الإيمان قلقًا وعدم استقرار، لأن الأمان مشروط بظروف تتبدل باستمرار. وفي الآخرة، يُفضي إلى الخسارة لأن التفاني لم يكن متجذِّرًا في الإخلاص.

هذا النمط ليس جديدًا؛ فالله يُذكِّر المؤمنين بأن الأمم السابقة ابتُليت ابتلاءً شديدًا:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ (البقرة 214)

حتى الأنبياء وصحابتهم بلغوا لحظات ضيق شديد، ومع ذلك لم يتخلَّوا عن الإيمان. الابتلاء لم يكن دليلًا ضد الحق؛ بل كان الميدان الذي يُثبَت فيه الحق.

وبنو إسرائيل مثالٌ متكرر: ازدهر الشكر في أيام المعجزات المرئية وضعف حين عادت المحنة. قصتهم مرآة لأي مجتمع يدع الراحة لا القناعة تحكم إيمانه.

في المقابل، علاقة المؤمن المخلص بالله ليست تجارية. الرخاء فرصة للشكر، والمحنة ميدان للصبر.
لخَّص النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحال الفريدة:
عن أبي يحيى صهيب بن سنان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له." (رواه مسلم)

وهكذا، بينما يبحث الإيمان الظاهري عن الراحة، يبحث الإيمان الحقيقي عن الله ذاته. من ثبتوا تحت الابتلاء نالوا الاستقرار الداخلي في الدنيا والأمان الأبدي في الآخرة. أما من عبدوا الله على حرف فخاطروا بخسارة الدنيا والآخرة معًا.

8. أنت تُؤدّي الأمر والله يُحقّق النتائج

أمر الله النبي إبراهيم عليه السلام أن يُؤذّن في الناس بالحج، رغم وقوفه وحيدًا في واد قاحل، بعيدًا عن مراكز السكان والبنية البشرية. بحساب البشر، بدا الأمر مستحيلًا: كيف يبلغ صوت فرد الناسَ عبر القارات والأجيال؟ ومع ذلك قال الله:

﴿وَأَذِّنْ فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج 27)

لم تكن مسؤولية إبراهيم تحقيقَ النتيجة، بل الطاعة. أدَّى الأمر دون تردد. أما النتيجة، وهي ملايين الحجاج عبر القرون، فكانت ملكًا لله وحده. عملٌ واحد من الطاعة غدا حقيقةً كونيةً خالدة.

تُرسي هذه القصة مبدأً قرآنيًّا جوهريًّا: مسؤولية الإنسان تتجلى في الطاعة، ومسؤولية الله تتجلى في النتائج.

العمل مطلوب، لكنه لا يكفي وحده. حين تكون الطاعة خالصة غير مُهاوَد فيها، ضاعف الله أثرها فوق طاقة البشر.

هذا المبدأ كوني التطبيق. حين يُوافق المؤمنون أفعالهم أوامر الله توافقًا تامًّا، خالصي النية راسخي الطاعة، بارك الله جهودًا محدودة بأثر يفوق حجمها بكثير. ما يبدو ضئيلًا بمقاييس الدنيا يغدو، بإرادة الله، تحويليًّا.

غير أن كثيرًا من المؤمنين يعكسون هذه المعادلة. يُعوِّلون كثيرًا على الاستراتيجية والثروة والنفوذ والحسابات، كثيرًا ما يُساومون في المبادئ الإلهية أملًا في تأمين النتائج. وحين لا يتحقق النجاح، يتبعه الإحباط والشك. يُعلّم القرآن منطقًا مغايرًا: الجهد دون طاعة أجوف، في حين أن الطاعة، حتى بأدنى الإمكانات، تستقطب السند الإلهي.

النجاح الحقيقي لا يُقاس بحجم الجهد البشري، بل بمدى توافقه مع أمر الله. حين تكتمل الطاعة، يضمن الله النتيجة.

9. القاعدة الجوهرية لاستحقاق النصر الإلهي

يُرسي القرآن قانونًا واضحًا راسخًا للنصر: النصر الإلهي لا يُمنح إلا لمن ينصر الله فعلًا. هذا المبدأ ليس رمزيًّا ولا بلاغيًّا؛ بل هو وعد مُلزِم مؤكَّد مرارًا في الوحي.
﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج 40)

وتُعاد القاعدة ذاتها بوضوح مساوٍ في سورة محمد:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد 7)

ثم يُزيل القرآن كل غموض بتعريف دقيق لمن يستحق وصف "ناصري الله:"

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج 41)

النصر الإلهي إذن لا يُكتسب بالشعارات أو التعلق العاطفي أو الانتماء وحده. يُكتسب بالطاعة والمسؤولية الأخلاقية والإقامة الفعلية للعدل، بدءًا بالسلوك الشخصي وامتدادًا إلى المجتمع.

والتاريخ يؤكد هذا القانون مرارًا. مجتمعات بدت ضعيفة بمقاييس الدنيا، قليلة العدد محدودة الإمكانات، تغلَّبت على قوى أعظم منها بكثير، لا بتفوق الاستراتيجية وحدها، بل بالنصر الإلهي المكتسَب بوضوح الغاية وسلامة العمل.

وأبلغ مثال على ذلك جيل الصحابة الكرام. فخلال عقود قليلة، تجاوزوا الإمبراطوريتين المسيطرتين في عصرهم، لا لامتلاكهم جيوشًا أكثر، بل لحملهم رسالةً متجذِّرة في الحق والعدل.

ولخَّص أحد ممثليهم تلك الرسالة حين خاطب قائدًا فارسيًّا قائلًا: "إن الله بعثنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

نصروا الله بإقامة أوامره وحمل رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم والوقوف بثبات في سبيل العدل. وفي المقابل، أوفى الله بوعده فمنحهم النصر والاستقرار والأثر الخالد.

القاعدة لم تتغير عبر الزمن: انصر الله ينصرك.

10. معرفة الله من خلال أبسط آيات الخلق

عبر القرآن كله، يُقدِّم الله آياته لا في الاستثنائي وحده، بل في أبسط مألوفات الخلق وأكثرها عادية، موجِّهًا العقل الإنساني نحو نتيجة واحدة: لا إله إلا هو. ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ما يستند إلى أصغر المخلوقات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ (الحج 73)

يختار الله الذبابة عمدًا، وهي حشرة كثيرًا ما يُستهان بها، ليفضح العجز المطلق لكل معبود زائف. فحتى لو توحَّد كل صنم وقوة وسلطة، لم يستطع خلق أبسط كائن حي. ثم يُحدِّد الحجة أكثر:

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الحج 73)

الملاحظة العلمية الحديثة تُعمِّق هذا التأمل. فالذبابة تتغذى بإفراز إنزيمات هاضمة تُحلِّل المواد كيميائيًّا قبل ابتلاعها. وبمجرد حدوث هذه العملية، يتغير التركيب الأصلي للمادة تغيُّرًا دائمًا ولا يمكن استرداده حقًّا. فالتصريح القرآني إذن ليس بليغًا فحسب، بل دقيق علميًّا.

ويختتم الله بحكم ساحق: "ضعف الطالب والمطلوب." من يستغيث بالآلهة الزائفة ضعيف، وما يستغيث به أضعف منه. ثم يُحدِّد الله جذر هذا الإخفاق:

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج 22: 74)

الإخفاق في معرفة الله لا ينشأ من شُح الأدلة، بل من شُح التأمل. حتى أصغر المخلوقات، حين تُفحَص بأمانة، تكشف طبقات من التعقيد والدقة والتصميم تُشير بلا لبس إلى خالق بالغ القدرة والحكمة. من يتأملون حقًّا لا يُقادون إلى الغرور بل إلى التواضع، ولا إلى الشك بل إلى الإجلال، ولا إلى الحيرة بل إلى الإيمان الراسخ.

خاتمة

تكشف التأملات في هذا الفصل مجتمعةً أن الجزء السابع عشر إطار أخلاقي متماسك مبني على ثلاثة مبادئ راسخة: الإيمان الثابت تحت الابتلاء، والجهد المسؤول في طاعة الله، والتوكل الكامل عليه في النتائج. تُذكِّرنا الآيات بأن الوقت محدود، والمحاسبة حتمية، وأن الخسارة الحقيقية ليست خسارة الراحة أو المكانة، بل خسارة المرء مقامَه في الآخرة.

في الوقت ذاته، يُوضِّح هذا الجزء أن الوحي ليس انسحابًا من الدنيا، بل هداية للتعامل معها على الوجه الأمثل. الإيمان يُختبَر بالعمل، والمعرفة معدَّة لبناء الحضارة وحمايتها، والدعاء مقرون بالتوكل، والنصر

الإلهي يُمنح وفق قوانين أخلاقية واضحة. النصر والفرج والاستقرار ليست ثمرة القوة وحدها، بل ثمرة الإخلاص والطاعة والمثابرة على الحق.

إن أيقظت هذه الجواهر في القارئ وعيًا أعمق بقُرب الله، وعزيمةً أرسخ على طاعته دون شروط، وثقةً متجددةً بأن الجهد المخلص مهما صغر يمكن أن يُضاعفه الله، فقد أدَّت غرضها بإذنه.

جواهر الجزء الثامن عشر: النور الإلهي والمسؤولية الإنسانية والنظام الاجتماعي

(المؤمنون 23: 1 - الفرقان 25: 20)

مقدمة

تدور الآيات المختارة من الجزء الثامن عشر حول محورين قرآنيين متشابكين: النظام الأخلاقي داخل المجتمع، والمسؤولية المحسوبة أمام الله. ويقف في قلب هذا الجزء سورة النور، التي ترسي إطارًا شاملًا للنزاهة الاجتماعية، يبدأ بسمو الأمر الإلهي، ويُهذِّب السلوك الشخصي والاجتماعي، وينظِّم الحشمة، ويُرسِّخ المسجد مركزًا للإنارة الأخلاقية، ليُتوَّج بوعد مشروط بالأمن والقيادة.

إلى جانب هذه البنية الأخلاقية، يتناول الجزء حقائق جوهرية في الوجود الإنساني: أن الحياة ابتلاء موزون، وأن الرزق الأساسي كالماء تحت ضبط الله المطلق، وأن التاريخ يجري وفق سنن أخلاقية، وأن الرسل بشر حتى تظل المحاسبة حتمية لا مفر منها. وتُظهر هذه الآيات مجتمعةً أن الاستقرار والهداية والقيادة لا تنشأ إلا حين تترسَّخ الوضوح الأخلاقي والمسؤولية ترسُّخًا راسخًا.

1. قارن أخلاقك بأخلاق المؤمنين الفائزين

تفتتح سورة المؤمنون بعرض الصفات المُعرِّفة للمؤمنين الحق. وتعمل هذه الآيات الافتتاحية بطاقةَ تقييم أخلاقية وروحية، تُمكِّن المؤمنين من محاسبة أنفسهم قبل أن يحاسبهم الله. وبصورة لافتة، يدمج القرآن العبادات بالأخلاق (العبادات والأخلاق)، مؤكدًا أن الفلاح في نظر الله يستلزم الإخلاص الباطن والانضباط الظاهر معًا.
روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
"أُنزل عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر آيات."
[الترمذي]

تبدأ السورة بتحديد ست صفات جوهرية تُعرِّف المؤمنين الفائزين. وقد صِيغت هذه الصفات بنظام مقصود يعكس تكاملًا متوازنًا بين العبادة وضبط النفس والمسؤولية الاجتماعية:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (1) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ (2) وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ (3) وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (4) وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (7) وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (8) وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون 1-9)
"

صفة كثيرًا ما يُستهان بها، ومع ذلك وُضعت عمدًا مباشرةً بعد الصلاة، **هي الإعراض عن اللغو**: الكلام والعمل العبثي الذي لا غاية له. واللغو يشمل الثرثرة والنميمة والغيبة والجدال العقيم والأنشطة التي تستهلك الوقت دون أي عائد أخلاقي أو فكري أو عملي. وتلك السلوكيات تُبدِّد الانتباه وتُفسد العلاقات وتُضعف التركيز الروحي.

بوضع الإعراض عن اللغو مباشرةً بعد الخشوع في الصلاة، يُبرز القرآن الدور الحاسم للكلام والانتباه في تشكيل الشخصية. فما يتجنَّبه الإنسان عن قصد ينمُّ عن شخصيته بقدر ما يُقدِّم عليه.

وثمة تفصيل لغوي جوهري يُعزِّز يقين هذا الفلاح. في العربية، حين تسبق "قد" فعلًا مضارعًا، قد تُفيد الاحتمال. غير أنها حين تسبق فعلًا ماضيًا تُفيد التحقق والتأكيد. فـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لا تصف فلاحًا محتملًا؛ بل تُعلن أن الفلاح مُقرَّر بالفعل من الله.

وهذا البناء التوكيدي يرد نادرًا في القرآن، ومنه:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (الشمس 9)
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ (الأعلى 14)

في كل هذه الحالات، يُقدَّم الفلاح لا أملًا بعيدًا بل نتيجةً متحققة.

وهكذا، تُعرِّف سورة المؤمنون الفلاح لا بالمكانة ولا بالثروة، بل بالعبادة المنضبطة و الضبط الأخلاقي وانضباط الكلام والأمانة. وتدعو هذه الآيات المؤمنين إلى محاسبة أنفسهم بصدق وتوجيه حياتهم نحو فلاح أكَّده الله بنفسه.

2. إمداد الحياة الإنسانية: الماء تحت سيطرة الله المطلقة

بقاء الإنسان مرهون بموارد تقع خارج سلطانه تمامًا، وفي مقدمتها الماء. الحياة تنهار دون ماء، وحتى اختلال طفيف في كميته يُفضي إما إلى دمار الفيضان أو موت الجفاف. فالسيطرة على الماء هي السيطرة على الحياة ذاتها. يقول الله:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ (المؤمنون 18)

تُرسي هذه الآية ثلاث حقائق جوهرية:

1. الماء يُنزَّل بمقدار محدد لا عشوائيًّا ولا تلقائيًّا.
2. خزنه في الأرض ترتيب إلهي لا إنجاز بشري.
3. استمرار توفُّره مشروط، خاضع كليًّا لمشيئة الله.

وعبارة ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تُشير مباشرةً إلى الأنظمة المائية الجوفية، الخزانات الطبيعية التي تُغذِّي الحضارة الإنسانية والزراعة والأنظمة البيئية. تنتفع البشرية بهذه الأنظمة دون أن تكون قد صممتها أو نظَّمتها أو ضمنتها. وجودها رحمة إلهية، وزوالها تذكير بالافتقار.

ويُعزِّز الله هذه الحقيقة بآية مكمِّلة:
﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ (الحجر 22)

دقة الصياغة القرآنية بالغة الأهمية. فعبارة ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ توجه التركيز من مياه الأمطار عمومًا إلى ماء الشرب تحديدًا. فالإنسان قد يخزن الماء خارجيًّا، لكنه لا يستطيع خزنه داخل جسده. وبهذا يُرسي القرآن تراتبية الافتقار:

- الله يتحكم في إنزال الماء
- الله يتحكم في تخزينه في الأرض
- الله يتحكم في توزيعه في أجساد الأحياء
- والله وحده يقدر على حجبه كليًّا

الماء إذن ليس موردًا ماديًّا فحسب؛ بل هو آية يومية على الرزق الموزون والافتقار الدائم إلى الله.

3. مصر ومكانتها الفريدة في السرد القرآني

من بين سائر الأراضي المذكورة في القرآن، تحتل مصر مكانةً بارزةً لا نظير لها. فلا يرتبط بلد آخر بهذا الكم من الأحداث الموثَّقة. نحو خمسمئة آية تُشير مباشرةً أو مجازًا إلى أحداث جرت فيها، ولا سيما تلك المتصلة بالنبيين موسى ويوسف عليهما السلام.

وفي الجزء الثامن عشر، يتجلى هذا التركيز بوضوح في قول الله:
﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (45) إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ (المؤمنون 45-46)

لا يُبرز هذا المقطع المواجهة النبوية وحدها، بل يكشف أيضًا عن بنية سياسية متكاملة: سلطة مركزية ونخبة حاكمة ومنظومة راسخة من القوة.

وتُشير آية أخرى في الجزء ذاته إلى أرض سيناء:
﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ (المؤمنون 20)

رغم أن الشجرة لم تُسمَّ صراحةً، فإن الوصف يُشير بقوة إلى شجرة الزيتون، المذكورة هنا بعد أن تحدَّث الله عن النباتات التي يسقيها المطر. وإدراجها يُبرز سيناء، ومصر بالتبعية، أرضًا للغذاء المادي والرمزية الهادية معًا.

التركيز القرآني المستمر على مصر ليس اعتباطيًّا. فمصر تعمل مختبرًا تاريخيًّا تتجلى فيه سنن الحضارات من خلال أحداث معيشة لا نظرية مجردة.

وداخل السرديات المصرية، يُقدِّم القرآن منظومةً حضاريةً متكاملة:

- السلطة المركزية المطلقة: فرعون
- النخبة الإدارية: الملأ (الطبقة الحاكمة)
- الاقتصاد الدولي: الزراعة والمخازن ودورات الوفرة والمجاعة
- التراتبية الاجتماعية: اضطهاد بني إسرائيل
- الأيديولوجيا الرسمية: تأليه السلطة السياسية
- منظومة المعرفة: السحر والخداع المؤسَّس
- إدارة الأزمات: نموذج يوسف في المجاعة
- التحول الحضاري: الخروج وانهيار الاستبداد

لا تقف مصر في القرآن مجرد موقع جغرافي لأحداث ماضية، بل تُقدَّم بوصفها دراسة حالة متكررة للبشرية: تحذير ودرس ومرآة لكل مجتمع يبتغي القوة دون عدل أو الرخاء دون ضابط أخلاقي.

4. كل ابتلاء موزون وفق الطاقة

من أكثر الحجج شيوعًا ضد الإيمان بالله: وجود الشر في العالم. غير أن هذه الحجة تقوم على سوء فهم لطبيعة الحياة ذاتها. فمن المنظور القرآني، الحياة ليست وجهةً نهائية بل ساحةً للابتلاء. المشقة والكفاح والتحدي الأخلاقي ليست عيوبًا في النظام؛ بل هي مكونات أساسية فيه.

تمامًا كما يخضع الطلاب للامتحانات لإثبات جاهزيتهم وتقدمهم، يُبتلى البشر لإظهار إيمانهم ونزاهتهم ومحاسبتهم. يصيغ القرآن الحياة مرارًا بوصفها امتحانًا للإيمان والشخصية والطاعة، في الشدة واليسر سواء.

والأهم من ذلك أن الله يُقرِّر مبدأً حاسمًا: لا يتجاوز أي ابتلاء طاقة الإنسان:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (المؤمنون 62)

كل ابتلاء موزون بدقة، مُسجَّل بالحق، ومُدار بالعدل المطلق. الإخفاق إذن لا ينشأ أبدًا عن ثقل لا يُحتمَل، بل عن الإهمال الأخلاقي:

﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ (المؤمنون 63)

يُحدِّد القرآن بهذا السبب الحقيقي للإخفاق: الغفلة لا المشقة. الهداية متاحة، والطاقة كافية، والمحاسبة واضحة.

5. سمو الأمر الإلهي في إرساء النظام الأخلاقي

تفتتح سورة النور بإعلان غرضها بجلاء لا لبس فيه. فهي ليست مجموعة توصيات أخلاقية اختيارية، بل إطار إلهي مُلزِم معدٌّ لإنارة الحياة الاجتماعية وحماية الكرامة الإنسانية وتطهير العلاقات:

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور 1)

واسم "النور" يُلمِّح إلى الوظيفة المحورية للسورة: إنارة النسيج الأخلاقي والاجتماعي للمجتمع. أوامرها مُصمَّمة لحماية الشرف وكبح الشهوة وإقامة العدل وهداية الناس إلى الله بالوضوح لا بالغموض.

وفور هذا الإعلان، تُقدِّم السورة أحد أشد أحكامها القانونية:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (النور 2)

هذا الترتيب مقصود. يبدأ القرآن بحماية الأخلاق الجنسية لأن فسادها يُزعزع الأسر والأنساب والثقة وفي نهاية المطاف أسس المجتمع ذاتها.

ولا بد من التأكيد على أن هذه العقوبات ليست من فعل الأفراد. إنها تُطبَّق حصرًا بواسطة سلطة قضائية شرعية لضمان الإجراء الواجب ومعايير الإثبات والاستقرار الاجتماعي. والتنفيذ الثأري محظور حظرًا مطلقًا.

وثمة نقاش فقهي قائم منذ أمد حول ما إذا كانت هذه العقوبة تسري بالتساوي على المحصن وغير المحصن. والآية نفسها لا تُفرّق بينهما. وقد ثبت تاريخيًا أن النبي صلى الله عليه وسلم، قبل اكتمال بعض الوحي، قضى في بعض القضايا وفق الشريعة اليهودية السارية آنذاك والتي تقضي بالرجم في الزنا. غير أنه لا يوجد دليل قاطع على أن النبي صلى الله عليه وسلم طبَّق الرجم في قضية جديدة بعد نزول هذه الآية.

وهذه الحيرة مُعترَف بها صراحةً في رواية عبد الله بن أبي أوفى:
"سُئل الشيباني عبدَ الله بن أبي أوفى: هل رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم. قيل: قبل سورة النور أم بعدها؟ قال: لا أدري." (البخاري)

لذلك، فأي ادعاء فقهي بأن حكمًا قرآنيًّا يُستبدَل به تشريعٌ سابق للقرآن يستلزم دليلًا قاطعًا لا لبس فيه. وفي غياب هذا الدليل، رفعُ الشريعة السابقة فوق القرآن ينطوي على خطر تقويض سمو الوحي الإلهي.

كما تجدر الإشارة إلى أن إثبات جريمة الزنا يستلزم أربعة شهود مستقلين فضلًا عن المدَّعي، مما يجعل الاتهام الكاذب بالغ الخطورة. وأي اتهام يفتقر إلى أربعة شهود يترتب عليه عقوبة صارمة للقاذف. وبالتالي، لم تُطبَّق هذه العقوبة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلا في حالات الاعتراف الطوعي.

والغاية من هذا الحكم الردع والوضوح الأخلاقي وحماية المجتمع، لا العقوبة لذاتها.

وبعد أن رسمت السورة حدودًا راسخة تحمي الكرامة والسمعة، تنتقل إلى تهذيب السلوك الاجتماعي اليومي، مُعالِجةً سلوكيات تصون الثقة والسلامة العاطفية.

6. آداب زيارة البيوت

تنتقل سورة النور من المخالفات الأخلاقية الكبرى إلى قواعد دقيقة لكنها بالغة الأثر في الأدب الاجتماعي. فالثقة لا تُهدم بالجرائم وحدها، بل أيضًا بالتجاوزات اليومية غير المقصودة. يقول الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ (النور 27-28)

قد يبدو هذا الحكم للوهلة الأولى بديهيًّا. غير أنه يعالج توتُّرًا اجتماعيًّا شائعًا: زيارة شخص قد يشعر بالإلزام على استقبال ضيف رغم انشغاله أو إرهاقه أو عدم استعداده.

المصطلح الجوهري هنا هو ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ كثيرًا ما يُترجَم بـ"تستأذنوا"، لكن جذره (أنس) يحمل معنى الراحة والطمأنينة والجاهزية العاطفية. فالآية إذن لا تشترط الموافقة الرسمية فحسب؛ بل تشترط الترحيب الحقيقي. الدخول لا يكون لائقًا إلا حين يكون صاحب البيت مرتاحًا فعلًا للزيارة.

وإن طُلب من الزائر العودة، يُؤطِّر القرآن ذلك لا بوصفه رفضًا بل تهذيبًا أخلاقيًّا: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ .

هذا الحكم يحمي الحدود العاطفية ويصون العلاقات ويدرأ الضغينة، وهي عناصر أساسية لمجتمع مبني على الثقة لا على الإرغام.

وبعد أن حُميت الخصوصية واحتُرمت الحدود الاجتماعية، تتقدم السورة إلى تنظيم الحشمة ذاتها، صائنةً لا البيوت وحدها بل الأعين والقلوب والشهوات.

7. توجيهات الحشمة في لباس المرأة

الآية القرآنية التي تُقدِّم التوجيه المباشر بشأن حشمة المرأة، تحديدًا حماية العورات والتحفظ في إبداء الزينة، تقول:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور 31)

العبارة المحورية في هذه الآية هي ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ . وهذه الصياغة مقتضبة مفتوحة عمدًا. وأي محاولة لتعريف "ما ظهر" تستلزم إضافة مُحدِّدات تفسيرية، وعند هذا الحد بالذات تتباين اجتهادات العلماء. ومن أبرز الإضافات التفسيرية الشائعة:

1. "ما ظهر اضطرارًا"
2. "ما ظهر حاجةً"
3. "ما ظهر عُرفًا"

كل إضافة تُعطي مستوىً مختلفًا من التقييد. غير أنه من الضروري هنا الاعتراف بأن هذه المُحدِّدات كلها إضافات تفسيرية لا نصوص قرآنية صريحة. فلو أراد الله تقييد العبارة بالاضطرار أو الحاجة أو العرف لفعل ذلك بصورة لا تحتمل اللبس.

ولهذا الانفتاح يلجأ العلماء كثيرًا إلى أحاديث النبي للاستيضاح. وأكثر رواية يُستشهد بها هي المنسوبة إلى السيدة عائشة رضي الله عنها، رواها خالد بن دريك، بشأن أسماء بنت أبي بكر:
"عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه." (سنن أبي داود)

هذه الرواية لا ترد إلا في سنن أبي داود. وقد صنَّفها أبو داود نفسه "مرسلة"، إذ لم يلتقِ خالد بن دريك بعائشة رضي الله عنها. وأضاف ابن القطان أن خالدًا مجهول الحال.

وفي ظل غياب التحديد القرآني الصريح وضعف الحديث الأكثر استشهادًا، فإن أي تعريف جامد لـ"ما ظهر" ينبغي أن يُفهَم بوصفه اجتهادًا لا يقينًا.

يُرسي القرآن مبدأ الحشمة: غض البصر وحفظ الفرج والتحفظ في الإبداء، مع إبقاء مجال للاجتهاد السياقي بدلًا من فرض جمود موحَّد عبر الثقافات والعصور. وهذا الأسلوب يتسق مع المنهجية القرآنية الأشمل: رسم الحدود الأخلاقية مع تجنب القيود غير الضرورية التي قد تُشوِّه الواقع المعاش.

والمهم أن هذا الحكم ليس منعزلًا. فهو جزء من بنية أخلاقية تدريجية تتشكَّل عبر سورة النور. فقبل إعلان أن الله نور السموات والأرض (24: 35)، تُهيِّئ السورة القلوب والمجتمعات لاستقبال ذلك النور عبر ضبط النفس والانضباط الأخلاقي واحترام الحدود.

النور لا يدخل فضاءً يموج بالفوضى والاندفاع. يستلزم الوضوح والنظام والانفتاح. فالحشمة في هذه السورة ليست إخفاءً وحسب؛ بل تهذيب أخلاقي. تُروِّض الشهوة وتُقلّل التشتت وتُمهِّد الطريق من الحيرة إلى الإنارة.

والنور الموصوف لاحقًا في السورة لا ينزل في فراغ أخلاقي. يُشرق على قلوب دُرِّبت على استقباله.

8. المسجد مصدر النور الإلهي وناشره

بعد أن رسَّخت السورة الانضباط الأخلاقي والحشمة واحترام الحدود، تبلغ سورة النور مركزها المفاهيمي. فها هو الله يكشف عن مصدر الهداية كلها والآلية التي تدخل بها الحياة الإنسانية:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (النور 35)

يصف المثل منظومة إنارة متكاملة: مشكاة تُركِّز الضوء، ومصباح مصدره، ووقود نقي يكاد يُضيء من تلقاء نفسه، وزجاجة شفافة تُكثِّف الإضاءة بدلًا من تشويهها. كل عنصر متوازن هادف. والنتيجة ليست إنارة متشتتة بل هداية مُركَّزة: نور على نور.

ثم يربط القرآن هذه المثل مباشرةً بحقيقة مادية واجتماعية:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ (النور 36)

حرف الجر "في" حاسم الدلالة. فالنور الإلهي ليس مجردًا؛ بل يُغرَس داخل مؤسسات بعينها. وكما أن المشكاة ليست مصدر الضوء بل مُنظِّمه وناشره، فالمسجد ليس مصدر الوحي بل الفضاء الذي تُغرَس فيه الهداية الإلهية وتُهذَّب وتُنقَل إلى المجتمع.

ثم يُحدِّد الله حاملي هذا النور بين البشر:
﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ (النور 24: 37)

هؤلاء أناس ترسَّخت أولوياتهم في الذكر والصلاة والزكاة والمحاسبة. قلوبهم ليست منفصلة عن الحياة بل مُنضبطة فيها.

وتاريخيًّا، أدَّى المسجد هذا الدور تمامًا. كان مركز الصلاة والحكم والتعليم والشورى والعدل والتماسك الاجتماعي. منه برز العلماء والقضاة والقادة والمصلحون. والمسجد (جامع) أفرز الجامعة، والنور الإلهي شكَّل العقل والشخصية معًا.

في هذه المثل:
- الوحي يُغذِّي المصباح
- العقل يمتصه ويعالجه
- النفس المُطهَّرة تنقله دون تشويه
- والمسجد يُركِّزه ويُشعِّعه في المجتمع

حين تعمل هذه المنظومة كما أُريد لها، يبرز الأفراد منارات للوضوح الأخلاقي. النور الإلهي لا يبقى حبيس الجدران؛ بل يُشعُّ خارجًا مُهيِّئًا المجتمع للثقة والمسؤولية والقيادة.

وهذا يقودنا طبيعيًّا إلى السؤال التالي: في ظل أي شروط يأتمن الله مجتمعًا على السلطة في الأرض؟

9. الوعد الإلهي المشروط

حين يعد الله، لا يُقدِّم وعوده ضمانات غير مشروطة. بل وعوده مرتبطة بالجاهزية الأخلاقية والمسؤولية الروحية. ويُعدُّ وعد الاستخلاف والأمن في الأرض من أهم الوعود الجماعية في القرآن:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (55) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (النور 55-56)

يشمل هذا الوعد ثلاثة مخرجات كبرى:
1. الاستخلاف والقيادة في الأرض
2. تمكين الدين المختار
3. الأمن بدلًا من الخوف

غير أن الله يُقيِّد هذه المخرجات بصورة صريحة. القيادة لا تُمنَح للهوية أو النسب أو الطموح؛ بل تُكتسَب بالطاعة والنزاهة. ويُحدِّد القرآن الشروط بوضوح:

- الإيمان الحق المتجلي في الطاعة
- العمل الصالح النافع للمجتمع
- العبادة الخالصة لله دون شرك
- إقامة الصلاة
- إيتاء الزكاة
- طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

هذه ليست قوائم شعائرية. إنها البنية التحتية الأخلاقية للقيادة. حين تتحقق هذه الشروط، يضمن الله الاستقرار والتمكين والرحمة. وحين تُخان، ينهار التمكين إلى فساد.

ثم يُصدر الله تحذيرًا شديدًا: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

هذا ليس كفرًا عقديًّا وحسب. بل هو الرفض عبر خيانة المسؤولية بعد التمكين.

وهكذا، ترسي سورة النور تسلسلًا واضحًا: الانضباط الأخلاقي، ثم الإنارة، ثم التنمية المؤسسية، ثم التمكين المشروط.

ثم يستبق القرآن الاعتراض الأخير: لماذا تُقبَل هذه المسؤولية أصلًا؟ والجواب يكمن في طبيعة الرسل والمحاسبة.

10. طبيعة الرسل

يكشف القرآن مرارًا الحجج الزائفة المُستخدَمة لرفض رسل الله. وفي هذا المقطع، يُفكّك الله الادعاء بأن الرسول لا بد أن يكون استثنائيًّا في ثروته أو هيئته، ويكشف السبب الحقيقي وراء الرفض: إنكار المحاسبة.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان 7-8)

الاعتراضات تبدو مادية: لماذا هو بشر، ولماذا يعمل، ولماذا لا تصحبه الملائكة أو الثروات؟ لكن الله يُظهر هذه الادعاءات ذرائع. مقارناتهم مشوَّشة ومطالبهم متناقضة.

ثم يُصرِّح القرآن بالسبب الحقيقي:
﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (الفرقان 11)

رفض الرسول لا جذره الشك الفكري، بل الرفض المسبق لقبول الحساب والحدود الأخلاقية والمسؤولية النهائية.

ثم يُرسي الله قاعدة كونية:
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾

الرسل بشر بتصميم إلهي حتى تظل الهداية عملية ومُلزِمة. قبول الرسول البشري يعني قبول المسؤولية. ومن أنكروا الساعة سيرفضون الرسول دائمًا، مهما كانت الرسالة بيِّنة.

خاتمة

تُقدِّم آيات الجزء الثامن عشر المختارة منطقًا قرآنيًّا موحَّدًا: النظام الأخلاقي يسبق الاستقرار الاجتماعي، والمحاسبة تسبق التمكين الإلهي. فمن خلال سورة النور، يُرسي الله حدودًا تحمي الشرف والخصوصية والثقة، ويُهذِّب الشهوة بالحشمة، ويُركِّز الهداية في المسجد، ثم يعد بالأمن والاستخلاف، لكن بشرط الطاعة والإخلاص فحسب.

وتزيل الآيات الأخرى كل ذريعة. فالابتلاءات لا تتجاوز الطاقة البشرية أبدًا، والرزق لا يخرج عن سيطرة الله قط، والتاريخ يسير وفق سنن أخلاقية، والرسل بشر حتى لا يمكن التهرب من الهداية. الرفض إذن لا سببه المشقة أو الشُّح أو الغموض، بل الإباء عن تحمُّل المسؤولية والإقرار بقيام الساعة.

يُعلِّم الجزء الثامن عشر أن النور الإلهي لا يُمنح للمجتمعات التي تتوق إلى القوة، بل لتلك التي تخضع للحق الأخلاقي. حيث يُكرَّم أمر الله يظهر النور، وحيث يُهمَل يعقبه الانحدار حتمًا.

جواهر الجزء التاسع عشر: الحق والنزاهة وهندسة الهداية الإلهية

(الآية 21 من الفرقان إلى الآية 55 من النمل)

مقدمة

يتنقل الجزء التاسع عشر من القرآن بين مجالان شاسعان: هندسة الهداية الإلهية وهندسة الحضارة الإنسانية. يفتتح الجزء بالله وهو يُنزِّل القرآن معيارًا للبشرية جمعاء، ويختتم بنبي ملك يحكم حضارةً متعددة الأنواع بالعدل والمعرفة والتواضع. وبين هذين القطبين، ينسج الجزء حقائق روحية عميقة وأسسًا أخلاقية وأنماطًا حضارية تُفسِّر كيف تنهض المجتمعات وتنهار وتُحاسَب.

لا يدعو هذا الجزء الأفراد إلى الإيمان فحسب؛ بل يُظهر كيف تتفاعل العقيدة والمعرفة والقوة والتقنية والمحاسبة الأخلاقية. ويُعلِّم أن الهداية لا تُمنَح عشوائيًا، وأن الحضارات تُختبَر بكيفية توظيف طاقاتها، وأن حتى أصغر المخلوقات قد تؤدي دورًا حاسمًا في التاريخ.

تستخرج الجواهر العشر الآتية هذه الموضوعات، داعيةً القارئ إلى رؤية القرآن لا كتابًا للتعبد وحسب، بل خريطةً للواقع ذاته.

1. الدراسة المتأنية والموضوعية للقرآن

يطرح الباحثون عن الحق أسئلة صادقة بهدف التوضيح والتثبُّت وإزالة الشك. في المقابل، كثيرًا ما يُثير رافضو السلطة الإلهية اعتراضات لا لفهم الحق بل لإفلات من المسؤولية الأخلاقية والروحية. وقد صاغ كفار مكة أحد هذه الاعتراضات: زعموا أنهم كانوا سيؤمنون لو نزل القرآن جملةً واحدة. فردَّ الله على هذا مباشرةً:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ (الفرقان 32)

لا تكتفي هذه الآية بدحض اعتراضهم، بل تكشف عن مبدأ جوهري في طريقة إنزال الهداية الإلهية. وعبارة ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ تُشير إلى ترتيب مقصود وتسلسل موزون، لا عشوائية ولا تسرُّع.

والمصطلح الجوهري هو التَّرتيل الذي لا يرد في القرآن إلا مرتين: هنا وفي سورة المزمل:
﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (المزمل 4)

وفي هذه الآية، يُفهَم الترتيل تقليديًّا بأنه أمر بالتلاوة الدقيقة المتأنية الواعية: واضحة النطق، غير مستعجلة، متأملة في المعنى.

وحين تُقرأ الآيتان معًا، يبرز تناسق بليغ. ففي سورة الفرقان، يُؤدِّي الله الترتيل في طريقة الإنزال، تدريجيًّا وهادفًا، لتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم. وفي سورة المزمل، يُؤمَر النبي صلى الله عليه وسلم بأداء الترتيل في التلاوة، تهيُّؤًا لحمل ثقل الوحي:

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل 4-5)

وكلاسيكيًّا، يُشير هذا الترابط إلى أن التلاوة الموزونة تُسند التحمُّل الروحي، في حين يُسند الإنزال التدريجي الاستقرار العاطفي والنفسي. وكلاهما يخدم الغاية الإلهية ذاتها: تمكين الرسول صلى الله عليه وسلم من حمل رسالة بالغة الثقل.

وعلى مستوى أعمق، ارتبط الإنزال التدريجي للقرآن ارتباطًا وثيقًا بالأحداث الحية والتساؤلات والتحديات التي واجهتها الجماعة الإسلامية الأولى. وقد نزلت الهداية في سياقها، مما أتاح فهمها فورًا وتطبيقها وتجسيدها. وبهذا المعنى، لم يكن الإنزال تدريجيًّا فحسب بل مُهيكَلًا تعليميًّا: بُعد آخر من أبعاد الترتيل الإلهي.

ولغويًّا، يُعبِّر الجذر (ر ت ل) عن فكرة الترتيب المنظَّم والتناسق المقصود لعناصر متماثلة. ومن الاستخدامات الكلاسيكية عبارة "رتَّل الخيل" بمعنى ترتيب الخيل المتماثلة في صف منضبط. وهذا لا يعني مجرد التتابع بل التنظيم الهادف القائم على الصلة والتشابه.

وفي هذا الضوء، يمكن فهم الدراسة الموضوعية للقرآن، أي جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد والربط بينها، بوصفها تطبيقًا تأمليًّا للبنية القائمة على الترتيل. هذا النهج يسعى إلى تكريم المبدأ الجوهري للقرآن: أن الهداية معدَّة للقاء في صورة منظَّمة متماسكة متكاملة.

وهكذا، كما رتَّب الإنزال الإلهي الوحيَ في صورة تلاءم الطاقة البشرية والواقع المعاش، تُتيح الدراسة الموضوعية للقرآن أن يُفسِّر نفسه بنفسه، وفق المبدأ الكلاسيكي: **القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا.**

2. خير تفسير للقرآن هو التفسير الإلهي

القرآن كلام الله، ولا أحد أولى بتفسيره من الله ذاته. وهذا المبدأ الجوهري مُصرَّح به صراحةً:
﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان 25: 33)

فهم العلماء الكلاسيكيون هذه الآية أساسًا للتفسير الذاتي القرآني: "القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا." فأرقى أشكال التفسير هو استخدام القرآن لتفسير القرآن. فالآيات المُبهمة تُوضِّحها الصريحة، والعبارات العامة تُفسِّرها الخاصة، والمقاطع الموجزة تُشرحها الأكثر تفصيلًا في مواضع أخرى.

ولاحظ العلماء كالشاطبي أن القرآن لا يتبع بنية الكتاب المدرسي الخطي. بل ينسج الموضوعات المحورية كالإيمان والعدل الإلهي والرحمة عبر سياقات متنوعة. وهذا التكرار ليس ترادفًا؛ بل تنويع يُعمِّق المعنى. وفهم أي موضوع يستلزم النهج الموضوعي: جمع الآيات ذات الصلة لتبرز رسالتها التراكمية وتماسكها الداخلي.

وهذا يُفسِّر لماذا لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم تفسيرًا آية بآية. مهمته كانت تجسيد الرسالة وتطبيقها، في حين حافظ القرآن على إطاره التفسيري الخاص. ولاحظ علماء كابن تيمية أن النبي صلى الله عليه وسلم أوضح الأمور في المقام الأول حين دعت الحاجة في الشريعة والعمل.

القرآن لا يحتاج إلى سلطة خارجية تتكلم عنه؛ بل يدعو كل مؤمن إلى التدبُّر. ولتحقيق التوازن بين التفاعل المباشر والتراث العلمي، يُقترَح هذا النهج:

1. **التركيب الموضوعي :**جمع الآيات المتعلقة بموضوع بعينه والتأمل في أنماطها وروابطها.
2. **الإثراء العلمي :**الرجوع إلى أدب التفسير بعد التأمل الأولي. هذا يُتيح للعلماء إثراء فهمك وتنقيته لا استبداله.

البدء بالتفسير وحده يُخاطر بتضييق أفقك على السياق التاريخي لمؤلف بعينه. بإتاحة القرآن أن يتكلم أولًا، تُكرِّم الكلمة الإلهية مع بقائك متواضعًا أمام حكمة العلماء. هذا التوازن يصون المسؤولية الشخصية ويُوفِّي الدعوة القرآنية إلى التفاعل الصادق المتأمل.

3. الظل

تُبرز الآيات الآتية سيطرة الله على الظل آيةً من آيات النظام الكوني والحوكمة الإلهية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (الفرقان 45-46)".

يُوجِّه القرآن انتباهنا إلى حركة الظلال، ظاهرة مألوفة لكنها عميقة الدلالة. فيزيائيًّا، يظهر الظل حين يحجب جسمٌ ما الضوء. ومع دوران الأرض يتحول الموضع الظاهر للشمس، فتتطاول الظلال وتتقلَّص وتتحرك. ويصف القرآن الشمس أنها "دليلًا" على الظل، مُقرًّا بأن حركتها السماوية هي التي تتحكم في سلوكه. وبينما يُفسِّر العلم ذلك بالدوران والمدار، يُقدِّم المنظور القرآني هذه القدرة على التنبؤ بوصفها انعكاسًا للنظام الإلهي لا مجرد صدفة.

والظلال أساسية في التوازن الدقيق للأرض:

- **تنظيم المناخ :**بتخفيف الطاقة الشمسية على أسطح بعينها، تُحدث الظلال فوارق حرارية تدفع حركة الهواء وتؤثر في المناخات المحلية.

- **الإدراك البصري :**يمنح الضوء والظل العمقَ والشكلَ والتعريف المكاني؛ وبدونهما يبدو عالمنا المرئي مسطَّحًا لا تمييز فيه.
- **استدامة الحياة :**التوازن بين الضوء والظل جزء من منظومة تشمل التركيب الضوئي ودورة الماء. فالضوء يُغذِّي النمو وإنتاج الأكسجين، في حين يُنظِّم الظل المتعاقب الحرارة التي تجعل المناطق صالحة للسكن.

الدعوة إلى التأمل في "مدِّ الظل وقبضه" أكثر من صورة شعرية. إنها دعوة إلى الاعتراف بالتنسيق الدقيق بين الضوء والحركة والبيولوجيا. في هذه التحولات اليومية، يُدعى المؤمن إلى رؤية حكمة الخالق وقدرته المستمرة على القوانين الفيزيائية التي تجعل الحياة ممكنة.

4. قارن نفسك بعباد الرحمن الصالحين

في هذا المقطع البديع، يصف الله الصفات المُعرِّفة لعباده المختارين، "عباد الرحمن". وتُقدِّم هذه الآيات صورةً أخلاقية وروحية متكاملة يُدعى كل مؤمن مخلص إلى قياس نفسه بها:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا (63) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا (64) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا (66) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا (67) وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا (68) يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (70) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا (71) وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا (72) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ (الفرقان 25: 63-73)

تُشكِّل هذه الصفات مجتمعةً إطارًا متكاملًا للشخصية الإسلامية، مبنيًّا على ثلاثة أسس متشابكة:

- **الإيمان :**يتجلى في الإخلاص والتوكل على الله والتوبة الصادقة.
- **العبادة والطاعة :**تتمثل في الصلاة والانضباط الأخلاقي والتوازن في الحياة.
- **الأخلاق :**تنعكس في التواضع وضبط النفس والصدق والرحمة بالآخرين.

تُظهر هذه الآيات أن الإسلام ليس مجرد عقيدة أو شعيرة؛ بل طريقة متكاملة للوجود في العالم، توازن بين الإخلاص لله والمسؤولية تجاه الآخرين.

ويُنهي الله هذا المقطع بالوعد بالمغفرة والرحمة والتكريم الدائم في الجنة لمن يجسِّد هذه الصفات. وهذه الآيات ليست لإثارة الإعجاب وحسب؛ بل لدعوة كل مؤمن إلى محاسبة نفسه بصدق والتساؤل: أيَّ هذه الصفات اكتسبت حقًّا؟ وأيُّها يحتاج إلى مزيد من العمل؟

5. وحدة الصالحين والرسل

من أبرز صفات عباد الرحمن دعاؤهم العميق:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان 74)

بنية هذا الدعاء لافتة. يبدأ بصيغة الجمع "هب لنا من أزواجنا وذريَّاتنا" ثم يختتم بالمفرد "واجعلنا للمتقين إمامًا". وقد يتوقع المرء نحويًّا "واجعلنا أئمة"، لكن القرآن يُعمِّد استخدام المفرد (إمامًا). وهذا يحمل فكرة دينية عميقة: الصالحون الحق، رغم كثرتهم وتوزُّعهم عبر الأجيال، يُشكِّلون كيانًا أخلاقيًّا وروحيًّا واحدًا. يجمعهم رؤية واحدة ومعيار واحد للصلاح ومسار واحد من الإخلاص.

ويُطبِّق القرآن المبدأ ذاته على أنبياء الله. فرغم تعدد الأنبياء المُرسَلين عبر التاريخ، تُوصَف مهمتهم بأنها واحدة. ويتجلى ذلك بوضوح في قصة موسى وهارون عليهما السلام. فرغم كونهما شخصين، جاء الأمر لهما معًا ووُصفا بمصطلح واحد:

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (15) فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء 15-16)

الأفعال مثنَّاة: "اذهبا"، "قولا"، لكن الاسم "رسول" مُفرَد. يُؤكد القرآن بهذا أن المهمة والسلطة والرسالة واحدة، حتى حين يحملها أكثر من فرد.

وتمتد هذه الوحدة لتشمل النبوة كلها. ففي سورة النساء، يُعامِل القرآن الإيمان بجميع الرسل بوصفه فعلًا إيمانيًّا واحدًا لا يتجزأ:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (150) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (151) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء 150-152)

رفض نبي واحد يُمزِّق السلسلة الموحَّدة للهداية الإلهية.

يُقدِّم القرآن الأنبياء وأهل التقوى معًا حقيقتين متواصلتين عبر الزمن. ليسوا أفرادًا منفصلين بل أعضاء في جسد روحي واحد خالد، يجمعهم الحق ذاته والرؤية الأخلاقية ذاتها والإخلاص لله ذاته.

وقد عبَّر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الوحدة بصورة بديعة:
"أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلَّات، أمهاتهم شتَّى ودينهم واحد."
(البخاري، مسلم)

لذا، حين يدعو الصالحون "واجعلنا للمتقين إمامًا"، لا يطلبون القيادة الشخصية أو السلطة الاجتماعية. إنهم يسألون الانتماء إلى القافلة الموحَّدة للمهتدين: الاندراج في النسب الأخلاقي والروحي ذاته الذي حمل النور الإلهي عبر جميع الأجيال.

6. النصر الإلهي ودور السحرة

يصف القرآن اللحظة الحاسمة حين واجه سحرة فرعون حقيقة آية موسى:

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (46) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (الشعراء 46-48)

وصيغة ﴿فَأُلۡقِيَ﴾ (المبني للمجهول) بالغة الدلالة. فباستخدام الفعل المبني للمجهول، يُوحي القرآن بقوة مفاجئة ساحقة. فالحق الذي شهده هؤلاء الرجال كان بيِّنًا بلا التباس حتى ألقاهم إلى السجود قبل أن يتدخل الوعي والتدبُّر.

وهذه اللحظة بالغة الأثر نظرًا لهوية هؤلاء الرجال. فلم يكونوا مجرد متفرجين؛ بل كانوا النخبة المتخصصة في صناعتهم وأعمدة السلطة الأيديولوجية لفرعون.

- **شهود خبراء :**بإعلانهم أن معجزة موسى ليست سحرًا بل حق إلهي، قدَّموا أبلغ شهادة خبير ممكنة ضد ادعاءات فرعون.
- **المفارقة الإلهية :**حوَّل الله أدوات سلطة فرعون ذاتها إلى شهود على الحق، هادمًا سلطة النظام من الداخل.

ويُؤكد القرآن عمق تحولهم من خلال استجابتهم لتهديدات فرعون. فرغم وعيده بالتمثيل والصلب، بقوا راسخين لا يتزعزعون. إيمانهم لم يكن فوريًّا فحسب؛ بل مستنيرًا بالفهم المهني ومُعزَّزًا بالفضل الإلهي.

ومن المنظور القرآني، يُمثِّل السحرة نمطًا إلهيًّا: كثيرًا ما يتجلى الحق عبر من هم أقدر على إدراك صحته وتمييزه. قصتهم نموذج قوي على كيفية نفاذ الهداية الإلهية عبر الباطل الراسخ وقلبه، محوِّلةً أمهر المدافعين عنه إلى أدوات للحق.

7. بنو إسرائيل بعد غرق فرعون

يولي القرآن اهتمامًا بالغًا لمصير بني إسرائيل قبل غرق فرعون وجنوده وبعده. ومن الآيات الرئيسية الواصفة لما جرى بعد ذلك:

﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ (57) وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء 57-59)

تُقرِّر هذه الآيات أن قوم فرعون جُرِّدوا من ثرواتهم ومواردهم ومكانتهم، وأن بني إسرائيل وُرِّثوا ما أُخذ منهم. وهذا يُثير فورًا سؤالًا تفسيريًّا: ما الذي تضمَّنه هذا الإرث تحديدًا؟

لا يُفسِّر التفسير الكلاسيكي عمومًا هذه الآيات بأن بني إسرائيل حكموا مصر ذاتها. فكثير من المفسرين يرون أن هذا الإرث نمط: الله ينزع الثروة والقوة من الظالمين ويمنح المظلومين نعمًا مماثلة في مكان آخر وزمن لاحق. ويرى آخرون أن الإرث يُشير إلى أراضي شرق البحر المتوسط المباركة، استنادًا إلى آيات سورة الأعراف:

﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ... وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ (الأعراف 7136-137)

المسألة التاريخية

خارج القرآن، يُعدُّ الخروج من أكثر الأحداث جدلًا في تاريخ الشرق الأدنى القديم. يتباين الباحثون المعاصرون بين ثلاثة مواقف رئيسية:

- وقع خروج كبير النطاق من مصر، يظهر أساسًا في التراث التوراتي مع آثار أثرية محدودة.
- الخروج بناء أدبي في جوهره لا أساس تاريخي قابل للاسترداد.
- عناصر السردية كالعمال الأجانب في مصر والسكان الساميين والتحرك نحو كنعان محتملة تاريخيًّا، لكن القصة الموحَّدة تعكس تشكيلًا لاحقًا.

وقد اقتُرحت تسلسلات زمنية متعددة، تتراوح في الغالب بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد. وقد رُشِّح عدة فراعنة من الدولة الحديثة: تحتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة)، وأمنحوتب الثاني (الأسرة الثامنة عشرة)، ورمسيس الثاني (الأسرة التاسعة عشرة)، ومرنبتاح (الأسرة التاسعة عشرة)، ورمسيس الثالث (الأسرة العشرون). ولا يوجد إجماع.

وتجدر الإشارة إلى أن غياب السجلات المصرية المباشرة عن فرعون مُغرَق ليس أمرًا غير عادي. فالنقوش الملكية المصرية صُمِّمت لتخليد الانتصارات لا الكوارث. وكانت الهزائم والكوارث والإذلال تُحذَف أو تُعاد صياغتها لا تُسجَّل.

بيانات قرآنية جديرة بالبحث
رغم بقاء الغموض الأثري، يُقدِّم القرآن مجموعة بيانات داخلية متسقة بصورة لافتة يمكن أن تُشكِّل إطارًا للبحث التاريخي المستقبلي. وحين تُجمَع المقاطع ذات الصلة [الأعراف (7)؛ يونس (10)؛ الإسراء (17)؛ طه (20)؛ الشعراء (26)؛ القصص (28)؛ غافر(40)]، تبرز عدة أنماط:

1. الاتساق السياسي والسردي
- يُقدِّم القرآن فرعونًا واحدًا عبر قصة موسى من الطفولة إلى الهلاك.
- قوته وغطرسانه وسقوطه شخصية وكاملة.
- لا يُذكَر أي خلف للسلالة بعد الغرق؛ تتمحور السردية حول انهيار سلطته.

2. الدقة اللغوية
يُسمَّى الحاكم في زمن يوسف "ملكًا" في حين يُسمَّى خصم موسى "فرعون"، مما يتوافق مع الدراسات الفرعونية التي تُثبت أن كلمة "فرعون" غدت لقبًا ملكيًّا رسميًّا في عصر الدولة الحديثة (بدءًا من الأسرة الثامنة عشرة نحو عام 1550 ق.م تحت حكم أحمس الأول الذي طرد الهكسوس ووحَّد مصر).

3. تدمير أعمال فرعون
يُؤكد القرآن مرارًا لا فقط موت فرعون بل تدمير ما شيَّده:
﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ۥوَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾

تدعو هذه اللغة إلى المقارنة مع الأنماط الأثرية للبنية التحتية الملكية المهجورة أو المُعطَّلة، وإن لم يُسمَّ موقع بعينه.

4. لغة الإرث
الاستخدام المتكرر للإرث في الحديث عن بني إسرائيل ذو دلالة لغوية بالغة. إنه يُشير إلى الاستيلاء على ما كان بيد الطرف المهزوم. وهل شمل هذا مصر ذاتها أم مجرد تسوية لاحقة في مكان آخر، يظل سؤالًا قرآنيًّا مفتوحًا لا خلاصةً تفسيرية مقطوعًا بها.

خلاصة
يُقدِّم القرآن الخروج انهيارًا تاريخيًّا حقيقيًّا للاستبداد تبعه انتقال للسلطة والنعمة. وبينما لم يُعد علم الآثار بعدُ تصوير هذه الحقبة بيقين، تُقدِّم الرواية القرآنية سردية متماسكة قابلة للاختبار تدعو إلى تحقيق بيني جاد لا رفضًا مُسبقًا.

هذا ليس اقتراحًا بأن علم الآثار يجب أن يُؤكِّد القرآن. بل هو حجة بأن القرآن يحفظ بيانات تاريخية لم يستعدها علم الآثار بعد كاملةً.

8. قوم عاد: فرضية مستندة إلى القرآن

يُقدِّم القرآن أوصافًا استثنائية الثراء لحضارة عاد. وفي سورة الشعراء، يُخاطبهم نبيُّهم هود بوصفهم قومًا من القوة والهندسة والغطرسة:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء 128-130)

بدلًا من تقييد كلمة "مصانع" بالمنشآت ما قبل الحداثة، يستخدم القرآن عمدًا مصطلحًا نطاقه الدلالي يتوسَّع مع التطور التقني البشري. المصطلح مشتق من الجذر (ص ن ع) بمعنى صنع وهندسة وبناء وتصنيع بمهارة. وبخلاف كلمات البيوت والقصور والحصون، تدل "مصانع" على أماكن الإنتاج الهندسي والبناء الحضاري. ولا تقول الآية إن المباني كانت معدَّة للخلود؛ بل تقول إن القوم اتخذوا هذه المجمعات الهندسية كأنهم هم من سيخلدون، مما يُوحي بالاعتماد الاجتماعي المديد على بنية تحتية واسعة النطاق مُصانة تقنيًّا.

وعلى الرغم من الأوصاف القرآنية التفصيلية لحضارة عاد، لا يوجد إجماع أثري بشأنهم. أحد الأسباب أن البحث كثيرًا ما توجَّهته التقاليد الجغرافية لا البيانات الداخلية للقرآن. ومنهج البحث القرآني أولًا يستلزم جمع الآيات ذات الصلة واستخراج صورة حضارية مستقلة قبل البحث عن تطابقات مادية.

من القرآن وحده، يبرز قوم عاد بوصفهم:

- حضارة مبكرة ما بعد الطوفان
- تسكن أو تهيمن على مناطق الكثبان الرملية (الأحقاف)
- تمتلك قوة جسدية استثنائية
- بانية لعمارة أعمدة ضخمة (إرم ذات العماد)
- بناؤون لمصانع واسعة النطاق ومنشآت إنتاجية هندسية
- دُمِّرت بريح مستمرة شديدة أهلكت السكان وأبقت على المنشآت

الفرضية

استنادًا صارمًا إلى هذه المجموعة القرآنية من البيانات، يمكن صياغة فرضية قابلة للاختبار: "مجتمع قوم عاد مجتمعًا هندسيًّا طموحًا عالي الطاقة، يقع عند أطراف منظومات رملية كبرى وأحواض صالحة للسكن، وانهار جراء إعصار مستمر قادر على إهلاك السكان مع إبقاء المنشآت الكبرى وقائمة".

ويمكن اختبار هذا النموذج في مواجهة:

- إعادة بناء البيئة القديمة للمجتمعات على أطراف الكثبان
- الأدلة الأثرية على الهندسة الضخمة المبكرة القائمة على الأعمدة
- المؤشرات الجيولوجية على الدمار الريحي واسع النطاق

تختلف هذه المنهجية القرآنية أولًا اختلافًا جوهريًّا عن الجغرافيا المسيَّرة بالتفسير. بدلًا من تثبيت موقع عاد قبل التحليل، تستخرج من القرآن مباشرةً مُوصِّفات بنيوية: كثبان وأعمدة ومجمعات هندسية ودمار ريحي. ويمكن فحص التقاليد التفسيرية الكلاسيكية لاحقًا بوصفها ذاكرة تاريخية، لكنها لا ينبغي أن تتحكم في النموذج الأولي.

إن تقاطع علم الآثار مع تلك التقاليد، تعزَّزا معًا. وإن تباينا، يبقى النمط القرآني أساسيًّا. وهكذا يكون القرآن شاهدًا حضاريًّا متسق الذات، بينما تُدعى العلوم الخارجية لاختبار التفسير لا إملائه.

9. لماذا لم يُسمَّ شعيب "أخاهم"

في سورة الشعراء، يُقدِّم القرآن سلسلة من الأنبياء بصيغة متكررة لافتة:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء 106)
﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء 124)
﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء 142)
﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء 161)".

في كل حالة، يُقدَّم النبي بصفته "أخاهم". وهذا التعبير القرآني يُشير إلى الانتماء القبلي والعرقي والاجتماعي. فهؤلاء الأنبياء لم يكونوا غرباء؛ بل وُلدوا من داخل مجتمعاتهم. فرسالتهم حملت لذا ليس السلطة الإلهية فحسب بل القرب الأخلاقي: كانوا يدعون شعبهم بالذات إلى المحاسبة.

غير أن حين ينتقل القرآن إلى أصحاب الأيكة، يُكسَر النمط عمدًا:
﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء 176-178)

لم يُسمَّ شعيب "أخاهم". وهذا الحذف ليس أسلوبيًّا؛ بل بنيوي. ففي موضع آخر، يُسمَّى شعيب أخا مدين:
﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف 85)

وهذا يعني أن أصحاب الأيكة وأهل مدين ليسوا الشعب ذاته، رغم ارتباطهما الجغرافي والاقتصادي. فالنبي شعيب كان ينتمي بالدم والنسب إلى مدين، لكنه أُرسل رسولًا إلى أصحاب الأيكة، وهم جماعة اجتماعية مختلفة.

يرسم القرآن بهذا تمييزًا دقيقًا لكنه بالغ الدلالة:

- **مدين :**قوم شعيب (إخوته)
- **الأيكة :**مجتمع مرتبط لكن متمايز اقتصاديًّا ودينيًّا

ويبدو أن أصحاب الأيكة كانوا منظَّمين حول مركز تجاري أو منطقة تبادل أو تجمع غني بالموارد لا حول قبيلة قائمة على النسب. وهكذا كان النبي شعيب يخاطب حضارة تجارية فسادها يكمن في الغش والاستغلال والظلم الاقتصادي. قال لهم:

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ (181) وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ (182) وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ (الشعراء 181-183)

بحجب لقب "أخوهم"، يُشير القرآن إلى أن النبي شعيب أُرسل إلى أصحاب الأيكة مراجعًا أخلاقيًّا مُعيَّنًا إلهيًّا. ورسالته تمحورت حول التجارة الزائفة والموازين والمكاييل المُزوَّرة والقهر الاقتصادي والظلم الاجتماعي.

تُعزِّز هذه الدقة اللغوية أحد أعمق الأنماط في القرآن: النبوة دائمًا مرتبطة اجتماعيًّا، لكنها لا تكون أبدًا مُقيَّدة اجتماعيًّا.

10. ابدأ بمحاسبة نفسك قبل اتهام الآخرين

حين لاحظ النبي سليمان غياب الهدهد، لم يتسرع باتهامه بالإهمال. بل بدأ بالتشكيك في إدراكه هو أولًا:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ (النمل 20)

يُعلِّم هذا الأسلوب الدقيق مبدأً عميقًا في القيادة والانضباط الأخلاقي. فسليمان يُعالج أولًا احتمال أنه هو المخطئ قبل أن يستنتج غياب الهدهد. يُقدِّم القرآن بهذا محاسبة النفس خطوةً أولى قبل إصدار الحكم: مبدأ ينطبق على جميع العلاقات الإنسانية.

ثم وبعد ذلك فقط يتحدث سليمان عن عقوبة محتملة، مُظهِرًا أن المحاسبة تعقب التحقق لا الافتراض. وسرعان ما يعود الهدهد:

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ (النمل 22)

يُؤكد القرآن هنا أمرين. أولًا: غياب الهدهد لم يكن إهمالًا؛ بل كان هادفًا. ثانيًا: حتى عضو يبدو صغير الشأن في المجتمع كان يمتلك معلومات حاسمة لمهمة نبي.

يُجسِّد هذا المشهد مبدأً قرآنيًّا أعمق: يوزِّع الله المعرفة والإدراك عبر خلقه بطرق تتجاوز التراتبية. فسليمان نبيٌّ وملك أُعلم بأمر من طائر. السلطة لا تُلغي الحاجة إلى الإنصات؛ والقوة لا تنفي قيمة أصغر مُساهِم.

وتخصُّ تقرير الهدهد الحالة السياسية والدينية لشعب بعيد، مُظهِرًا أن الله يستخدم حتى أصغر المخلوقات لكشف الحقائق الخافية وإيصالها. ليست هذه مسألة وحي؛ بل مسألة حوكمة إلهية. الكون بجميع أجزائه مُشارِك في خطة الله المتكشِّفة.

وتُعلّم هذه القصة ثلاثة دروس راسخة:

- ابدأ بمحاسبة نفسك قبل اتهام الآخرين
- لا تُقلّل من شأن أحد
- اعرف أن الله قد يُوصِّل حقًّا حاسمًا عبر أقل الوسائل توقعًا

وهذه مجتمعةً تُشكّل أخلاقيات قرآنية في التواضع والمسؤولية والقيادة اليقظة.

خاتمة

يُقدِّم الجزء التاسع عشر رؤيةً مذهلة للواقع: كون مُنظَّم بالحكمة الإلهية، ومجتمعات تُختبَر بكيفية توظيف قواها، وأفراد يُقاسون بالتواضع والصدق. من الظل الذي يُبرِّد الأرض، إلى الطائر الذي يُبلِّغ النبي، إلى صعود الحضارات وأفولها، كل شيء يسير ضمن القانون الأخلاقي الكوني لله.

تدعو هذه الجواهر القارئ إلى رؤية القرآن لا مجموعةً من التعاليم المتفرقة بل رؤيةً متكاملة للواقع: رؤية تجمع الإيمان والعقل والطبيعة والتاريخ في كل واحد متماسك.

جواهر الجزء العشرين: الإيمان والابتلاء ومصير الإنسان

(النمل 27: 56 - العنكبوت 29: 45)

مقدمة

يعرض هذا الفصل مجموعة مختارة من جواهر الجزء العشرين، مُظهِرًا كيف تُوصِّل آيات موجزة دقيقة هداية عميقة في الإيمان والأخلاق والمصير والغيب. ويُبرز كل قسم موضوعًا محوريًّا كالابتلاءات والتوكل على الله وأشراط الساعة ومسؤولية العلم والغاية الأخلاقية للعبادة، مُظهِرًا كيف يُخاطب القرآن العقل والقلب معًا. وتُظهر هذه التأملات مجتمعةً أن إيجاز القرآن ليس قيدًا بل وسيلة للعمق والوضوح والجدوى الخالدة.

1. ظهور الدابة: آية كبرى قبيل الساعة

في حديث جبريل الشهير، سأل جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم أربعة أسئلة: ما الإسلام؟ وما الإيمان؟ وما الإحسان؟ وما أشراط الساعة؟ فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن كل منها. ولما انصرف جبريل، سأل الصحابة عن الزائر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذاك جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم." (مسلم)

يُظهر هذا الحديث أن الإسلام، بوصفه دينًا متكاملًا، يتألف من أربعة أبعاد متشابكة:

1. **الإسلام :**أعمال العبادة الظاهرة التي تُنظِّم خضوعنا الجسدي لله.
2. **الإيمان :**أركان الاعتقاد المُستقرَّة في القلب.
3. **الإحسان :**الإتقان في السلوك، والعيش بالوعي الدائم بأن الله يرانا.
4. **أشراط الساعة :**حقائق مستقبلية يجب على المؤمنين استيعابها لكي يثبتوا حين تنشأ الفتن والحيرة.

وهذه الأربعة مجتمعةً تُعرِّف ليس فقط كيف يعيش المؤمن، بل كيف يفهم مصير العالم.

بعض أشراط الساعة تُمثِّل حدًّا لا تُقبَل بعده توبة ولا يُعتدُّ بإيمان جديد. يقول الله تعالى:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (الأنعام 158)

ومن بين علامات الساعة الكثيرة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، منها صغرى ومنها كبرى. ويُشير القرآن صراحةً إلى أربع من الآيات الكبرى، إحداها في هذا الجزء: خروج دابة من الأرض تُكلِّم الناس:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل 82)

معظم الروايات التي تُفصِّل الدابة ضعيفة، وحتى الأصحُّ منها يبقى مُبهَمًا. وقد دفع هذا بعض العلماء إلى الملاحظة بأن كلمة "دابة" (كل ما دبَّ على الأرض) تشمل لغويًّا البشر، مما يُبقي احتمال أن تكون الدابة ليست حيوانًا بالمعنى الاصطلاحي.

ومن أوثق الروايات الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه، قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم:
"تخرج الدابة معها خاتم سليمان وعصا موسى، فتجلو وجه المؤمن، وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويُقال: يا كافر." (الترمذي، ابن ماجه)

تُمثِّل هذه الآية لحظة حاسمة حين يغدو الاعتقاد الباطن ظاهرًا للعيان، وتنتهي حالة الالتباس بين الإيمان والكفر.

ويذكر القرآن أيضًا ثلاث آيات كبرى أخرى قبيل الساعة:

1. نزول عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ (النساء 159)

2. خروج يأجوج ومأجوج: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ (الأنبياء 296)

3. الدخان المبين: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (10) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الدخان 10-11)

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات كبرى في حديث رواه مسلم وأبو داود والترمذي. فعن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال:

"اطَّلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: ماذا تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم." [مسلم (2901)، أبو داود (4311)، الترمذي(2183)]

والمهم أن الغاية من معرفة الآيات الكبرى للساعة ليست الفضول الأكاديمي ولا بناء جداول زمنية تخمينية. هذه الآيات تذكيرات بحقيقة لا مفر منها: هذه الدنيا زائلة وكل نفس سائرة نحو لقائها المُحدَّد مع الله. سواء شهد الإنسان هذه الآيات الكبرى أم لا، فيوم قيامته الخاص يبدأ فعليًّا بلحظة الموت. ومن تلك اللحظة، المحاسبة يقينية لا رجعة فيها.

التهيُّؤ للآخرة إذن ليس مرتبطًا بظهور الآيات الكونية، بل بالتوبة اليومية والإيمان الصادق والعمل الصالح والقلب المُتعلِّق بالله. يعيش المؤمن في حالة جاهزية، لا لأن الدابة قد تظهر أو الشمس قد تطلع من مغربها في حياته، بل لأن الموت قد يأتي في أي لحظة.

2. الجبال: التصميم الإلهي المتقن

يحتوي القرآن على آيات كثيرة تُشير إلى النظام العميق المُودَع في خلق الله. وتتحدث هذه الآيات بلغة في متناول جميع الناس، لكنها تدعو المتأملين في العمق إلى اكتشاف طبقات من المعنى تتكشَّف مع المعرفة والملاحظة. وهكذا يُخاطب القرآن قلوب المؤمنين وعقول المفكرين معًا.

ومن أبلغ الأمثلة على ذلك هذه الآية:

﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ (النمل 88)

للعين المجردة، تبدو الجبال ثابتة لا تتحرك. غير أن القرآن يُقرِّر أنها في حركة مستمرة، تسير بسلاسة وصمت كالسحاب العائم. وهذا التصريح يعكس حقيقةً لم تُدركها العلوم الحديثة إلا حديثًا: فالجبال تتحرك بحركة الأرض ذاتها.

تدور الأرض حول محورها بسرعة نحو ١٦٠٠ كيلومتر في الساعة. وفي الوقت ذاته تدور حول الشمس بسرعة نحو ١٠٧ ألف كيلومتر في الساعة. والمجموعة الشمسية بدورها تدور حول مركز المجرة بسرعة تقارب ٧٩٢ ألف كيلومتر في الساعة، فيما تتحرك المجرة ذاتها عبر الفضاء بسرعات هائلة. وفي هذه الحركة الكونية الشاملة، الجبال مع كل ما على الأرض في حركة أبدية لا تسكن.

ورغم هذه السرعات الهائلة، نعيش العالم ثابتًا هادئًا. نمشي على أرض صلبة ونُشيِّد المدن ونحيا حياتنا دون أن نُحسَّ بشيء من هذه الحركة. وهذا الاستقرار ليس مصادفة؛ بل هو جزء من التصميم الإلهي المتقن. فقد نسَّق الله هذه الحركات بدقة بالغة حتى تبقى الحياة على الأرض آمنة متوازنة صالحة للسكن.

وهذا التوازن الدقيق بين الحركة الهائلة والاستقرار التام آية من آيات القدرة الإلهية. يكشف كيف يُدير الله الكون بنظام منقطع النظير، ضامنًا أن حتى القوى التي تفوق الخيال البشري تخدم الحياة لا تُدمِّرها.

ولهذا يختتم القرآن هذا المقطع بدعوة إلى الشكر والتأمل:
﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ (النمل 93)

كلما اكتشفت البشرية مزيدًا عن الكون، ازداد جلاء آيات الله. وكل بصيرة جديدة في الخلق ليست تحديًا للإيمان، بل دعوة إلى مزيد من الإجلال والشكر والتواضع أمام من أتقن كل شيء.

3. احذر من التعالي والإفساد

من أفدح الذنوب التي تُفضي إلى هلاك الإنسان: التعالي على الناس ونشر الفساد باستهانة بحياة الإنسان وكرامته. وهاتان الآفتان كانتا السمة المُعرِّفة لأعظم طاغية في التاريخ: فرعون. يصفه الله في القرآن:

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص 4)

لم يبدأ طغيان فرعون بالعنف؛ بل بدأ بالعلو: الرغبة في الارتفاع فوق الآخرين والسيطرة ورؤية النفس متفوقة. ومن ذلك الكبر نشأ التفريق السياسي والتراتبية الاجتماعية ثم القتل الجماعي. يُقدِّم القرآن هذا النمط لا تاريخًا قديما بل مرضًا إنسانيًّا متكررًا: حين يتعالى البشر على غيرهم يعقب ذلك الفساد حتمًا. ولهذا يُصدر الله إعلانًا عميقًا عمَّن يستحق الآخرة:

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (القصص 83)

تكشف هذه الآية قانونًا خالدًا: الجنة ليست لمن يسعى إلى الارتفاع فوق الآخرين، بل لمن يتواضع لله. وليست لمن يُهيمن ويستغل، بل لمن يُروِّض نفسه ويُطهِّر عمله.

الإيمان الحقيقي إذن ليس فقط ما يعتقده الإنسان، بل كيف يتعامل مع القوة والناس والنفوذ. كل مؤمن يُختبَر بنفوذ أو ثروة أو علم أو سلطة. والسؤال دائمًا واحد: هل ستُنتج التواضع والعدل، أم الغرور والفساد؟

لا يترك القرآن شكًّا في أيِّ الجوابين يُفضي إلى النجاة.

4. الإيجاز في نقل طبقات متعددة من المعنى

من معجزات القرآن اللغوية قدرته على نقل معانٍ عميقة متنوعة مُشبَعة بالعاطفة بإيجاز مذهل. آية واحدة يمكن أن تحتوي على معلومة وأمر وطمأنينة عاطفية ووعد مستقبلي، كلها منسوجة في بنية متوازنة بديعة. مثال لافت يظهر في خطاب الله لأم موسى:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (القصص 7)

في هذه الآية الواحدة، يُوصِّل الله ثمانية رسائل متمايزة في توازن تام شكلًا ومعنى:

1. خبران :
   - أوحينا إلى أم موسى
   - فإذا خفت عليه
2. أمران:
   - أرضعيه
   - فألقيه في اليم
3. نهيان :
   - لا تخافي
   - لا تحزني
4. بشارتان :
   - إنا رادوه إليك
   - وجاعلوه من المرسلين

في جملة واحدة متدفقة، يُقدِّم الله التوجيه والتعليمات والطمأنينة العاطفية ورؤية المستقبل. لم تُخبَر أم موسى فحسب بما تفعل، بل بما تشعر وما تتوقع، وكل ذلك في لحظة ضيق بالغ.

هذا ليس فصاحةً وحسب؛ بل دقة إلهية. كل كلمة في موضعها لا هدر فيها. تُخاطب الآية العقل والقلب والمستقبل في آن واحد، مُجسِّدةً كيف يُوصِّل القرآن حقائق معقدة في صورة موجزة وبالغة الرحمة.

تُذكِّرنا مثل هذه الآيات بأن القرآن ليس فقط كتاب أحكام وقصص، بل رسالة مُتقنة الصياغة صُمِّمت لتقود البشر في أشد لحظاتهم صعوبةً بوضوح وتوازن وأمل.

5. حتى فرعون كان مقيَّدًا بالقانون

رغم أن فرعون كان طاغيةً تعالى على الجميع، يُوحي السرد القرآني بأن حكمه لم يكن قائمًا على النزوة وحدها. بل كان يحكم ضمن منظومة قانونية وسياسية مُهيكَلة. وقد بُنيت مصر القديمة حول مفهوم "ماعت " النظام والعدل والتوازن والحق. كان فرعون السلطة العليا، لكنه حكم عبر المحاكم والمسؤولين والإجراءات لا بالعنف العشوائي المستمر.

هذه الخلفية تُفسِّر سمةً لافتة في القصة القرآنية: لم يقتل فرعون موسى فورًا حين عاد إلى مصر، رغم أنه كان قد قتل مصريًّا من قبل.

لقد فرَّ موسى من مصر بعد قتل رجل، جريمة كانت في مصر القديمة تستوجب الإعدام إن ثبت القصد. ثم أمضى سنوات عديدة في مدين، يُوفِّي أجلًا تعاقديًّا لصهره:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ ... (27) ... (28) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾ (القصص 27-29)

يُظهر هذا المقطع أن موسى مكث في مدين ثماني سنوات إلى عشر. وقراره بالعودة بعدها يُوحي بقوة بأنه كان يُدرك أن التهديد القانوني المباشر ضده قد انقضى بمرور الزمن.

والأهم من ذلك أن فرعون حين واجهه موسى لم يأمر بإعدامه بسبب القتل السابق. بل تحداه علنًا وجادله وطالبه بالدليل. وهذا السلوك لا معنى له إلا في إطار منظومة تعترف رسميًّا على الأقل بالإجراء القانوني والدليل والمسار العلني.

لم يكن القانون المصري القديم منظومة إرهاب محضة؛ بل كان بنيةً قضائية متطورة بمحاكم وقضاة وسجلات وكبار المسؤولين كالوزراء الذين يُقيمون العدل. وكان فرعون يُعدُّ تجسيدًا للماعت، مما يعني أنه حتى هو كان مُتوقَّعًا منه الحكم وفق القانون والنظام والشرعية.

وهكذا، حتى في بلاط طاغية، بقي للقانون دور كابح. والتصوير القرآني دقيق بامتياز: فرعون كان ظالمًا فاسدًا، لكنه لم يكن فوضويًّا. طغيانه كان يعمل ضمن منظومة من السلطة والمؤسسات والأعراف القانونية، وهي ما أطاح بها الله في نهاية المطاف عبر موسى، لا بالفوضى بل بالحق.

6. التباين الاجتماعي لبني إسرائيل في مصر

كثيرًا ما يُفترَض أن جميع بني إسرائيل كانوا مُضطَهَدين بالتساوي في مصر. غير أن القرآن يُقدِّم واقعًا اجتماعيًّا أكثر تعقيدًا. فبينما عانى كثيرٌ من بني إسرائيل الإذلال والسخرة والاضطهاد، أصبح آخرون من الأثرياء والنافذين والمندمجين في النخبة المصرية، بل إن بعضهم شارك في اضطهاد أبناء جلدتهم. وأبلغ مثال على ذلك قارون، الذي يُصرِّح القرآن بأنه من قوم موسى:

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (76) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ (القصص 76-78)

تكشف هذه الآيات عدة حقائق مهمة عن البنية الاجتماعية لبني إسرائيل في مصر:

- كان قارون "من قوم موسى" لكنه "بغى عليهم"، مما يعني أنه انحاز إلى منظومة السلطة لا إلى مجتمعه المُضطَهَد.
- ثروته الاستثنائية تدل على أن بعض الإسرائيليين كانوا يمتلكون امتيازًا اقتصاديًّا وسياسيًّا ويُشكِّلون جزءًا من النخبة المصرية.
- ذكَّره قومه بأن الثروة أمانة: ينبغي أن تُفضي إلى الشكر والصدقة والضبط الأخلاقي لا إلى الغرور والفساد.

لكن قارون رفض هذه المسؤولية الأخلاقية. عزا نجاحه كليًّا إلى علمه وقدراته، مُمحيًا الله من الصورة. فجعله الله آيةً خالدة:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص 81)

تكشف قصة قارون حقيقةً مؤلمة: يمكن أن تحتوي المجتمعات المُضطَهَدة متعاونين داخليين، أفرادًا يوظفون امتيازاتهم وثرواتهم وقربهم من السلطة لتعزيز الظلم لا مقاومته.

أما الموقع الجغرافي لقصر قارون أو كنزه المدفون، فلا يُقدِّم القرآن عنه أي تفاصيل. والربط الشائع بين قارون وبحيرة قارون في منطقة الفيوم تخمين لا يسنده دليل تاريخي أو جيولوجي. ما يهم في السرد القرآني ليس أين ذهبت ثروته، بل لماذا خسرها. سقوطه ليس قصة ذهب مدفون؛ بل تحذير من قلوب مدفونة.

7. السنة الإلهية: الإيمان لا بد أن يتجلى

يُؤكد القرآن مرارًا أن الحياة على الأرض عملية ابتلاء متواصلة، وأن النجاح الحق لا يُمنَح بمجرد الادعاء اللفظي بالإيمان، بل بالصدق المُثبَت بالعمل والمثابرة. يُصرِّح الله بهذا المبدأ:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت 2-3)

تُعالج هذه الآيات سؤالًا متكررًا: لماذا يُبتلى الناس وقد علم الله مسبقًا استجاباتهم؟ وقد ي تُوحى عبارة ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ للقراءة الحرفية بأن الله يكتسب علمًا بالابتلاء. وهذا مستحيل. علم الله أزلي مطلق مستقل عن الزمن.

المعنى هنا ليس أن الله يعلم شيئًا لم يعلمه من قبل، بل أن علمه يتجلى عبر أفعال ظاهرة مُسجَّلة. فالله لا يُحاسب على أساس علمه المسبق ، بل على أساس أدلة قائمة من الواقع. وهكذا يقوم الحكم على حجة لا يستطيع أحد دفعها.

وهذا المبدأ يصون كمال العدل الإلهي. حتى مع السجلات الكاملة، لا يزال بعض الناس ينكرون الخطأ أو يدَّعون الظلم. فالعدل المطلق يستلزم أن يصدر الدليل من الفرد ذاته، حتى يستحيل الإنكار ويغدو الاعتراف لا مناص منه.

ويُجسِّد القرآن ذلك بمشهد قوي من يوم القيامة:

﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ (19) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (20) وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (فصلت 19-21)

حواسُّ الإنسان التي كانت تُستخدَم في الإنكار تغدو شاهدة عليه. ويُوضِّح القرآن أن هذه الشهادة لا تُفرَض تعسفياً بل تنشأ من إنكار المذنب الذى يفترض إمكانية إخفاء الخطأ عن الله.

ويزيد هذا المعنى وضوحًا في حديث صحيح رواه أنس بن مالك رضي الله عنه. وصف النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد يُحاجج ربه يوم القيامة فيقول:

"يا رب، ألم تُجِرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا. قال: فيُختَم على فيه، فيُقال لأركانه: انطقي. قال: فتنطق بأعماله. ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بُعدًا لكنَّ وسُحقًا، فعنكنَّ كنت أناضل." (مسلم)

يُكمل هذا المشهد المبدأ: الإيمان لا بد أن يتجلى، والإنكار لا بد أن ينهار من داخله، والعدل لا بد أن يُقرَّ المحكوم عليه.

الابتلاءات في هذا العالم إذن ليست لإعلام الله؛ بل لإثبات الحق. وبحلول وقت الحكم، ستُدرك كل نفس أن عدل الله المطلق ليس مبنى على كمال العلم فحسب، بل على الأدلة والشفافية.

8. الدعوة الإلهية إلى الاستكشاف

يُكرِّم الله الفضول الإنساني ويُوجِّهه، لأن التأمل والاكتشاف يُمكِّنان البشرية من أداء دور الاستخلاف في الأرض. الفضول هو قدرة منحها الله ليكتشف بها الناس الموارد التي أودعها في الخلق ويتعلموا توظيفها بمسؤولية.

ويمتد هذا الفضول طبيعيًّا إلى ما وراء العالم المادي، نحو أسئلة الأصول والبعث والله ذاته. ولا يكبت الوحي هذه الأسئلة؛ بل يُوجِّهها بعيدًا عن التكهن العقيم نحو الفهم الموجَّه.

ويُسجِّل القرآن أن النبي إبراهيم سأل كيف يُحيي الله الموتى، وأن موسى سأل رؤية ربه. وفي الحالتين، لم يُعاتب الله عن السؤال. بل ردَّ بتوضيحات طمأنت وأرشدت ورفعت الفهم، مُرسِّخًا أن الاستفسار الصادق الباحث عن الحق مرحَّب به حين يبقى راسخًا في الوحي.

في ضوء هذا الإطار، يُصدر الله أمرًا كونيًّا بالملاحظة والتأمل:

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (العنكبوت 20)

تدعو هذه الآية المؤمنين إلى استكشاف العالم: شعوبه، وآثاره، وأحفورياته، ونُظُمه البيئية، وآياته الكونية، والتأمل في كيفية بدء الخلق. وليس المقصود من هذا التأمل إضعاف اليقين بالبعث، بل ترسيخه وتعميقه. فالقرآن يربط عمدًا بين ملاحظة الخلق الأول واليقين بالخلق الآخر، جاعلًا من البحث المشاهد والتأمل في الكون جسرًا يقود إلى الإيمان بحقائق الآخرة.

وبالمعنى الحديث، يشمل هذا الأمر تخصصات كالتاريخ وعلم الآثار والجيولوجيا والأحياء وعلم الكون، حين تُمارَس بتواضع وأمانة فكرية وضبط أخلاقي. فالاستكشاف ليس غاية في ذاته؛ بل وسيلة للتعرف على القدرة الإلهية والحكمة والغاية.

وفي الوقت نفسه، يُصدر القرآن تحذيرًا حازمًا من تبنّي الروايات المتعلقة بأصل الخلق ممن يتحدثون بغير علم. فبعد أن ذكر إبليس وأتباعه، يقول الله تعالى:

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ (الكهف 51)

تُرسي هذه الآية مبدأً معرفيًّا حاسمًا: روايات البدايات والنهايات المطلقة لا بد أن تستند إلى وحي سليم أو استفسار أمين يعترف بحدوده، لا إلى أسطورة أو تكهن أو أيديولوجيا متنكّرة في زي المعرفة.

وعليه، فإن الموقف القرآني ليس موقفًا معاديًا للفضول المعرفي ولا للعلم، بل هو تأكيدٌ منضبط على أن الاعتماد المطلق إنما يكون على الله وحده، وأن الاستكشاف الصادق لخلقه يُعَدُّ في ذاته طاعةً وعبادة. وكما شبَّه القرآنُ التعلُّقَ بقوى زائفة من دون الله بالاحتماء ببيت العنكبوت الهشّ، فإن الاعتماد على دعاوى غير راسخة بشأن الخلق ليس إلا وهمًا فكريًّا.

ومن ثمّ، يُدعَى المؤمن إلى الجمع بين التوكل الروحي والدراسة الدقيقة الناقدة؛ فيسير في الأرض، ويتأمل آياتها، ويجعل الوحيَ والخلقَ معًا يُضيئان له طريق الحقيقة.

9. التوكل على غير الله كالتوكل على بيت العنكبوت

يضرب الله مثلًا قويًّا لمن يبتغون الحماية والأمن والسند المطلق من غيره:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ (العنكبوت 41)

للوهلة الأولى قد يبدو هذا التشبيه مُحيِّرًا؛ إذ تُخبرنا المعرفة الحديثة أن حرير العنكبوت بالغ القوة نسبةً إلى حجمه. غير أن الوصف القرآني لا يُشير إلى قوة خيط منفرد، بل إلى طبيعة البيت بوصفه ملجأً. فشبكة العنكبوت لا تُقدِّم حمايةً حقيقية من ريح أو مطر أو حرارة أو صدمة. لا سقف فيها ولا استقرار ولا دفاع حين يحل الخطر الحقيقي.

وهذا هو صلب المثل. أيُّ توكل على المخلوقات، سواء أكانت قوةً أم ثروةً أم نفوذًا أم مؤسسات أم تحالفات بشرية، قد يبدو رائعًا أو دقيقًا، لكنه يبقى هشًّا في جوهره. حين تأتي الابتلاءات الحقيقية، ينهار هذا التوكل بسهولة كانهيار بيت العنكبوت.

كثيرًا ما يُركِّز من يعتمدون على القوى الدنيوية على القوة المرئية، كالحشرات التي تنجذب نحو شبكة العنكبوت دون أن تُدرك غرضها. ما يبدو أمانًا يغدو فخًّا. الشبكة لا تحمي الحشرة؛ بل تُشابكها وتُشلّها وتُهلكها. وكذلك من يبتغون الأمن المطلق أو الكرامة أو النجاة من غير الله كثيرًا ما يجدون أنفسهم مُقيَّدين ومسيطَرًا عليهم ومُضرَّرين من القوى ذاتها التي وثقوا بها.

يُوضِّح القرآن أن هذه الأمثال أدوات تعليمية مقصودة لتعميق الفهم والتأمل:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت 29: 43)

كان المسلمون الأوائل يُدركون أن الإغفال عن التأمل في أمثال القرآن ليس هفوةً بسيطة؛ بل يكشف عن قصور في العمق الفكري. وحين يضرب الله مثلًا، يُتوقَّع من المؤمنين التوقف والتأمل واستكشاف صلته بحياتهم.

والدرس واضح لا لبس فيه: إن كل اعتمادٍ لا يقوم على التوحيد اعتمادٌ هشٌّ خادع، كبيت العنكبوت. أما الأمن الحقيقي، والحماية الحقيقية، والكرامة الحقيقية، فلا تُنال إلا بالاعتماد على الله وحده؛ ذاك الذي لا ينهار سندُه، ولا يخيّب من احتمى بجواره.

10. الأثر الأخلاقي للصلاة

تحتلّ الصلاة مكانةً محورية في حياة المسلم، لكنها ليست غايةً في ذاتها، بل وسيلةٌ ربانية للوصول إلى حالةٍ أسمى وأشمل: دوام ذكر الله. وحين تُختزل الصلاة في طقسٍ اعتيادي بدل أن تُعاش ممارسةً تُحوِّل الإنسان من الداخل، قد يؤديها المرء بانتظام دون أن يظهر لذلك أثرٌ يُذكر في أخلاقه أو سلوكه. وهذه الفجوة تكشف خللًا في فهم الغاية الحقيقية من الصلاة.

لقد جعل الله الصلاة صلةً مباشرةً حميمة بين العبد وربه؛ قناةً تُطهَّر بها القلوب، وتُهذَّب بها النفوس. ومن الطبيعي أن تنعكس ثمار هذه الصلة على سلوك الإنسان، واختياراته، وضبطه الأخلاقي. يقول الله تعالى:

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ (العنكبوت 45)

تُوضِّح هذه الآية تسلسلًا جوهريًّا بالغ الأهمية. فقد وُصِف ذكرُ الله بأنه «أكبر»، لا لأن الصلاة أقلُّ شأنًا، بل لأن الصلاة هي الوسيلة الأساسية التي تقود إلى ذلك المقصد الأعظم. وبحكم التعريف، فإن الغاية تسمو على الوسيلة المؤدية إليها، مهما بلغت أهمية تلك الوسيلة ومكانتها.

ويُوضِّح مثالٌ بسيط هذه الحقيقة بجلاء. فإذا قال والدٌ لابنه: «قُد السيارة ببطء حتى تصل إلى البيت سالمًا»، فإن الغاية الحقيقية هي الوصول الآمن، أما القيادة ببطء فهي الوسيلة اللازمة لتحقيق تلك الغاية. فالوسيلة ضرورية لا غنى عنها، لكنها وُجدت لخدمة المقصد الأعلى. وكذلك الصلاة؛ فهي أعظم وسيلة منحنا الله إياها لنبلغ الغاية العظمى: أن نحيا في دوام الوعي به وذكره.

الصلاة في ذاتها شرفٌ عظيم. فهي العبادة الوحيدة التي تلقّاها النبي ﷺ مباشرةً في السماوات العُلى ليلة المعراج. ومن خلالها يدعو خالق الكون عبدَه إلى مناجاةٍ خاصة، يُتاح له فيها أن يتحدث، ويسأل، ويتلقّى الرحمة والهداية.

ومع أن الصلاة نفسها صورةٌ من صور الذكر، تحفظ القلب من الفحشاء والمنكر، فإن الحياة خارج مصلّى الصلاة مليئة بالمشاغل والضغوط والإغراءات. ولهذا كان لا بد أن يمتد الذكر إلى ما بعد أوقات الصلاة الرسمية. فـ«ذِكرُ الله أكبر» لأنه يشمل اليوم كلَّه، ويوجِّه سلوك الإنسان في عمله، وداخل أسرته، وفي المجتمع من حوله.

ثم إن الذكر لا يقتصر على ترديد الكلمات باللسان، بل هو حالةٌ واعية يعيشها القلب والعقل، بحيث تبقى الأفكار، والنيات، والتصرفات متصلةً بالشعور بالله وابتغاء مرضاته. وعندما تؤدي الصلاة هذا الدور، تتحول إلى قوةٍ حيَّة تُشكِّل الشخصية، وتكبح المعصية، وتهدي المؤمن إلى الاستقامة والنزاهة في مختلف جوانب الحياة.

خاتمة

تُشكِّل جواهر الجزء العشرين مجتمعةً نسيجًا متماسكًا من الهداية: الإيمان لا بد أن يتجلى بالعمل، والعبادة لا بد أن تُشكِّل الشخصية، والأمن الحقيقي لا يُوجَد إلا في التوكل على الله. والتأمل في هذه الموضوعات يأخذ القارئ من مجرد التلاوة إلى الاستيعاب العميق، مُتيحًا للقرآن أن يُشكِّل رؤيته للعالم ويُنضبط سلوكه ويُوجِّه تهيُّؤه للآخرة. وهكذا يغدو القرآن لا نصًّا يُقرأ وحسب، بل بوصلةً تُوجَّه بها الحياة.

جواهر الجزء الحادي والعشرين: الفطرة والأسرة والقيادة الإيمانية

(العنكبوت 29: 46 - الأحزاب 33: 30)

مقدمة

يُقدِّم الجزء الحادي والعشرون من القرآن جملةً غنيةً متكاملة من الموضوعات تتناول الإيمان والبعث، والأسرة والتربية، والشكر والقيادة، والذنب والتوبة، والعواقب الخفية للخيارات الإنسانية في الدنيا والآخرة. وعبر هذا الجزء، يلفت الله الأنظار إلى آياته في الخلق والمجتمع، مُبيِّنًا أن الدين الحق في تناغم تام مع الفطرة الإنسانية النقية، وأن الفساد في الأرض نتاج في معظمه لانحراف البشرية عن ذلك النظام الفطري. وتبرز كل من: خلق الزوجة مصدرًا للسكينة، والمكانة المحورية للشكر، والتباين بين المشقة المأمولة والرخاء الخادع، دروسًا عملية للمؤمن.

ويقف في قلب هذا الجزء حكمة لقمان: منهج تربوي متكامل. يبدأ بالتوحيد، ويتعمق بالوعي بعلم الله ولطفه، ثم يتدرج إلى الصلاة والمسؤولية الاجتماعية والتواضع وبر الوالدين حتى حين يكون الإيمان محل تحدٍّ. إلى جانب هذا الإطار الأخلاقي، يُذكّرنا الجزء بأن البعث على الله يسير كخلق نفس واحدة، وأن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم الأسوة العظمى لمن يرجو الله واليوم الآخر، وأن القيادة الدينية الحق لا تُمنَح إلا لمن جمع الصبر واليقين بآيات الله.

تُشكّل جواهر الجزء الحادي والعشرين برنامجًا متماسكًا عمليًّا لتنشئة القلب السليم والأسرة الصالحة والمجتمع الرصين. والهداية المقدَّمة هنا خارطة طريق حية، تبدأ من البيت وتمتد إلى المجتمع، داعيةً المؤمن إلى تكريم آيات الله بالشخصية والشكر والتواضع والمسؤولية.

1. أكرم آيات الله بإكرام الزوجة

في سورة الروم، يلفت الله الأنظار إلى عدد من آياته في الخلق في الآيات (20-25) والآية (46)، يُقدِّم كل منها بعبارة "ومن آياته"، داعيًا إلى التأمل العميق وتعريف الناس بكمال حكمة الله في خلق الكون وإعداده مستقرًّا مريحًا نافعًا للحياة الإنسانية.

ومن أعمق هذه الآيات: خلق الأزواج:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم 21)

يُبرز الله أن الزوجة آية من آياته في الخلق. فقد جعلها مصدر سكن: راحة وطمأنينة وسلام داخلي لزوجها. وهذا هو الهدف الأول للزواج: أن يجد الرجل سكينته مع زوجته، وأن تُرسِّخ هذه السكينة بما أودعه الله من مودة (عطف عميق ومحبة) ورحمة (رفق وحنان وشفقة) بينهما. وهذه المحبة والرحمة المتبادلتان أساس الأسرة السعيدة والبيت المستقر.

ويُذكِّر الله الزوج أيضًا بأن زوجته ليست غريبة عنه؛ فهي "من أنفسكم"، تُشاركه طبيعته وإنسانيته. وإيذاؤها أو إذلالها أو مداومة الشقاق معها هو في حقيقته تعكير صفو راحته الذاتية وتصرف ضد نفسه.

وهذا التعبير ذاته "من أنفسكم" يُستخدَم في القرآن لوصف العلاقة الحميمة الرحيمة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة 128)

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم عميق الاهتمام بسلامة أمته، يُدعى الزوج إلى الاعتناء بزوجته بيقظة ورحمة ورفق، مُدركًا أنها جزء من حياته ونفسه. وإكرام الزوجة إذن ليس مجرد أدب عالٍ؛ بل اعتراف بآية إلهية أوطنها الله في البيت.

وقد صرَّح النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المبدأ:
"أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا." (الترمذي)
وقال أيضًا: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي." (الترمذي)

تُظهر هذه التعاليم أن إكرام الزوجة بالعطف والرحمة والاحترام ليس مجاملة ثانوية بل سمة مُعرِّفة للإيمان الحق والشخصية النبوية. وإكرام الزوجة إكرامٌ لإحدى آيات الله: صون كرامتها وابتغاء راحتها وبناء بيت لا تُتلى فيه مُثُل القرآن من المودة والرحمة فحسب بل تُعاش.

2. الدين الحق والفطرة النقية

تفرد الإسلام بصورته الخالصة التي بلَّغها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بتناغمه التام مع الفطرة الإنسانية. وهذا التناغم هو العلامة المُعرِّفة لدين الله الحق: إنه يتوافق تمامًا مع الطبيعة السليمة التي أودعها الله في كل إنسان. يقول الله:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم 30: 30)

تُوضِّح هذه الآية أن الدين المستقيم الذي يدعو الله البشرية إليه هو الدين الحنيف: النقي المستقيم الخالي من الانحراف، المتسق تمامًا مع فطرة كل إنسان الأصيلة. الإسلام لا يكبت الطبيعة الإنسانية؛ بل

يُطهِّرها ويُهذِّبها ويُوجِّهها، مُعيدًا الناس إلى حالتهم غير المُشوَّهة التي أبعدتهم عنها المعتقدات الزائفة والشرك والممارسات الأخلاقية المنحرفة.

ولهذا يأمر الله مرارًا بالتمسك بملة النبي إبراهيم عليه السلام، الموصوف وحده بالحنيف. فقد عرف إبراهيم وحدانية الله ورفض الوثنية بفطرته السليمة حتى قبل نزول الوحي عليه. يقول الله:

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (البقرة 135)

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الأنعام 161)

ملة إبراهيم هي الحنيفية: انصراف حاسم عن جميع أشكال الشرك والانحراف، وتوجه كامل إلى الله بنقاء العقيدة والعبادة. وهو الدين ذاته الذي جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليُقرِّره ويُكمِّله، لا عقيدةً جديدة بل استعادةً وإكمالًا للمنهج الفطري الأول للتوحيد المغروس في كل قلب سليم.

يقوم الدين المتسق مع الفطرة النقية على ثلاثة أسس جوهرية:
- الإيمان بالله وحده ربًّا وخالقًا ومستحقًّا للعبادة وحده.
- الإيمان بيوم الجزاء والمحاسبة النهائية.
- العمل الصالح النافع للفرد والمجتمع.

وهذه المبادئ مشتركة في جميع الرسائل النبوية، وإن اختلفت تفاصيل بعض الأحكام والشعائر من أمة إلى أخرى. يقول الله:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ (البينة 4-5)

وهكذا، الدين القيم يتألف من عبادة الله وحده بإخلاص، في حالة حنيفية تنسجم مع الفطرة، ويتجلى في أعمال العبادة، لا سيما الصلاة والزكاة، اللتين تُنمِّيان العدل والرحمة والمسؤولية الاجتماعية.

ويُوضِّح هذا المفهوم القرآني للفطرة في السنة النبوية، حين ربط النبي صلى الله عليه وسلم الطبيعة الإنسانية النقية بالتوحيد مباشرةً:
"ما من مولود إلا يُولَد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه وينصِّرانه ويُشرِّكانه." (البخاري، مسلم)

يُفسِّر هذا الحديث أن الحالة الأصيلة لكل إنسان هي الاستعداد الفطري لمعرفة وحدانية الله والخضوع لها. والانحراف يأتي لاحقًا عبر المؤثرات الخارجية والتشكيل الثقافي والتعاليم المشوَّهة. ودور الوحي، الذي بلغ ذروته في الإسلام، هو دعوة البشرية للعودة إلى ذلك الوضوح الأصيل، وإزالة طبقات الفساد، وإعادة توافق القلب مع ما خُلق لأجله: معرفة ربه ومحبته وعبادته.

3. الفساد في الأرض من صنع الإنسان

يُوجِّه الله البشرية إلى قراءة التاريخ ومراقبة العالم بعناية لاستيعاب سنة إلهية جوهرية: الفساد الأخلاقي يُفضي إلى الفساد الاجتماعي والاقتصادي والبيئي. يقول الله:

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (41) قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾ (الروم 41-42)

ترسي هاتان الآيتان أن الفساد، المتجلي في الاضطراب والظلم والضرر البيئي والشُّح والانهيار المجتمعي، ليس عرضيًّا أو عشوائيًّا؛ بل ينشأ مباشرةً من الأفعال الإنسانية. يُذيق الله الناس بعض عواقب أعمالهم، لا عقوبةً محضة بل تحذيرًا ودعوةً إلى التوبة والعودة إلى الصراط المستقيم.

ومصطلح "مشركين" في هذا السياق لا يقتصر على من يسجدون للأصنام المنحوتة. بل يشمل كل من يهجر الفطرة النقية التي أودعها الله فيه ويُسند السلطة المطلقة إلى غير الله: سواء بعبادة المخلوقات، أو الإطلاق المطلق للأيديولوجيات البشرية، أو رفع الهوى النفسي إلى مستوى الشريعة العليا. وبهذا يُشرك الإنسان نفسه أو غيره مع الله في تحديد الحق والباطل، بانيًا منظومات قيم زائفة تتناقض مع الهداية الإلهية.

ولا بد أن يتجلى هذا الفساد على مستوى الاعتقاد والنية فسادًا ظاهرًا في المجتمع. ويصرِّح الله بهذا الترابط:
﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ (الشورى 30)

الكوارث، سواء أصابت الأفراد أو المجتمعات أو الحضارات بأسرها، كثيرًا ما تكون التراكم التدريجي للظلم والطغيان والانحلال الأخلاقي. غير أن رحمة الله تفوق انتقامه بكثير: فهو يعفو أكثر مما يُظهِر من العواقب في هذه الدنيا، مانحًا فرصًا متكررة للتوبة والإصلاح.

وعلى الرغم من وضوح هذا التشخيص القرآني، كثير من المسلمين اليوم يقعون في عادة إلقاء اللوم على القوى الخارجية وحدها: الاستعمار والمؤامرات الأجنبية والقوى المعادية، متجاهلين الأسباب الأخلاقية الداخلية. فحين تفسد القلوب، لا ينتج العلم وحده إصلاحًا؛ بل قد يغدو أداةً لمزيد من الضرر، بما فيه:

- نشر الفتنة والفساد في الأرض
- قهر الضعيف واستغلال المستضعف
- الخيانة وتطبيع الظلم
- توظيف الدين لمكاسب شخصية أو سياسية

في مثل هذه الحال قد يُتلَفَّظ بالدين بينما يعكس الواقع شكلًا عمليًّا من أشكال الشرك: منح الولاء المطلق للسلطة والثروة والقبيلة أو الأيديولوجيا بدلًا من الله وهدايته. يدعو القرآن المؤمنين إلى مواجهة هذا الداء

بصدق، والاعتراف بأن كثيرًا من الفساد في البر والبحر من صنع أيدي البشر، والعمل بالدواء الإلهي: التوبة الصادقة وتطهير القلب والعودة إلى العدل والتواضع والطاعة.

وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا من أن مخالفات أخلاقية بعينها تُفضي إلى عواقب دنيوية محددة. ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما:
"ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قُطع عنهم الرزق." (مالك)

تعكس مثل هذه الروايات النمط القرآني ذاته: حين يُفسد الناس الأسواق ويقهرون الآخرين وينتهكون العدل، يُذيقهم الله مرارة أعمالهم في هذه الدنيا قبل المحاسبة الكاملة في الآخرة.

4. شكر الله لصالحك أنت

يُعرِّفنا هذا الجزء بلقمان. وقد اختلف العلماء في كونه نبيًّا أم عبدًا صالحًا، لكن هذا السؤال لا يُقدِّم نفعًا عمليًّا. فلو كانت معرفة مكانته الدقيقة ضرورية للهداية لصرَّح الله بها. بدلًا من ذلك أبرز الله ما يهم حقًّا: أن لقمان مُنح الحكمة، وأن اهتمامنا ينبغي أن ينصبَّ على طلب تلك الحكمة والعيش بها، لا على الجدال في مكانة من أوتيها.

يُخبرنا الله أن الحكمة هبة إلهية تُمنَح لمن يشاء، وأن نيلها من أعظم صور الخير:

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (البقرة 269)

ومن أوضح مجالي حكمة لقمان: فهمه العميق بأن شكر الله يعود بالنفع على النفس ذاتها. يقول الله:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ (لقمان 12)

لا يزداد الله عظمةً بالشكر ولا ينقص بحجبه. بل إن الشكر يُهذِّب القلب ويُغذِّي السلام الداخلي ويصير وسيلةً لاستجلاب مزيد من النعم في الدنيا والآخرة. وقد أدرك لقمان هذه السنة الإلهية بوضوح، وهي السنة ذاتها التي عبَّر عنها الله في هذه الآية:

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ (إبراهيم 7)

وعليه، فإن الشكر عبادةٌ وسببٌ للزيادة في آنٍ واحد. والمؤمن الحكيم يدرك أن شكر الله ليس عبئًا يُفرَض على النفس، بل استثمارٌ تتضاعف عوائده. فبالشكر يزداد الإيمان عمقًا، ويكتسب القلب توازنًا نفسيًّا، وتغدو الحياة أكثر رسوخًا ووضوحًا وغاية.

وكما أدرك لقمان، فإن صاحب الحكمة يرى في كل لحظة شكرٍ خطوةً نحو بصيرةٍ أعمق، وطمأنينةٍ أدوم، واستمرارٍ لفيض النعم الإلهية.

5. أولويات تعليم الأبناء

من أعظم الدروس المستخلصة من قصة لقمان ليس فقط ما علَّمه ابنه، بل الترتيب الذي علَّمه به. وأسلوب لقمان في التربية هو ذاته تعبير عن الحكمة الإلهية، محفوظ في القرآن نموذجًا للآباء والمعلمين وكل من أُؤتمن على رعاية الجيل القادم.

تتكشَّف أولويات لقمان في تسلسل مقصود:

1. ترسيخ التوحيد وخطورة الشرك.
2. بناء الوعي بعلم الله وقربه ولطفه.
3. تعريف الفرائض الدينية والمسؤولية الاجتماعية.
4. تهذيب الشخصية بالتواضع في السلوك والكلام.

يعكس هذا الترتيب فهمًا عميقًا للتطور الإنساني: الاعتقاد قبل الحكم، والوعي قبل الالتزام، والتجذُّر الداخلي قبل السلوك الخارجي.

الخطوة الأولى: ابدأ بالتوحيد وخطورة الشرك

يبدأ لقمان بمخاطبة الفطرة السليمة في نفس ابنه، ذلك الشعور الداخلي الذي يُدرك أن الظلم أمرٌ عظيمٌ قبيح، ثم يُبيِّن له أن أعظم الظلم على الإطلاق هو الإشراك بالله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان 13)

وليُوضِّح لماذا الشرك ظلم عميق، يُوجِّه لقمان ابنه للتأمل في خلق الله:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان 10-11)

بمقارنة القدرة الإبداعية المطلقة لله بالعجز التام لكل ما سواه، يُبيِّن لقمان أن تسوية الخالق بكائنات لا تخلق شيئًا أمر غير عقلاني وظالم في آن. وتعليم التوحيد بالتأمل في الخلق يُرسِّخ الإيمان في العقل والقلب معًا.

الخطوة الثانية: بناء الوعي بعلم الله ولطفه

ثم يُعلّم لقمان ابنه أن الله لا يخلق ثم ينسحب؛ بل إنه يعلم ويرعى ويُظهِر حتى أخفى الأشياء. وليُرسِّخ هذا الوعي، يُقدِّم لقمان صورة حية لا تُنسى:

﴿يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ (لقمان 16)

هنا يُعرِّف لقمان الله بصفتَي اللطيف والخبير. يُغذِّي ذلك الإجلالَ دون الخوف، والمحاسبة دون اليأس، والمحبة إلى جانب التعظيم. كما يُقدِّم درسًا قيِّمًا للآباء والمعلمين: ينبغي أن يُربَّى الأطفال في ظل اللطيف، بالرحمة والصبر والتصحيح الرفيق، لا بالتهديد الدائم والعقاب.

الخطوة الثالثة: تعريف الفرائض الأساسية بعد معرفة الله

وحين يترسَّخ الاعتقاد والوعي، يُعرِّف لقمان ابنه بالالتزامات الدينية والأخلاقية:

﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ (لقمان 17)

ذُكِرت الصلاة أولًا لأنها تُحوِّل معرفة الله من فكرةٍ ذهنية إلى صلةٍ حيَّة وذكرٍ يومي دائم، فيغدو الإيمان تجربةً معاشة لا مفهومًا مجرَّدًا.

ثم يُوسِّع لقمان دائرةَ مسؤولية ابنه لتتجاوز ذاته، فيُعلِّمه الاهتمام بالصحة الأخلاقية للمجتمع من حوله. وأخيرًا، يُهيِّئه لحقيقة أن الثبات على الحق يجلب الابتلاء، وأن الصبر عند الشدائد سِمةٌ من سمات القوة الأخلاقية والقيادة الراشدة.

الخطوة الرابعة: تشكيل الشخصية بالتواضع وحسن السلوك

وبعد ترسيخ الاعتقاد والواجب، يتوجه لقمان إلى الشخصية والسلوك الخارجي، مُؤكِّدًا التواضع في الهيئة والكلام:

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ (18) وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ (لقمان 18-19)

يُحذِّر لقمان من الكبر في الهيئة والتعبير والكلام، مُذكِّرًا بأن السلوك الخارجي يعكس الحال الداخلية للقلب. ويُعلِّم التوازن والكرامة والضبط، مُبيِّنًا أن الغلظة والصخب في الكلام من علامات القبح الأخلاقي لا القوة.

وبهذا تتحول وصايا لقمان إلى منهجٍ تربوي خالد: يبدأ بتأسيس التوحيد الخالص، ثم يُعمِّق الشعور بقرب الله ولطفه، ويُقدِّم التكاليف والواجبات بعد ترسُّخ الإيمان، ثم يُهذِّب الشخصية بالتواضع وحُسن الخلق.

إنه منهجٌ متكامل يبني الإيمان، ويُنمِّي المسؤولية، ويُرسِّخ مكارم الأخلاق في انسجامٍ متوازن.

6. إكرام الوالدين وبخاصة الأم

ومن اللافت في سياق قصة لقمان أنه لم يقل لابنه بنفسه: «أطعني وأطع أمك»، رغم المكانة المحورية لبرّ الوالدين في الإسلام. بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي تدخَّل في أثناء الوصايا ليُوجِّه هذا الأمر مباشرة. وهذا الانتقال في الخطاب يُبرز مدى عِظَم العلاقة بين الوالدين والأبناء في الميزان الإلهي، ويرفعها من مجرد سلطةٍ أسرية إلى فريضةٍ أخلاقية مقدسة.

ويخصُّ الله الأمَّ بذكرٍ خاص، مُلفتًا الانتباه إلى ما تتحمله من تضحيات، وما تمر به من ضعفٍ وألمٍ ومشقة أثناء الحمل، ثم الولادة، ثم الرعاية المكثفة للطفل في أول عامين من حياته. وتُقدَّم هذه الحقائق بوصفها من أعظم الأسباب التي تدعو الأبناء إلى إظهار عميق الشكر والإحسان لوالديهم:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ (لقمان 31: 14)

هنا يتجه الشكر في اتجاهين متصلين: أولًا إلى الله المصدر الأصيل للحياة والرعاية والرزق، ثم إلى الوالدين بوصفهما الواسطة المباشرة التي وصلت بها هذه الرعاية إلى الطفل. بجمع أمرَي "اشكر لي ولوالديك"، يُوضِّح القرآن أن إكرام الوالدين جزء أصيل من الشكر لله، لا فضيلة مستقلة أو ثانوية.

وفي الوقت نفسه، يضع الله حدًّا فاصلًا بالغ الأهمية. فبرُّ الوالدين لا يعني الطاعة المطلقة، ولا سيما إذا كانت الطاعة تؤدي إلى مخالفة التوحيد. فحتى لو مارس الوالدان أشدَّ أنواع الضغط لدفع ابنهما إلى التخلي عن الإيمان الخالص، فلا يجوز للمؤمن أن يطيعهما في أمرٍ فيه شرك بالله. ومع ذلك، ومن اللافت في توجيه القرآن، أنه لا يزال يأمر بالإحسان، والصحبة بالمعروف، والاحترام:

﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان 15)

ترسي هذه الآية أخلاقيات دقيقة متوازنة:

- لا طاعة حين يطلب الوالدان الشرك أو معصية الله.
- الإحسان المستمر والخدمة والمصاحبة الكريمة واجبان طوال حياتهما.

ويُوجَّه المؤمن أيضًا إلى "اتباع سبيل من أناب إليَّ"، مُبرِّزًا أهمية الإحاطة بالرفاق والمعلمين والمجتمع الصالح. وهذه التوجيه بالغ الأهمية بصفة خاصة لمن تُعارض أسرُهم إيمانهم. ويُلقي مسؤوليةً جماعية على المجتمع الإسلامي لتوفير الرحمة والإرشاد والانتماء، ولا سيما للشباب والمسلمين الجدد، حتى لا يشعر أحد بأنه مُرغَم على الاختيار بين الولاء لله والرعاية المحترمة لوالديه.

وهكذا يصون القرآن الركيزتين: الالتزام الراسخ بالتوحيد والتميُّز الراسخ في الشخصية. ويُعلِّم أن الإيمان الحق لا يُبرِّر القسوة أو الهجر، وأن إكرام الوالدين وبخاصة الأم واجب مدى الحياة حتى مع عمق الاختلاف في الاعتقاد.

7. خلق النفس وبعثها

من أبرز الأسباب التي تدفع الناس إلى رفض الوحي إنكارُهم للبعث ويوم الحساب. فهم، لعجزهم عن تصور كيف يمكن للأجساد المتفرقة والعظام البالية أن تعود إلى الحياة، يستبعدون الآخرة ويعدّونها أمرًا مستحيلًا. غير أن هذا الإنكار لا يقوم على دليل، بل ينبع من فهمٍ محدودٍ ومشوَّه لحقيقة الخلق نفسها.

ولهذا يُعالج الله هذا الشك بإرجاع الإنسان إلى الحقيقة الأولى والأعظم: فالخلق الأول في ذاته هو أعظم برهان. فالذي أوجد الإنسان من العدم، وخلق البشرية كلها من نفسٍ واحدة، قادرٌ تمام القدرة على أن يُعيدهم جميعًا إلى الحياة دفعةً واحدة للحساب. وفي هذا السياق يقول الله تعالى:

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ (لقمان 31: 28)

تختزل هذه الآية جميع أعداد البشر، وأجيالهم، وأممهم، وبقاياهم المتفرقة، في مقارنةٍ واحدة. فبالنسبة إلى الله، الذي لا تحدّه حدود الزمان أو المكان أو الموارد، فإن خلقَ المليارات وبعثَهم ليس بأعسر من خلق نفسٍ واحدة أو بعثها. إن الصعوبة لا وجود لها إلا في خيال الإنسان المحدود، لا في القدرة الإلهية المطلقة.

وباختتام الآية بوصف الله تعالى بأنه «السميع البصير»، يربط القرآن بين البعث وكمال العلم الإلهي. فالذي سمع كل كلمة، ورأى كل عمل عبر التاريخ، لا يغيب عنه فردٌ واحد ولا تضيع منه نفسٌ واحدة. ومن ثمّ، فإن البعث ليس مجرد أمرٍ ممكن، بل هو الامتداد الضروري لتحقيق العدالة الإلهية الكاملة.

وفي الجزء نفسه، يُعزِّز الله هذا البرهان بتذكير الإنسان أن بدء الخلق في ذاته دليلٌ قائم على القدرة على إعادته مرةً أخرى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ (الروم 27)

ويكشف الله عن الخلل المنطقي في إنكار البعث: نسيان الإنسان أصله. يقول:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس 78-79)

إنكار البعث إذن تناقض عقلي: من هو موجود بالفعل لا يستطيع منطقيًّا إنكار القدرة التي أوجدته. وليُقرِّب هذه الحقيقة من كل عقل، يُشير الله مرارًا إلى آيات مرئية كإحياء الأرض الميتة بالمطر:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت 39)

ومن خلال هذه البراهين، يُقدِّم القرآن الخلقَ والبعث بوصفهما شطرين لحقيقةٍ واحدة. فالذي أوجد البشرية بسهولةٍ من نفسٍ واحدة، سيجمع كلَّ نفس بالسهولة نفسها، في وقتٍ واحد، بعلمٍ كامل وعدلٍ مطلق، لتقف بين يديه سبحانه.

8. لعاصي الذي يُمنّي نفسه

عند التأمل في حال من يعصون الله في هذه الدنيا، يمكن رصد حالتين واسعتين:

1. عاصٍ يعيش في بؤس ومشقة.
2. عاصٍ يبدو في رفاه وسعادة.

الفريق الأول، من يعصون الله ويعانون الضيق والكرب، قد يكونون بمعنى عميق محظوظين إن قرؤوا حالهم قراءةً صحيحة. فمعاناتهم قد تكون تحذيرًا رحيمًا من الله: فرصة للصحو والتوبة وتغيير المسار قبل خسارة أعظم في الآخرة. ألمهم ليس مجرد عقوبة؛ قد يكون نداءً للعودة.

يصف الله المصير النهائي لمن يُصرُّون على العصيان دون توبة، مع كشف الغرض من المحنة الدنيوية: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة 20-21)

"العذاب الأدنى" في هذه الدنيا، المتجلي في القلق والخسارة والإذلال والمشقة، قد يصير بابًا من أبواب الأمل إن أعاد الإنسان قراءته فأفضى به إلى الله بتوبة صادقة. وبهذا المعنى، قد يكون الألم الدنيوي شديدًا لكنه لا يخلو من رحمة.

أما الفريق الثاني، من يعصون الله في ظل رخاء ونجاح وراحة ظاهرة، فهم في وضع أشد خطرًا بكثير إن أعماهم هذا الرخاء عن الحاجة إلى التوبة. وأحيانًا يكون وفور الدنيا لا علامة رضا إلهي بل استدراجًا تدريجيًّا يُترَك فيه الناس يغرقون في الغفلة أعمق فأعمق حتى تأتيهم الصاعقة فجأة. يقول الله:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ (الأنعام 44)

تُوضِّح هذه الآية أن ليس كل بابٍ مفتوح نعمةً بالمعنى الحقيقي. فعندما تقترن الراحة، والفرص، والملذات بالإصرار على المعصية والغفلة عن الله، فقد لا تكون علامةَ أمان، بل نذيرَ خسارةٍ وشيكة. ولهذا قد يكون العاصي الذي يبدو راضيًا مطمئنًّا في حالٍ أشدَّ خطرًا من المبتلى المتألّم، لأن الراحةَ قد تُخدِّر القلب وتؤخر التوبة.

والمؤمن الحكيم، سواء في نظرته إلى نفسه أو في نصحه للآخرين، يقرأ الشدةَ والرخاءَ معًا من خلال ميزان الآخرة:

- قد تكون الشدة نداءً رحيمًا يدعو إلى الرجوع إلى الله.
- وقد يكون الرخاء إنذارًا خفيًّا إذا اقترن بالاستمرار في المعصية.

وفي الحالين، لا يتحقق الأمان الحقيقي إلا بالعودة إلى الله، وتصحيح المسار، ورفض الخلط بين الأحوال الدنيوية المؤقتة، حلوها ومرِّها، وبين حكم الله النهائي على عباده.

9. النبي صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة

من الأوامر المحورية في القرآن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم قدوةً حيةً يُحتذى بها. يقول الله:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ (الأحزاب 21)

تربط هذه الآية ثلاث صفات جوهرية:

- رجاء لقاء الله
- الإيمان باليوم الآخر
- كثرة ذكر الله

من يُجسِّد هذه الصفات بصدق سيجد خارطة الطريق الأكمل والأعملى في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم. والاقتداء به لا يقتصر على الإعجاب أو الارتباط العاطفي؛ بل يعني تشكيل السلوك اليومي وتقريبه من هديه قدر الإمكان.

الاقتداء الحق بالنبي صلى الله عليه وسلم يستلزم دراسة شخصيته بعمق، لأن أخلاقه كانت التجسيد الحي للقرآن. وحين سُئلت أمنا عائشة رضي الله عنها عن خلقه، أجابت: "كان خلقه القرآن." ويعني هذا أنه كان القرآن مُترجَمًا إلى فعل، وأن كل أمر ونهي ومثل أخلاقي في الكتاب كان يتجلى في سلوكه.

ولهذا حين أثنى الله عليه في القرآن، أثنى عليه أولًا بخلقه:
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم 4)

تُقرِّر هذه الشهادة الإلهية أن التميز في الدين لا يُقاس بالعلم أو الشعيرة وحسب، بل بتهذيب الشخصية، وهو ما جسَّده النبي صلى الله عليه وسلم على أرفع مستوى.

وكان الصدق والأمانة ركيزتين لشخصيته السامية. وقبل الوحي، أجمع أهل مكة على هذين الخلقين فيه ومنحوه لقب "الصادق الأمين". لم يخُن أمانةً قط، حتى مع أعدائه، ولم يكذب كلمةً قط حتى لو كان الكذب يخدم مصالحه الدنيوية.

وكانت هاتان الصفتان الركيزتين لدعوته. حين وقف على الصفا يدعو قومه إلى الإسلام، أقرُّوا علنًا أنهم لم يعرفوا فيه الكذب قط. ومن يدَّعي محبة النبي صلى الله عليه وسلم وهو مُتهاوِن بالصدق والأمانة لم يتخذه قدوةً حقيقية.

وعلى صعيد آخر، كان النبي صلى الله عليه وسلم أرقى قائد للأفراد والمجتمعات. جمعت قيادته بين النزاهة الأخلاقية والحكمة الاستراتيجية. ومن أبرز سمات قيادته:

1. النزاهة:
- تام التوافق بين القول والعمل.
- الثبات المطلق في الوفاء بالوعود، والعهود، والمسؤوليات.

٢. الرؤية
- امتلاك رسالة واضحة بعيدة المدى: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، لا مجرد تحقيق مكاسب آنية قصيرة الأمد.
- إعداد الأجيال، كما تجلى في تربية الصحابة رضي الله عنهم، واهتمامه بمن سيأتون بعدهم.

3. القدرة على التكيف:
- توظيف استراتيجيات مختلفة في مكة والمدينة، في السلم والحرب، مع الأقوياء والضعفاء.
- مرونة في الأساليب مع الثبات على المبادئ.

4. المحاسبة:
- الترحيب بالشورى والتصحيح.
- تحمُّل مسؤولية القرارات والاستزادة الدائمة من الاستغفار.

5. صنع القرار:
- الجمع بين التوكل والتخطيط الدقيق والتشاور.
- الحسم بعد الإقامة على أمر دون تردد أو خوف.

6. مهارات التواصل:

- الكلام الواضح المتأني حتى كان السامع يعد كلماته.
- تطويع الخطاب للمتلقي: إيجازًا حينًا وتفصيلًا حينًا، ولينًا حينًا وحزمًا حينًا.

دراسة هذه الأبعاد من حياته صلى الله عليه وسلم عبر السيرة والحديث والتطبيق العملي تُتيح للمسلمين اتخاذه قدوةً لا مرشدًا روحيًّا فحسب، بل نموذجًا للحياة الأسرية وبناء المجتمع وإدارة الخلافات والقيادة الحضارية.

وهكذا، الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم مشروع مستمر يُعيد تشكيل الشخصية والصدق والأمانة وأسلوب القيادة حتى تعكس تدريجيًّا هديه النبيل الجميل.

10. القادة يُصنَعون بالصبر واليقين

في سورة السجدة، يصف الله فئةً من الناس أكرمهم بالقيادة الحقيقية، قيادة لا تستند إلى المكانة أو السلطة بل إلى صفات روحية داخلية:

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة 24)

ترسي هذه الآية مبدأً قرآنيًّا جوهريًّا: القيادة الدينية الحقيقية لا تُورَث ولا تُدَّعى؛ بل يمنحها الله حين تترسَّخ في الإنسان صفتان أساسيتان:

- **الصبر :**الثبات على الطاعة والكف عن المعصية والتحمُّل في الشدائد والمحن.
- **اليقين :**الاقتناع العميق الواثق بوحي الله الذي يوجِّه الفكر والسلوك وصنع القرار.

ولاحظ العلماء منذ أمد أن الانحراف عن منهج الله ينشأ عمومًا من مرضين داخليين:

- **الشهوة :**تشدُّ الإنسان نحو المعصية والأنا ومتاع الدنيا.
- **الشبهة :**تُعكِّر الفهم وتُضبِّب الحد بين الحق والباطل.

فالصبر هو العلاج لشهوة النفس، إذ يُمكِّن الإنسان من كبح أهوائه والثبات على الطاعة. أما العلم بالوحي، المقرون بالتفكر والإخلاص، فيورث اليقين، الذي يبدد الشبهات ويُرسِّخ القلب على الحق. ولذلك، فإن الذين يجاهدون هذين المرضين في داخل أنفسهم هم وحدهم المؤهلون حقًّا لهداية غيرهم وقيادتهم.

ومع ذلك، يُتبع الله آيةَ القيادة مباشرةً بتذكيرٍ حاسم بحدود السلطة البشرية:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ (السجدة 25)

هذا تحذير جوهري، ولا سيما للدعاة والعلماء والناشطين، من تجاوز دورهم بالتسرع في وصم الآخرين بالضلال أو الانحراف أو الهلاك في المسائل الخلافية. يرسم القرآن حدًّا واضحًا:

- مسؤولية الإنسان: توضيح الحق والنصح بالحكمة والهداية بالصبر والعلم وحسن الخلق.
- الحكم النهائي في القلوب والنيات والمآلات: لله وحده يوم القيامة.

القيادة الحقيقية إذن لا تقل في سمتها تواضعًا عن عزمها. من يطمح إلى قيادة الناس إلى الله لا بد أن يُنمّي الصبر واليقين في نفسه، مع التزام الضبط والرحمة والإنصاف في تعامله مع الآخرين. القائد الحق يحمل الناس إلى الله دون ادّعاء الحق الإلهي الحصري في الحكم على مصيرهم النهائي.

خاتمة

يدعو الجزء الحادي والعشرين المؤمنَ إلى أن يحيا منسجمًا مع الفطرة، راسخًا في التوحيد، ومُعبِّرًا عن إيمانه بالشكر، والتواضع، والاستقامة الخلقية. ويُعلِّم هذا الجزء أن تعظيم آيات الله يبدأ من أقرب العلاقات إلى الإنسان: الزوج، والوالدين، والأبناء، وأن الإيمان لا يكتمل دون رحمةٍ، وحكمةٍ، ومسؤوليةٍ أخلاقية داخل الأسرة والمجتمع.

كما يتحدى هذا الجزء عادةَ إلقاء اللوم على العوامل الخارجية في كل مصيبة، مُؤكِّدًا أن كثيرًا من الفساد في البر والبحر إنما هو نتيجة ما كسبت أيدي الناس، وأن الشدائد قد تكون نداءً رحيمًا يدعو إلى الرجوع إلى الله، بينما قد يكون الرخاء مع الإصرار على المعصية صورةً خفية من صور الابتلاء.

وفي الوقت ذاته، يُقدِّم الجزء نماذج وموازين واضحة: لقمان معلمًا للحكمة، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم التجسيد الحي للقرآن والأسوة الحسنة، والمعايير القرآنية للقيادة من صبر ويقين تُلطِّفها التواضع والتحفُّظ في الحكم. والمحاسبة النهائية، يُذكِّرنا الجزء، لله وحده.

إن استُوعبت هذه الجواهر حقًّا، أعادت ترتيب أولويات المؤمن: يقرأ المشقة والنعمة كليهما رسالتين من الله، ويُربِّي أسرته بالحكمة والرفق، ويُقيم الحق والأمانة، ويطمح إلى قيادة تهدي دون غطرسة أو إدانة قاسية. والرجاء أن يخرج كل من سلك هذا الجزء بتأمل بقلب أعدَّ لملاقاة الله، وشخصية أقرب إلى مثال النبي صلى الله عليه وسلم، وحياة أكثر توافقًا مع طريق الذين هداهم الله وأكرمهم.

جواهر الجزء الثاني والعشرين: من الإجلال الفكري إلى المسؤولية الحضارية

(الأحزاب 33: 31 - يس 36: 27)

مقدمة

يُمثِّل الجزء الثاني والعشرون من القرآن الكريم، الممتد عبر أجزاء من سور الأحزاب وسبأ وفاطر ويس، خارطةً روحية عميقة للنفس الإنسانية. إنه قسم من الوحي يجمع القلب الباطن بالكون الظاهر.

في هذه الصفحات لا تُمنَح أحكام فحسب؛ بل تُمنَح استراتيجية للوجود. ننتقل من هرم الإيمان الذي يُحدِّد مستوانا الروحي الداخلي، إلى استراتيجية التأمل التي تُعلّمنا كيف نفكُّ قيود عقولنا من ضجيج الحشود.

يستكشف هذا الفصل موضوع الخضوع الواعي لله. فهو يتحدّى المؤمن أن يتجاوز الإيمان السطحي القائم على الهوية والانتماء، إلى حياةٍ يرى فيها أن دراسة الجبال، وإدارة طرق التجارة، والدفاع عن مقام النبي ﷺ، كلَّها أعمالٌ مترابطة تدخل في معنى العبادة والطاعة لله.

وعبر رحلتنا في هذه الجواهر، سنكتشف أن الطريق إلى القرب الإلهي مفروش بالأمانة الفكرية والشكر الفاعل والشجاعة على الوقوف وحيدًا أمام الله.

1. هرم الإيمان: من الهوية إلى الإتقان

لا يُقدِّم القرآن الإيمان وصفًا جامدًا أو حالةً ثنائية. فهو لا يختزل الروحانية الإنسانية في تقسيم بسيط بين مؤمن وكافر. بل يصوِّر القرآن الروحانية حقيقةً حية متطورة: تنمو وتتعمق وترتقي على مدى العمر. ويتجلى هذا التدرج في سورة الأحزاب:

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (الأحزاب 35)

هذه ليست مجموعة عشوائية من الفضائل؛ بل هي بنية روحية مقصودة: هرم من عشر محطات يقود الساعي من الهوية الدينية الخارجية إلى قمة الإحسان والتقوى.

المحطات العشر للصعود:

1. **المسلم (الإسلام) :**نقطة الانطلاق. يبدأ بإعلان الانتماء وقبول الهداية الإلهية.
2. **المؤمن (الإيمان) :**تنتقل الهوية من اللسان إلى القلب. يصير الإيمان اقتناعًا راسخًا لا انتماءً موروثًا.
3. **القانت (القنوت) :**يتجلى الإيمان في طاعة مستمرة واعية. تغدو العبادة نهجًا راسخًا في الحياة لا عملًا عرضيًّا.
4. **الصادق (الصدق) :**ميلاد النزاهة الداخلية. يصير الظاهر والباطن واحدًا؛ القلب واللسان يقولان الحق ذاته في توافق تام.
5. **الصابر (الصبر) :**ترسيخ الإيمان. يكتسب المؤمن التحمل في الشدة والكف في الإغراء والمثابرة في الطاعة.
6. **الخاشع (الخشوع) :**تليين القلب أمام الله. يبدأ الإجلال والهيبة والاستسلام الهادئ في تشكيل الحالة الداخلية.
7. **المتصدق (الصدقة) :**يتدفق الإيمان إلى الخارج. بعد أن نما داخليًّا، يتجلى سخاءً تجاه الخلق.
8. **الصائم (الصوم) :**انضباط الشهوة. بكبح الحاجات المشروعة طوعًا، يكتسب الساعي السيطرة على الأنا.
9. **العفيف (الحفظ) :**الحصن الأخلاقي. وهو ذروة ضبط النفس: حماية الطهارة والكرامة من الغرائز الإنسانية الجارفة.
10. **الذاكر كثيرًا (الذكر) :**القمة. عند هذا المستوى يحيا القلب في وعي متواصل بالله، مُولِّدًا الوضوح الروحي والبصيرة الأخلاقية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (الأعراف 201)

النمو الروحي في الإسلام إضافي لا إحلالي. الارتقاء إلى محطة أعلى لا يُلغي المحطات الأدنى؛ بل يُكمِّلها ويُعمِّق جذورها. فالساعي المتقدم لا يتخلى عن الصلاة والصدق والصبر؛ بل تصير هذه الصفات أعمق وأنقى وأشد إخلاصًا.

الهرم تراكمي: كلما ارتقيت حملت فضائل أكثر. وكل ادِّعاء بالتنوير الروحي يفتقر إلى أساس الأخلاق والانضباط والطاعة مبنيٌّ على هواء.

2. ورثة الكتاب: أمل لكل نفس ساعية

يصارع كثير من المؤمنين الصادقين حوارًا داخليًّا صامتًا مؤلمًا: "لست صالحًا بما يكفي." "أقع كثيرًا لأكون مؤمنًا حقيقيًّا." "لن أبلغ مستوى الأتقياء أبدًا".

تُعالج سورة فاطر هذا الصراع الداخلي مباشرةً، مُحيلةً اليأس إلى هدف. ففي مقطع واحد بليغ، يُعيد الله تعريف علاقتنا بالنجاح والفشل.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦۖ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (32) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ (فاطر 32-33)

يصف الله تعالى ثلاث فئات من المؤمنين، ومع ذلك فإن الفئات الثلاث جميعًا تدخل تحت وصف واحد: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾

فحتى الذي ظلم نفسه ما زال داخل دائرة الاصطفاء. وهذا وحده كافٍ لهدم الفكرة التي تحصر القرب من الله في النخبة الروحية وحدها.

الفئات الثلاث

١ .الذين ظلموا أنفسهم
هؤلاء هم المؤمنون الذين يُعانون من ضعف الثبات، ويقعون في الذنوب، ويتكرر منهم التقصير والسقوط. ومع ذلك، لا يزال الله يسميهم: «عبادي الذين اصطفينا». ووجودهم في هذه الآية دليل على أن الوقوع في الذنب لا يُخرج الإنسان من دائرة عناية الله. أما الفشل الحقيقي، فهو أن يترك الإنسان طريق التوبة ويستسلم للانقطاع.

٢ .المقتصدون
وهؤلاء هم أهل الاستقامة والاتزان. يؤدون الفرائض، ويجتنبون الكبائر، لكنهم لا يداومون على تجاوز الحد الأدنى إلى مراتب الإحسان العالية. إنهم مستقيمون مقبولون عند الله.

٣ .السابقون بالخيرات
وهؤلاء هم أصحاب الهمم الروحية العالية، الذين يسعون إلى الإحسان في العبادة، والأخلاق، وخدمة الناس. ومن اللافت أن الله أضاف قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾
تذكيرًا بأن التفوق الروحي نفسه نعمةٌ من الله، لا إنجازٌ شخصي يحق لصاحبه أن يتكبر به.

تُقدِّم هذه الآية «البوصلة» التي تُوجِّه هرم الإيمان. فإذا كان الهرم يُرينا المراتب التي يمكن أن نرتقي إليها، فإن هذه الآية تُطمئننا بأن الله يقبلنا من حيث نحن. وهي تُعلّمنا ثلاث حقائق مُحرِّرة:

- الانتماء يسبق الكمال: فلا يشترط أن تكون بلا خطأ حتى تكون من المصطفين.
- الصراع مع النفس لا يُسقط الاصطفاء: فمعاركك الداخلية مع الذنب لا تعني أنك خرجت من وراثة الكتاب.
- الإسلام دين اتجاه ومسار: فالعبرة ليست بالمكان الذي تقف فيه، بل بالاتجاه الذي تسير نحوه.

إن الخطر الحقيقي ليس أن تكون «مؤمنًا يُجاهد نفسه»، بل أن تتوقف عن المحاولة أصلًا. فالتخلي عن السعي هو الخروج الحقيقي من الطريق. أما ما دام الإنسان يندم على تقصيره، ويعود إلى باب الله، فإنه لا يزال من ورثة الكتاب.

إن الله لم يقسم الناس إلى «أولياء كاملين» و«هالكين ضائعين»، بل جعل عباده المصطفين ثلاث فئات:

- المجاهدون لأنفسهم: يُقاومون ضعفهم وشهواتهم.
- الثابتون: يحافظون على استقامتهم.
- السابقون: يتسابقون إلى معالي القرب والإحسان.

وجميعهم ورثة الكتاب. وجميعهم مدعوون إلى جنات عدن. وباب الارتقاء إلى الأعلى يظل مفتوحًا للجميع، مهما كثرت العثرات وتكررت السقطات.

3. الخضوع التام: النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الحي

يستلزم الإيمان الحقيقي الخضوع غير المتزعزع لأحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وفي الإسلام، الأمر القرآني والتطبيق النبوي ليسا سلطتين منفصلتين؛ بل تعبيران عن الإرادة الإلهية ذاتها. يقبل المؤمن كليهما بقلب مفتوح ثقةً بحكمة الله حتى حين لا يتضح له عمق هذه الحكمة فورًا.

يُوضِّح القرآن أن طاعة الرسول ليست اختيارية؛ بل هي شرط مُعرِّف للإيمان:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ (الأحزاب 33: 36)

ويقول الله أيضًا:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ (النساء 4: 65)

والبرهان الأقصى على محبة الله هو اتباع الرسول:

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (31) قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (آل عمران 3: 31-32)

القرآن كلام الله المحفوظ إلهيًّا والمصدر الأول للهداية. غير أنه بتصميم إلهي يُقدِّم كثيرًا مبادئ كونية لا تفاصيل إجرائية مستفيضة.

والسنة، السيرة الحية للنبي صلى الله عليه وسلم، تُظهر كيف تتجسَّد تلك المبادئ في الواقع.

يأمر القرآن الكريم بالصلاة، والزكاة، والصيام، والعدل، والمسؤولية الاجتماعية. وقد بيَّن النبي ﷺ كيف تُقام الصلاة، وكيف تُؤدَّى الزكاة، وكيف يُصام، وكيف تُعاش هذه التكاليف بروح من التوازن، والرحمة، والحكمة. كما جسَّد ﷺ الانسجام بين التوكل الكامل على الله والأخذ بالأسباب العملية.

ولهذا، فإن حتى الذين يدعون إلى الاكتفاء بالقرآن وحده لا يستطيعون عمليًّا الاستغناء عن الممارسات النبوية المتواترة، كهيئة الصلاة وبنية العبادة الجماعية. فهذه الممارسات تمثل سنّةً عمليةً حيّة سبقت تدوين كتب الحديث، وحُفظت عبر النقل الجماعي المستمر للأمة.

ولأن الأحاديث النبوية نُقلت عبر سلاسل بشرية، فقد طوَّر العلماء علمًا دقيقًا لتمييز الروايات الصحيحة من غيرها. وفي أعلى درجات اليقين يأتي الحديث المتواتر: وهو ما رواه عددٌ كبير من الناس في كل طبقة من طبقات النقل، بحيث يستحيل عادةً تواطؤهم على الكذب.

وقد اختلف العلماء تاريخيًّا في الحد الأدنى الذي يتحقق به التواتر:

- فبعضهم ذكر عشرة رواة، استئناسًا بوصف القرآن للعدد عشرة بأنه «كاملة» في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ (البقرة: ١٩٦).
- وآخرون ذكروا أربعين، استنادًا إلى روايات تتعلق بقوة الجماعة وتماسكها.
- وذهب بعضهم إلى أعداد أكبر، كعدد أهل بدر (٣١٠ تقريبًا)، أو عدد أصحاب بيعة الرضوان (١٤٠٠).

وبناءً على معيار عشرة رواة في كل طبقة، يقدِّر بعض العلماء أن عدد الأحاديث التي تبلغ درجة التواتر القطعي يتراوح تقريبًا بين مئة وثلاثمئة وخمسين حديثًا.

ومع أن علم الحديث علمٌ تخصصي دقيق، فإن دلالته الإيمانية واضحة وبسيطة: لقد أرسل الله الرسول ﷺ لا ليُبلِّغ الوحي فحسب، بل ليُجسِّده في واقع الحياة.

ولهذا، فإن اتباع النبي ﷺ بالنسبة للمؤمن ليس أمرًا منفصلًا عن اتباع القرآن، بل هو أصدق صور اتباع القرآن نفسه. فالتسليم الكامل لله ليس إيمانًا نظريًّا مجرَّدًا، بل طاعةٌ حية ، جسَّدها الرسول ﷺ، ويتلقاها المؤمن بالثقة، والتواضع، والمحبة.

4. استراتيجية التأمل الجاد: تجنب الضجيج

حين يُعاني الناس شكوكًا في الحق، يكون غريزتهم النظر نحو الأغلبية أو الانغماس في الخطاب العام. غير أن القرآن يُشير مرارًا إلى أن الحشود نادرًا ما تكون مصدر الإدراك العميق. الفهم الحقيقي يستلزم انفصالًا مقصودًا عن ضجيج الجماعة والدخول في تأمل هادف.

في سورة سبأ، يأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يُقدِّم لمنتقديه نصيحة واحدة موجزة:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ (سبأ 34: 46)

في التجمعات الكبيرة، كثيرًا ما تهيمن نفسية الحشود. يتقبل الناس لا شعوريًّا الآراء السائدة رغبةً في الانتماء. ضغط الامتثال يكبت التفكير المستقل ويُخمِّد صوت الفطرة: النزعة الإنسانية الفطرية نحو الحق.

ولهذا يبدأ توجيه الله بالانفصال عن الحشد.

- **فُرادى (الوقوف منفردًا) :**الوقوف وحيدًا أمام الله، بعيدًا عن التأثير الاجتماعي وهواجس السمعة والسلوك المُصطنَع. إنه لقاء مباشر بين النفس وخالقها.
- **مثنى (بالاثنين) :**الانخراط في حوار صادق مع شخص واحد موثوق. حيث لا جمهور، ولا تدرّج في السلطة أو المكانة، بل عقلان يتعاونان على كشف الافتراضات الخفية وتجاوز مواطن العمى في التفكير.

كلا الأسلوبين يُغذِّي الأمانة والتواضع والشجاعة الفكرية. وحين ينفصل الإنسان عن الضجيج يستطيع تقييم عدة حقائق محورية يُبرزها الجزء:

1. **دليل الشخصية :**عاش النبي صلى الله عليه وسلم بين قومه عقودًا الأمينَ. والتأمل يستحضر حياةً قوامها النزاهة لا الوهم.
2. **دليل الإخلاص :**﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أعلن النبي صلى الله عليه وسلم مرارًا أنه لا يبتغي مالًا ولا مكانة ولا مكسبًا دنيويًّا. رسالته جلبت مشقة لا امتيازًا.
3. **دليل المصدر :**﴿رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ الحق ليس افتراءً بشريًّا؛ بل إسقاط مقصود من الخالق في الوعي الإنساني.
4. **دليل النتيجة :**﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ليس للباطل قدرة خلاقة؛ فهو يُقلِّد ويُشوِّه فينهار حين يواجهه الحق.

وتختتم الاستراتيجية ببيان من الأمانة الفكرية:

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ (سبأ 50)

الهداية لا تُورَث من الحشود؛ تُكتسَب بالتفاعل الصادق مع الوحي. الحق لا يحتاج إلى أغلبية. يحتاج إلى قلب صادق وعقل هادئ وشجاعة على الوقوف أمام الله.

5. مصدر الكرامة الحقيقية: السعي إلى مصدر واحد

حين يتعرَّف المؤمن على الله من خلال التأمل في خلقه وأسمائه، يحدث تحول عميق في الداخل. يتحرر القلب تدريجيًّا من التوق إلى التقدير والتصفيق والمكانة بين الناس. وفي محلها يترسَّخ يقين راسخ بأن كل الكرامة تنبع من مصدر واحد: الله.

يُرسي الله هذا المبدأ بوضوح مذهل:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (فاطر 10)

تكشف هذه الآية تمييزًا دقيقًا لكنه بالغ الدلالة:

- **الكلم الطيب :**كلام نقي صادق نافع. يقول الله إنه يصعد إليه: مقبول ومُسجَّل ومُجزًى.
- **العمل الصالح :**للأعمال يستخدم الله فعلًا أقوى: يرفعه. الكلام يُعترَف به، لكن الأعمال هي ما ترفع. إنها محرك الترقي الروحي.

كثيرون يُساومون على مبادئهم طلبًا للقبول الاجتماعي. غير أن هذا السعي يُفضي كثيرًا إلى فقدان رضا الله ورضا الناس معًا. لخَّص النبي صلى الله عليه وسلم هذه السنة الروحية:
"من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس." [البيهقي في شعب الإيمان]

فلماذا إذن يظل الناس يخضعون لغيرهم على حساب ضمائرهم؟ في الغالب يدفع ذلك خوفان فطريان:

- الخوف من فقدان الرزق
- الخوف من فقدان الأمن أو الحياة

والقرآن يُفكِّك كليهما:
﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (فاطر 2)

لا صاحب عمل ،ولا حاكم ولا مؤسسة ولا شبكة تتحكم في المصير. الله وحده يفعل ذلك.

حين تُدرك أن لا إنسانًا يستطيع فتح ما أغلقه الله، ولا إنسانًا يستطيع إغلاق ما فتحه الله، يتبدد الخوف. تتوقف عن الأداء أمام الحشود. تتوقف عن المساومة بضميرك. تبدأ الحياة لجمهور من واحد. وفي تلك اللحظة تصير حرًّا حقًّا.

6. الصلاة على النبي: شراكة إلهية

في القرآن، تبدأ معظم الأوامر بالنداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ غير أن ثمة أمرًا واحدًا فريدًا لا يبدأ الله فيه بتوجيه المؤمنين. بل يُعلن أولًا أنه هو وملائكته يقومون بهذا الفعل أصلًا، ثم يدعو المؤمنين للانضمام:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ (الأحزاب 56)

تكشف هذه الآية حقيقة عميقة: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ليست مجرد إخلاص بشري؛ بل مشاركة في فعل إلهي جارٍ لا ينقطع.

وكلمة "صلاة" تحمل معاني مختلفة بحسب مَن يُؤدِّيها:

- **من الله :**ليست طلبًا بل إتمامًا. تدل على الرحمة الإلهية والتعظيم والثناء بين الملائكة ومنح المغفرة والفضل.
- **من الملائكة :**هي استغفار. فحملة العرش يسألون الله حماية من على الأرض والمغفرة لهم:
- ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ (غافر 40: 7)
- **من المؤمنين :**هي دعاء، يسألون الله رفع مقام النبي وتكريم منزلته وإغداق الرحمة عليه.

لما نزلت الآية 56، شعر الصحابة بشوق. فقد روى ابن عباس أن المهاجرين والأنصار قالوا:
"هذا لك يا رسول الله خاصة وليس لنا فيه شيء".

كانوا معتادين على الآيات التي يذكر الله فيها النبي والمؤمنين معًا:
﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ (الفتح 48: 29)
﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ (البقرة 2: 285)

وبعد وقت قصير، أنزل الله ما يُبيِّن أن المؤمنين أيضًا مشمولون بالصلاة الإلهية والملائكية:
﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ (الأحزاب 33: 43)

فكيف يضمن المؤمن هذا الاهتمام الإلهي والملائكي المستمر؟ يُعطي القرآن شرطًا واضحًا: كثرة الذكر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ (41-42)

والعلامة الفارقة بين الإيمان الصادق والنفاق ليست وجود الذكر بل شُحُّه:

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (النساء 4: 142)".

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة الذكر والتقرب إلى الله ليست أفعالًا منفصلة؛ بل مسالك متشابكة في شراكة إلهية يرفع فيها الله ويُصلّي الملائكة ويمشي المؤمن في النور. هذا ليس مجرد تشريف؛ بل تحول حقيقي.

7. الأمانة العظمى: تمكين النفس الإنسانية

كثيرًا ما تُقرأ الآيتان الأخيرتان من سورة الأحزاب بطريقةٍ قد تُوحي من غير قصد بأن الحالة الإنسانية خطأٌ كونيٌّ مأساوي. فعند الاكتفاء بالمعنى السطحي، قد يبدو أن الإنسان كائنًا متهورًا، محكومًا عليه بالفشل، وغير مؤهلٍ بطبيعته للأمانة التي حملها.

غير أن التدبُّر العميق، مع استحضار أسماء الله الحسنى: الحكيم، والرحيم، والعادل، يكشف رسالةً مختلفة تمامًا؛ رسالةً أكثر قوةً وأملًا وتمكينًا للإنسان. تقول الآيتان:

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا (72) لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الأحزاب 72-73)".

وغالبًا ما تُنتِج القراءة الحرفية المجرَّدة ثلاث تصورات مُقلِقة:

- أن السموات والأرض كانتا تملكان إرادةً حرة، وأنهما «رفضتا» عرض الله عن وعيٍ واختيار.
- أن الإنسان كان متهورًا أو أحمق حين قبل أمانةً تفوق قدرته.
- أن الغاية من حمل الأمانة لم تكن إلا إيجاد مبرر للعقاب والمؤاخذة

وهذه الاستنتاجات تتعارض مع مبدأ قرآني جوهري:
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (البقرة 2: 286)

ما هي "الأمانة"؟
في سورة البقرة يُعلن الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ (البقرة 2: 30)
الأمانة هي هذا الدور بعينه: القوامة على الأرض وفق الهداية الإلهية.

ولأداء هذا الدور أوجد الله البشرية بمواهب استثنائية:

- **العلم :**عُلِّم آدم أسماء الأشياء كلها (البقرة 31)

- **تسخير الكون :**سُخِّر الكون لخدمة البشر (الجَاثيَة 13)
- **الوعي مع الإرادة الحرة :**بينما يُسبِّح الخلق كله الله (الإسرَاء 44)، يمتلك الإنسان وحده القدرة الفريدة على الاختيار الواعي بين الطاعة والعصيان.

وللوصول إلى فهم أعمق، نُعيد النظر في ثلاث مصطلحات:

عَرَضَ : تفسر غالبًا بمعنى «قدَّم» أو «عرض»، لكنها تحمل أيضًا معنى «أظهر» أو «أبرز». فكما تُعرَض الأفلام في «صالة عرض»، فإن الله سبحانه أظهر عِظَم هذه الأمانة للسماوات والأرض والجبال، ليُبيِّن حدود قدرتها مقارنةً بما أودعه في الإنسان من قابلية واستعداد.

أبيَن: تتفسر عادةً بـ«رفضن»، غير أن اللفظ في دلالته اللغوية يمكن أن يُشير إلى العجز وعدم القدرة. وفي الاصطلاح الهندسي مثلًا يُقال: Pile refusal عندما تصل الدعامة إلى الحد الذي لا تعود معه قادرة على الاختراق أكثر. فالمعنى ليس أن الجبال «قالت لا» لله، بل إنها بلغت الحد الأقصى لما تحتمله بنيتها.

أشفقن : تفسر غالبًا بـ«خِفْنَ»، لكن الجذر يحمل أيضًا معنى الرِّقة والهشاشة. وكأن الآية تُشير إلى أن حتى الجبال الراسخة هي ألين وأضعف من الصلابة الروحية والعقلية التي أودعها الله في النفس الإنسانية.

لماذا يُوصَف الإنسان بالظلوم الجهول؟
لا تُدين هذه الأوصاف البشريةَ على قبول الأمانة. بل تصف ما يحدث حين يُهملها:
- الإنسان ظالم لنفسه حين يُضيِّع الإمكانات الإلهية المودَعة فيه.
- والإنسان جاهل حين يُخفق في إدراك شرف اختياره خليفةً لله.

والنقد يستهدف سوء التوظيف لا الوجود.

يمكن فهم الآيتين على النحو التالي:

"أظهر الله الأمانة: القوامة على الأرض وفق هدايته. افتقرت السموات والأرض والجبال إلى الطاقة لحملها. و لكن الإنسان، المُجهَّز وحده بالعلم والوعي والاختيار، أُؤتمن عليها. حين يُهمل الإنسان القدرات التى أودعها الله فيه يظلم نفسه ويتصرف في جهل. (72) وبناءً على ذلك يُحاسِب الله من يخونون الأمانة ويرحم من يُكرِّمونها. والله غفور رحيم."

لم نُخلَق كتجربةٍ مأساوية محكومٍ عليها بالفشل، بل خُلقنا أمناءَ على الأمانة. فالسؤال ليس: هل نحن أهلٌ لحمل الأمانة؟ بل: هل سنرتقي إلى مستوى هذه الأمانة؟.

8. واجب الفرد: لا أحد معفو من الرسالة

في سورة يس، يروي الله قصةَ قريةٍ أرسل إليها لا رسولًا واحدًا، بل ثلاثة رسل. ومع هذا التركيز الاستثنائي للهداية، قابلهم أهلها بالرفض، والسخرية، والتهديد.

وفي هذه اللحظة الحاسمة، ظهر رجلٌ لم يأتِ من مركز السلطة أو النفوذ، بل من أقصى المدينة. وحين سمع الحق، رفض أن يلتزم الصمت.

وقد يظن المرء أن وجود ثلاثة رسل يجعل صوت رجلٍ عادي أمرًا غير ذي أهمية. لكنه أدرك حقيقةً عميقة: عندما يُحاصَر الحق في القمة، فلا بد أن ينبعث من داخل المجتمع نفسه. لم يقل: «أنا لست مؤهلًا». ولم يقل: «هناك من هو أقدر مني». بل انطلق مسرعًا.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (20) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (22) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ (23) إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (24) إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ (يس 20-25)

فردَّ أهل القرية بالعنف وقتلوه. غير أن القرآن يكشف شيئًا استثنائيًا عن قلب المؤمن الصادق:
﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ (يس 26-27)

حتى بعد قتله، لم يكن همُّه الانتقام. بل كانت هدايتهم.

تُرسي هذه القصة مبدأً خالدًا: تبليغ الرسالة ليس حكرًا على الأنبياء والعلماء والمتخصصين. بل هو مسؤولية كل مؤمن.

يقول الله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ (يوسف 108)

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم الحد الأدنى في متناول الجميع:
"بلّغوا عني ولو آية." (البخاري)

لم يكن الرجل في سورة يس رسولًا، لكنه كان حاملًا للرسالة. قصته تُثبت أن الإخلاص يفوق المكانة والشجاعة تفوق المؤهلات. كل مؤمن يقف عند مفترق طرق: الصمت أو الركض نحو الحق. والتاريخ يُغيِّره من يركضون.

9. العلماء: علماء الخلق

كثيرًا ما تُفصل الثقافة الحديثة "علماء الدين" عن "علماء العلوم" كأنهما عالمان فكريان لا صلة بينهما. غير أن القرآن يُقدِّم رؤيةً موحَّدة للمعرفة: دراسة الوحي ودراسة الخلق مسلكان متكاملان لمعرفة الله. في سورة فاطر، يربط الله مباشرةً بين مراقبة العالم الطبيعي والعلم الحقيقي:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر 27-28)

قبيل تحديد من هو العالم الحق مباشرةً، يلفت الله الأنظار إلى:

- **علم الأرصاد الجوية والنباتات :**دورة المطر والتنوع النباتي.
- **الجيولوجيا :**التركيب المعدني والطبقات الجبلية.
- **الأحياء والحيوان :**التباين في الحياة الإنسانية والحيوانية.

يضع القرآن هذه الملاحظات العلمية بوابةً للفهم بمن يُؤهَّل بالعالِم الحق.
دقة لغوية:
تتضمن عبارة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ بنية نحوية مقصودة.

في الترتيب العربي الاعتيادي: فعل - فاعل - مفعول به.
هنا قلب القرآن الترتيب: فعل - مفعول به (الله) - فاعل (العلماء).

مع وجود "إنما" التي تُفيد الحصر، تُنتج هذه البنية حصرًا انه فقط من أفضت معرفتهم إلى الله بناء على دراسة خلقه ينالون الخشية الحقيقية.

وينتج عن ذلك تعريفٌ مزدوج:

- العلماء الحقيقيون هم الذين يزيدهم العلم خشيةً لله وتعظيمًا له.
- أما من لا يُثمر علمُه خشيةً، فإنه لم يبلغ بعدُ المعنى القرآني الحقيقي للعلم، مهما حمل من شهاداتٍ أو ألقاب.

إعادة تعريف الخشية:

الخشية كثيرًا ما تُترجَم "خوفًا" لكن معناها الأعمق هو الإجلال الناجم عن الفهم. إنه ما يُحسُّه الإنسان حين يواجه التعقيد والدقة والاتساع الساحق فى خلق الله ، سواء في المجرات أو الأنظمة البيئية أو التراكيب الجزيئية .وأكَّد النبي صلى الله عليه وسلم هذه العلاقة بين العلم والخشية:
"والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية." (البخاري ومسلم)

العلم لا يُضخِّم الأنا، بل يُهذِّبها ويُخضعها للتواضع

وفي الإسلام، يمكن للمجهر والتلسكوب أن يتحولا إلى أداتين من أدوات العبادة. فالعالِم الحقيقي يقرأ كتابين في آنٍ واحد: كتاب الوحي، وكتاب الخلق. ومن كليهما يخرج بالنتيجة نفسها: الله أكبر.

10. لعنة الجشع: لماذا سقطت مملكة سبأ

تُعَدُّ قصةُ قوم سبأ واحدةً من أعمق الدراسات القرآنية للعلاقة بين الثروة، والشكر، والعدالة الاجتماعية. فلم تكن سبأ مجتمعًا فقيرًا أو متعثرًا، بل كانت حضارةً بلغت ذروة النجاح، جمعت بين البراعة التقنية والموقع الاستراتيجي المتميّز.

وقد منحهم الله نعمتين استثنائيتين.:

- **التفوّق التقني:**
شيَّدوا سدَّ مأرب الشهير، ذلك الإنجاز الهندسي الذي نظَّم السيول الموسمية وحوَّل الأرض الجافة إلى جناتٍ وارفة: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (سبأ 15)
ولم يكن رخاؤهم وليد الصدفة، بل ثمرةَ علمٍ، وتخطيطٍ، وتيسيرٍ من الله.

- **البنية التحتية والأمن:**
فعلى خلاف أممٍ أخرى كان السفر فيها محفوفًا بالمخاطر، أنعم الله على سبأ بشبكةٍ من القرى الظاهرة المتقاربة الآمنة:
﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ (سبأ 18)
فكان التِّجار يسافرون بأمان، والتنقل يسيرًا، والرخاء متاحًا للجميع.

غير أن سقوط سبأ لم يكن بسبب الفقر، بل بسبب الجشع. فحين أصبحت التجارة سهلةً وميسّرة، بدأ الأثرياء يضيقون بأن عامة الناس صار بإمكانهم المشاركة في الحياة الاقتصادية. لقد أرادوا الاحتكار لا الازدهار المشترك. ومن منطلق الاستعلاء الأناني قالوا:
﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ (سبأ 19)

ولم يكن هذا طلبًا لوجستيًّا عابرًا، بل مطلبًا طبقيًّا واضحًا. لقد أرادوا من الله أن يُفكِّك البنية التحتية العامة حتى لا يقدر على السفر، والتجارة، والفرص إلا الأغنياء وحدهم. فضَّلوا اقتصادًا نخبويًّا ضيقًا على رخاءٍ واسع يشمل الجميع.

وحين يبدأ مجتمعٌ في تمني المشقة للآخرين، فإنه يكون قد وقَّع بنفسه شهادة هلاكه.

فجاء الرد الإلهي على مستويين:

- **الانهيار المادي :**انهار سد مأرب الكبير وجاء سيل العَرِم، فتحولت الأرض الخصبة إلى أرضٍ جدباء.
- **التفكك الاجتماعي :**﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ (سبأ 19)

فتحولت حضارةٌ كانت تتحكم في طرق التجارة إلى مجرد قصةٍ تُروى للعبرة.

ثم تختم الآية بتذكيرٍ بالغ القوة:
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ (سبأ 19)

فالمشكلة لم تكن يومًا في الثروة نفسها، بل في الشكر. ولهذا يعرض القرآن نموذجًا مضادًّا في آل داود:

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ (سبأ 13)
فالشكر ليس شعورًا سلبيًّا عابرًا، بل عملٌ منتج ومسؤولية عملية. وله خمسة أبعاد رئيسية:

1. **الإقرار :**إدراك أن كل نعمة مصدرها الله .
2. **التوظيف :**استخدام النعمة في طاعة الله وخدمة خلقه .
3. **ترتيب المحبة :**أن يكون حبُّ المُنعِم أعظم من حب النعمة نفسها .
4. **التواضع :**النظر إلى النعم باعتبارها مسؤولية لا سببًا للتفوّق والاستعلاء .
5. **دوام الحمد :**بقاء القلب متعلقًا بالله في الرخاء والشدة معًا .

ثم تختم الآية بحقيقةٍ تهزُّ القلب:
﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾

وهذه القِلَّة ليست أمرًا يُخشَى، بل مقامًا ينبغي أن يُطلَب ويُسعى إليه.

إن سبأ لم تسقط لأنها كانت ضعيفة، بل لأنها أرادت للآخرين أن يعانوا. فعندما تتوقف الثروة عن التداول، تتوقف المجتمعات عن التنفس. وحين يموت الشكر، تموت الحضارات معه.

خاتمة

تتلاقى الجواهر المستخلصة من هذا الجزء حول حقيقةٍ واحدةٍ عميقة ومغيِّرة للحياة: أن الإنسان مخلوقٌ ذو إمكانات هائلة، وقد أُودِعت في عنقه أمانةٌ لا تقل عظمةً عن تلك الإمكانات.

فمن خلال قصة قوم سبأ ونموذج آل داود، رأينا أن الحدَّ الفاصل بين الانهيار الحضاري والفضل الإلهي ليس مقدار ما يملكه المجتمع من ثروة، بل الشكر: ذلك الامتنان الواعي الفاعل الذي يُحسن به الإنسان

إدارة ما أُوتي من نعم. وتعلَّمنا أن العلم الحقيقي لا يُقاس بالشهادات والألقاب وحدها، بل بالخَشية التي تنشأ حين يُدرك العقل آثار الخالق المودعة في صفحات الخلق.

وفي نهاية المطاف، تعود رحلة هذا الجزء بالأمانة إلى الفرد نفسه.

فكما في قصة الرجل الذي جاء يسعى من أقصى المدينة في سورة يس، وكما في المؤمن الذي يقف منفردًا أو مع غيره ليتفكر أمام الله، تأتي الرسالة واضحةً لا لبس فيها: أنت المؤتمن على الحق في حياتك أنت.

وأن تحيا مؤمنًا على هدي الجزء الثاني والعشرين يعني أن تصبح إنسانًا:

- يُدرك ما مُنِح من طاقاتٍ روحية وجسدية فريدة.
- يقيس القيمة بالأعمال لا بالشعارات.
- يُقدِّم طاعة الله على ضغوط المجتمع.
- لا يخشى لوم الناس في طلب مرضاة الله.
- ويسعى أن يكون من القلة الشاكرة التي تحفظ النعم وتُنمِّيها.

نسأل الله أن تجعل هذه الجواهر الثلاث عشرة قلوبنا أكثر نورًا وبصيرة، وأن تُعيننا على رؤية العالم لا كسلسلةٍ من المصادفات العمياء، بل كتابًا واسعًا مفتوحًا من الآيات والدلالات، يدعونا للعودة إلى ربنا بقلوبٍ سليمة.

جواهر الجزء الثالث والعشرين: الإيمان تحت الابتلاء والقوة في الأمانة والطريق إلى الله

(يس 36: 28 - الزمر 39: 31)

مقدمة

يستكشف الجزء الثالث والعشرون الإيمان تحت الضغط: ضغط الرفض، والمعاناة، والسلطة، والمسؤولية الأخلاقية، والصراع الداخلي. وعبر آياته، يُرسِّخ الله مبدأً محوريًّا: أن الإنسان مسؤول عن السعي والاستقامة، لا عن التحكم في النتائج. أما الهداية، والشفاء، والفلاح النهائي، فهي بيد الله وحده.

وفي قلب هذا الجزء تقف سورة ص، حيث تُعرَض حياة الأنبياء داود، وسليمان، وأيوب عليهم السلام بوصفها دروسًا مترابطة. فكل نبي يواجه نوعًا مختلفًا من الابتلاء: السلطة، أو المرض، أو الفقد، أو ثقل المسؤولية، غير أنهم جميعًا يجتمعون على خُلُقٍ واحد: دوام الرجوع إلى الله والإنابة إليه. وتكشف هذه القصص أن الصلاح لا يتحدد بالظروف التي يمر بها الإنسان، بل بكيفية استجابته حين يُبتلى.

كما يؤكد هذا الجزء على الكيفية التي ينبغي أن يُتعامل بها مع القرآن نفسه. فالأمر بالتدبر يدعو المؤمن إلى التأمل العميق، والتفكير الواعي، واختيار الأحسن. ووفق المنظور القرآني، فإن الذكاء الحقيقي ليس تقليدًا أعمى، ولا اندفاعًا عاطفيًّا منفلتًا، بل خضوعٌ بصيرٌ تهديه هداية الوحي.

وتحتلُّ كذلك قضيةُ تصفية العبادة وإخلاصها مكانةً مركزية في هذا الجزء. فالله يعلن أن الدين له وحده، بلا وسطاء، ولا نياتٍ متفرقة. ويصبح الإخلاص الميزان الذي تُقبل به الأعمال أو تُرد.

وفي الوقت نفسه، يفتح هذا الجزء باب الرجاء على مصراعيه: فلا تيأسوا من رحمة الله. فما من فشلٍ يُعدُّ نهايةً حتمية، ولا من نفسٍ بلغت من البعد حدًّا يمنعها من العودة إلى ربها.

1. نِعَمٌ إلهية يغفل عنها كثير من الناس

كثيرًا ما يلفت القرآن الأنظار إلى نعم عميقة تُحيط بنا باستمرار حتى يُخفق كثير من الناس في ملاحظتها. ومن أبرزها: نمو النباتات والأشجار والثمار، مصادر الرزق التي لا تستمر الحياة الإنسانية بدونها. ويقوم هذا كله على هبتين إلهيتين: الأرض التي تتلقى البذور وتُغذِّيها، والمطر الذي يُنزل لإحياء التربة الجافة. ولأن هذه النعم تصل يوميًّا دون جهد ظاهر منا، كثيرًا ما يُسلَّم بها ويُتعامل معها بوصفها أمرًا مألوفًا بدلًا من أن تُدرَك معجزاتٍ مستمرة جديرة بالشكر.

وعلى ما وراء دورها في التغذية الجسدية، فإن إحياء الأرض الجرداء يُشكِّل صورةً روحيةً بالغة العمق .فكما يُحيي المطر التربةَ الجافة اليابسة ويُخرج ما اختفى تحتها، سيُحيي الله الإنسان من قبره يوم القيامة.

والقرآن يربط عمدًا بين مشهدين: إحياء الأرض وبعث الأموات، ليُوقظ شكر النعمة الإلهية ويُنبِّه إلى الآخرة:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ (33) وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ (34) لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ (يس 36: 33-35)

في الآية 35، تحمل كلمة "ما" الصغيرة عمقًا لافتًا، إذ تُتيح معنيين متكاملين في آن:

- **بمعنى النفي" :**وما عملته أيديهم"، مُؤكِّدةً أن أصل الحياة والنمو والرزق لله كليًّا، خارج قدرة الإنسان وسيطرته.
- **بمعنى الإثبات" :**وما عملته أيديهم"، مُشيرةً إلى المنتجات التي يصنعها الإنسان من هذه الثمار كالعصائر والزيوت والمربيات وسائر الأطعمة، مستخدمًا المهارات والمعرفة والذكاء التي منحه الله إياها.

بكلمة واحدة، تستوعب الآية البُعدين كليهما: الله هو خالق النعمة في أصلها، والإنسان وكيل ثانوي يُعالج ما وهبه الله وينتفع به. إنه مثال بارز على كيفية فتح حرف لغوي صغير في عربية القرآن طبقات متعددة من المعنى في عبارة واحدة.

وثمة سمة فنية دقيقة أخرى في القرآن تتجلى في أنماطه الحرفية المتماثلة: التراكيب التي تُقرأ بالاتجاهين، ولا سيما في الآيات التي تصف الحركة الدائرية أو المستمرة. وتحدثًا عن مدارات الشمس والقمر الدقيقة، يقول الله:
﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ (يس 36: 40)

عبارة ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ﴾ مؤلفة من حروف تُشكِّل تسلسلًا متناظرًا (ك ل ف ي ف ل ك). وكما تسبح الأجرام السماوية في دوائر متواصلة وتعود إلى نقطة انطلاقها، تعود الحروف أيضًا على نفسها، عاكسةً بشكل خفي فكرة الحركة الدائرية المودَعة في الآية.

وتظهر نمط مماثل في الأمر في سورة المدثر: ﴿رَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ (المدثر 74: 3)
هنا أيضًا تُشكِّل الحروف (ر ب ك ف ك ب ر) بنيةً متناظرة. وهذه الأنماط ليست فضولًا أسلوبيًّا وحسب؛ بل يتردد صداها مع معاني الآيات ذاتها: الدورات والاستمرارية والعودة ومركزية عظمة الله. وهكذا تُعزِّز الصياغة اللغوية للقرآن رسالته، داعيةً المؤمن إلى التأمل ليس فقط في المضمون بل في الدقة والتناسق اللذين يُعبَّر بهما.

2. لأنعام: خلقٌ مُهيَّأ بعناية

آيتان قرآنيتان تُوحيان بأن خلق الأنعام متميز بصورة خاصة عن بقية الحيوانات. وتُشيران معًا إلى إنشاء إلهي فريد لها، مختلف عن سائر المخلوقات التي يبدو أنها خُلقت على الأرض وربما مرت بمراحل تطور بيولوجي متعددة.

يقول الله في سورة يس:
﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس 71-73)

الصياغة هنا لافتة. تُوصَف الأنعام بأنها مخلوقة مما عملت "أيدي" الله، وهي صياغة لا تُستخدَم لسائر الحيوانات، وبأنها مُذلَّلة عمدًا لخدمة الإنسان. ودورها يشمل التنقل والغذاء والمنفعة والإمداد، وكلها مُقدَّمة أسبابًا للشكر.

وتتعزز هذه الخصوصية في سورة الزمر:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر 6)

استخدام الفعل "أنزل" في حق الأنعام لافت بصفة خاصة. حين يتحدث القرآن عن البشر لا يستخدم "أنزل"؛ بل يستخدم "اهبطوا"، وهو مصطلح مرتبط بالابتلاء الأخلاقي والمسؤولية والاختبار الأرضي. في المقابل، "أنزل" محجوز في العادة للكيانات التي تنشأ في نطاق أعلى وتُهبَط على الأرض بفعل إلهي مباشر. واستعراض استخدامات القرآن يُظهر أن "أنزل" تُطبَّق على ست فئات عريضة: الوحي والملائكة والمطر والإمدادات الإلهية والنعم كالسكينة والمن والسلوى والمائدة المُنزَّلة لعيسى والأنعام والحديد. ومن بين هذه الفئات، الأنعام والحديد بارزتان لأن "إنزالهما" لا يكون واضحًا في معناه المادي المباشر مما يفتح هذا التعبير بابًا لتأمل أوسع.

وتكشف هذه الآيات مجتمعةً عن تهيئة إلهية مقصودة للأنعام. فهي لا تُقدَّم مجرد كائنات بيولوجية، بل كائنات حاملة آيات: مخلوقة ومُذلَّلة ومُعطاة للبشرية من أجل البقاء والتغذية والتأمل.

وهذه المكانة الفريدة تُساعد في استيعاب تهديد الشيطان المذكور في سورة النساء:
﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء 119)

الترجمة الشائعة لـ﴿يُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ بـ"يشقُّون آذان الأنعام" ممكنة لغويًّا، لكنها تبدو محدودة في العمق التفسيري. فشق الآذان والوسم الجسدي للحيوانات ممارسات بشرية واسعة الانتشار، ولا تبدو وحدها تحمل الثقل الدينى العميق الذي تُوحي به الآية.

وكثيرًا ما ربط المفسرون الكلاسيكيون هذه العبارة بعادات ما قبل الإسلام كالبحيرة وغيرها، ممارسات رُفضت صراحةً في القرآن:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ (المائدة 103)

ومع صحة هذا السياق التاريخي، فقد لا يستنفد معنى الآية. فالفعل "بتَّك" يدل على القطع التام من الجذر. مما يُوحي بأن تهديد الشيطان يتحدث عن شيء أشد جذريةً من مجرد شق جسدي.

فضلًا عن ذلك، كلمة "آذان" لا تعني "آذانًا" فحسب. فلغويًا تدل أيضًا على "الإعلان" أو "الإخبار"، كما في أذان الصلاة. وبقراءتها بهذا الأفق الدلالي الأوسع، يتكشَّف معنى أعمق.

وفق هذه القراءة، يُهدِّد الشيطان بحمل البشر على قطع أنفسهم عن رسالة الأنعام: عن الإعلان الذي تحمله شاهدةً على القدرة الإلهية الخالقة والرحمة والعطاء المقصود. ومن الممكن أن يُشير ذلك إلى: "ولآمرنهم فليقطعنَّ إعلان الأنعام (بوصفها آيات لخلق الله ورحمته)".

يتوافق هذا التفسير مع الآيات السابقة التي تصف الأنعام بأنها مخلوقة بـ"أيدي" الله و"أُنزلت" هبةً وآية. فهدف الشيطان إذن لا يقتصر على تعديل الحيوانات جسديًّا، بل يمتد إلى تشويه كيفية إدراك البشر للآيات المودَعة في الخلق والاستجابة لها.

والتاريخ يبدو أنه يعكس هذا النمط. فبدلًا من الاعتراف بالأنعام آياتٍ تُشير إلى الخالق، رفعت كثير من الحضارات الأنعامَ إلى مكانة مقدسة أو شبه إلهية. فالأبقار أدَّت أدوارًا دينية محورية في مصر القديمة واليونان والرومان وبعض الممارسات الإسرائيلية، ولا تزال موضع تقديس في الهندوسية والجينية وبعض اتجاهات البوذية. وفي كل حالة، يُحوَّل الإخلاص من الله إلى المخلوق ذاته: وهو بالضبط ما يبتغيه الشيطان.

وفي هذا الإطار، تعمل ممارسة الأضحية الإسلامية، ولا سيما في الحج وعيد الأضحى، تصحيحًا مباشرًا. فالأضحية تُؤكِّد أن الأنعام ليست مقدسة في ذاتها؛ بل هي هدايا مُكرَّمة من الله لتُستخدَم في طاعته. والادعاءات بإحلال الصدقة المالية كليًّا محل الأضحية تُغفل هذا البُعد الرمزي والديني العميق. فقد عاش الفقراء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك مارس الأضحية وأمر بها. ولم يُجسِّد أحد رحمةً بالحيوانات أعظم من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك أقام هذه الشعيرة.

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
"ما عمل ابن آدم من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليُؤتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض، فطِيبوا بها نفسًا." (الترمذي، ابن ماجه)

وفضلًا عن دلالتها الروحية، تُشكّل الأضحية أيضًا آلية فاعلة للتداول الاقتصادي، إذ تدعم منتجي المواشي والتجار وتوزيع اللحم، وكثيرًا ما توجّه الموارد من المجتمعات الحضرية الأغنى إلى الريف الأفقر.

من المنظور القرآني ، الأنعام مخلوقة بصورة فريدة، مُنزَّلة عمدًا، منسوجة بعمق في بقاء الإنسان وصحته واقتصاده ووعيه الروحي. دورها مقصود لا عرضي، آية حية على قدرة الله ورحمته وعنايته. وتهديد الشيطان يُفهَم على هذا الأساس محاولةً لقطع البشرية عن الرسالة المودَعة في هذه الآية. والشعائر الإسلامية المتعلقة بالأنعام، ولا سيما الأضحية، تستعيد ذلك المعنى وتصونه، مُرسِّخةً علاقة الإنسان بهذه المخلوقات في إطار التوحيد والشكر والطاعة.

3. الإحسان: الإرث النبوي للتميز

في سورة الصافات، يسرد الله قصص عدد من الأنبياء: نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس عليهم السلام. ورغم اختلاف مهامهم وظروفهم وابتلاءاتهم، سمة واحدة محددة تجمعهم: سمة الإحسان.
وبعد وصف كفاحاتهم ونصرهم في نهاية المطاف، يختتم الله كل سرد بإعلان متكرر:
﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (الصافات 37: 80، 110، 121، 131)

هذا التكرار مقصود. يصنع نمطًا إيقاعيًّا يعمل توجيهًا خالدًا لكل مؤمن. فبالجمع المستمر بين "السلام" ومكافأة الإحسان، يُعلّم القرآن أن السلام، والكرامة الإلهية، والإرث الخالد ليست هبات عشوائية؛ بل النتيجة الطبيعية لحياة متصفة بالتميز.

يقول الله عن نوح عليه السلام:
﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ (79) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (80) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الصافات 79-81)
﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (109) كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (110) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الصافات 109-111)
﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (120) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الصافات 120-122)
﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (131) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الصافات 130-132)

الإحسان كثيرًا ما يُترجَم بـ"التميز" أو "الإتقان"، لكن معناه أعمق من ذلك. إنه العزم على أداء كل عمل، في العبادة والشخصية والمسؤولية الدنيوية، بأحسن صورة ممكنة مع الوعي الدائم بأن الله مطّلع وحاضر.
وإرث الأنبياء يُقدِّم الإحسان منهجًا شاملًا للحياة يجمع بُعدين لا ينفصلان:

الإحسان في العبادة (الرأسي) :إتقان أعمال العبادة بالإخلاص والانتباه والإجلال. هو العبادة كأنك ترى الله، وإن لم تره فإنه يراك.

الإحسان في الخدمة (الأفقي) :صون الجمال والنزاهة والمسؤولية في التعامل مع الناس والعالم: في العمل، والأسرة، والدراسة، والإبداع، وخدمة المجتمع. سواء كنت طالبًا أو والدًا أو معلمًا أو طبيبًا أو مهندسًا أو رجل أعمال، يُحدِّد الإحسان المعيار: إعطاء الأفضل لوجه الله وحده.

لم يتميز الأنبياء لأنهم آمنوا فحسب، وإن كان الإيمان أساسهم. بل تميزوا لأنهم ترجموا الإيمان إلى عمل بأعلى جودة، جامعين بين الإيمان الراسخ والصبر والتضحية والتوكل على الله والتميز في السلوك.

حين يسعى المؤمنون إلى التميز في مسؤولياتهم اليومية، لا يكونون "منتجين" أو "متميزين" فحسب. بل يُوافقون المسار النبوي ويضعون أنفسهم في نطاق الوعد الإلهي ذاته: السلام في الدنيا وإرث الكرامة الذي يدوم بعد الموت. كما وعد الله:

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (الأعراف 7: 56)

هذه الآية تحفيز وطمأنينة في آن. في كل مرة يختار المؤمن الإحسان: في العبادة أو الشخصية أو العمل، يقترب من قرب رحمة الله الخاص.

4. النبي يونس: ابتلاء الصبر ومعجزة التعافي

حين واجه يونس عليه السلام الرفض المستمر من قومه المُرسَل إليهم، غادر قبل أن يتلقى الإذن الإلهي. ويصف القرآن هذه المغادرة بالفعل "أبق"، وهو مصطلح يُستخدَم عادةً للعبد الذي يفرُّ قبل الأوان. نشأت عجلته من سوء فهم دقيق لكنه جوهري: ظن أنه بما لم يستجب القوم بعد، قد انتهت رسالته. فنسي لحظتها أن تبليغ الرسالة مسؤولية المرسَل، بينما الهداية ذاتها لله وحده.

يقول الله:
﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (139) إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ (141) فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ (الصافات 37: 139-142)

غدت إقامته في بطن الحوت مدرسةً للصبر والتواضع. فالحوت، كائن ضخم يسير بالغريزة وحدها، أبدى في تلك اللحظة طاعةً أعظم: حمل يونسَ بأمان دون أن يؤذيه، سائرًا بحسب أمر الله تمامًا.

وما غيَّر مسار محنة يونس لم يكن الصدفة، بل علاقته الراسخة بالله. يُؤكِّد القرآن أن نجاته كانت ثمرة تسبيحه المستمر لله قبل هذه الأزمة. وهذا يُعلِّم مبدأً جوهريًّا: الذكر في وقت الرخاء يصير وسيلة نجاة في وقت الضيق.

يقول الله:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ (الصافات 37: 143-146)
حين يصف القرآن يونس عليه السلام وهو يُلقى على الشاطئ بـ"سَقِيم" (مريض منهك بشدة)، يُصوِّر حالة من الهشاشة الجسدية القصوى. فجسده عانى حبسًا مطولًا وظروفًا داخلية قاسية وجفافًا وصدمة. وفي هذا السياق بالذات، يُلفت القرآن الأنظار إلى الاستجابة الإلهية:

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ (الصافات 37: 146) "وأنبتنا عليه شجرة من يقطين".

وإن كان اليقطين يُترجَم عمومًا بالقرع، فإن الخصائص اللغوية والنباتية قد تُشير إلى أنه أقرب إلى القرع الزجاجي أو الدُّباء. وهذه التفصيلة ليست عرضيةً بالمرة. فالخصائص البيولوجية لهذه النبتة تتوافق بشكل لافت مع الاحتياجات الطبية لشخص يُعاني تضررًا جلديًّا حادًّا وجفافًا وضعفًا عامًّا.

في حالة النبي يونس عليه السلام، لم يكن اليقطين مجرد ظل أو غذاء؛ بل عمل منظومةَ شفاء إلهية متكاملة تُعالج الحماية والترطيب والتغذية والتعافي في آن.

وخلافًا لكثير من القروع الشائعة، لليقطين خصائص مميزة:

- **أوراق ناعمة مخملية :**بينما أوراق معظم القروع خشنة أو شائكة، أوراق اليقطين ناعمة تُتيح التلامس المباشر مع البشرة المتضررة دون إثارة.
- **مظلة خضراء عريضة :**تنمو النبتة بسرعة وتُنتج أوراقًا كبيرة توفر ظلًّا فوريًّا تحمي البشرة الهشة من الشمس الساحلية القاسية.
- **طرد طبيعي للحشرات :**تحتوي الأوراق على مركبات تطرد الذباب والحشرات، مُكوِّنةً منطقةً معقمةً طبيعيةً حول البشرة المفتوحة أو الحساسة، وهي حماية أساسية في بيئة رطبة ساحلية.
- **أسلوب نمو منعش :**أزهارها البيضاء تتفتح عند الغسق أو الليل، كاشفةً عن نبتة تُفضِّل الظل والبرودة لا الشمس الحارقة.

من خلال هذا التوفير الدقيق، تُجسِّد القصة مبدأً عميقًا: رحمة الله ليست روحيةً فحسب بل متناسبة بدقة مع الواقع الجسدي. فالتعافي، كالهداية، هبة إلهية، لكنها تصل عبر وسائل ملائمة تمامًا لحال العبد.

فقصة يونس عليه السلام تُقدِّم منهجًا خالدًا: صبرًا في أداء الواجب، وتواضعًا عند الخطأ، ودوامًا على الذكر، وثقةً كاملة بحكمة الله. وحين تجتمع هذه المعاني، تتحول حتى أشد المحن إلى أبوابٍ للتجدد، والشفاء، والنجاة فوق ما يتوقع الإنسان.

5. التفاعل مع القرآن: أمر التدبُّر

يُؤكِّد الله أن القرآن كتاب مبارك واضح، نزل ليس للتلاوة وحسب بل ليُفهَم ويُتأمَّل ويُعاش. وأي سعي نحو المعرفة الراسخة السليمة لا بد أن يبدأ بالتفاعل المقصود مع القرآن عبر التدبُّر. يقول الله:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص 38: 29)

في جوهره، التدبر هو التأمل المتعمق الذي ينظر إلى دُبُر الآية: أي إلى أثرها فيما بعد التلاوة، وكيف تُعيد تشكيل الاعتقاد والسلوك والعمل. قراءة القرآن دون تدبر كأكل دون هضم: الغذاء موجود لكن لا قوة حقيقية تتولَّد. ولكي يوجِّه القرآن السلوك لا بد أن تتغلغل معانيه في القلب والعقل أولًا.

يمكن النظر إلى التدبر من بُعدين متكاملين، روحي وفكري، مع بُعد ثالث أكثر تقنية يختص به أهل اللغة المتخصصون.

التدبر الروحي: إشراك القلب
يُحوِّل التدبرُ الروحي تلاوةَ القرآن إلى حوار حي مع الله. في متناول كل مؤمن بصرف النظر عن خلفيته الأكاديمية، وهدفه ليس المعلومة بل التحول. هنا تصير الآيات دعاءً شخصيًّا ومرآةً أخلاقية.

- **طلب الخير :**حين يصادف آياتٍ تصف الصالحين أو نعيم الجنة، يتوقف المؤمن ويدعو: "اللهم اجعلني منهم".
- **طلب الحماية :**حين يقرأ عن النفاق والكبر والعقاب، يلجأ إلى الله قائلًا: "اللهم إني أعوذ بك من هذه الصفات ومن عذابك".
- **الشكر على الخلق :**حين يُشير الله إلى آياته في الخلق: المطر والنجوم والجبال أو النفس الإنسانية، يستجيب القلب بالحمد والشكر على الإذن بالتعرف على الواحد وراء هذه الآيات.

في هذا الأسلوب، المؤمن في دعاء متواصل، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء بأنه مخ العبادة. روى النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾." (أحمد في المسند، البخاري في الأدب المفرد)

من خلال التدبر الروحي، يتوقف القرآن عن كونه نصًّا بعيدًا ويصير تجربةً حية تقود القلب لحظةً بلحظة.

التدبر الفكري: إشراك العقل
إن كان التدبر الروحي يُليِّن القلب، فالتدبر الفكري يُهذِّب العقل. يَتعامل مع القرآن بوصفه الإطار الأمثل لفهم الواقع: أخلاقيًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا. ويستلزم هذا النوع تحليلًا دقيقًا واتساقًا داخليًّا وضبطًا منهجيًّا.

نقطة انطلاق جوهرية: يجب أن تُفهَم مصطلحات القرآن كما عرَّفها الله لا كما تستخدمها الثقافة أو اللغة العامة. كل حقل متخصص يعمل بلغة تقنية خاصة، ومغالطة التعريفات تُفضي إلى أخطاء.

المبادئ الثلاثة الحاكمة للتدبُّر

لتفادي القراءات الذاتية أو المجزأة، يسير التدبر الفكري وفق ثلاثة مبادئ حاكمة. وهذه ليست تقنيات اختيارية؛ بل ضمانات تحمي القارئ من التشويه.

1. الاستخلاص الموضوعي (ماذا يُرسِّخ الله؟)
كل آية تهدف إلى تأسيس مبدأ لا مجرد نقل معلومة.
- ما القانون الكوني أو الحق الأخلاقي أو الهداية التي تُقرِّرها الآية؟
- ما الاعتقاد أو الموقف أو العمل الذي يدعوني الله إلى تبنيه أو هجره؟

دون استخلاص المعنى الموضوعي، ينهار التدبر في انطباع شخصي لا هداية إلهية.

2. الاتساق الداخلي (كيف تتناسب هذه الآية مع القرآن كله؟)
القرآن يُفسِّر نفسه. لا آية تقف وحيدة.
- هل تُقيِّد آيات أخرى في الموضوع ذاته العبارةَ العامة أو توضِّحها؟
- هل يتوافق هذا التفسير مع الأسس القرآنية الراسخة: عدل الله المطلق وحكمته ورحمته؟
- هل يصون كرامة الأنبياء وشرفهم ممن اختارهم الله وطهَّرهم؟

أي قراءة تتعارض مع الأسس القرآنية تُشير إلى خلل في الفهم لا في الوحي.

3. قانون السياق (لماذا قيل هذا هنا وبهذه الطريقة؟)
المعنى لا يتولَّد من الكلمات وحدها بل من موضعها أيضًا.
- كيف تُشكِّل الآيات السابقة واللاحقة الرسالة؟
- لماذا تختتم الآية بهذه الأسماء أو الصفات الإلهية بالذات؟
- لماذا اختيرت هذه الكلمة بالذات دون مقاربة لها؟ فكل اختيار قرآني يحمل ظلالًا دقيقة من المعنى تناسب السياق.

تجاهل السياق يُحيل التدبر إلى تكهنات كلمة بكلمة لا فهمًا متماسكًا.

وموضع أمر التدبر في سورة ص دال بذاته. إذ تحتوي السورة سرديات عميقة عن داود وسليمان وأيوب عليهم السلام: روايات سهل سوء فهمها حين تُقارَب بصورة سطحية. والتدبر الفكري ضروري هنا للتوفيق بين هذه السرديات وشرف الأنبياء وحكمتهم وطهارتهم الثابتة، وتفادي التفسيرات التي تنسب إليهم الظلم أو الغفلة أو الإخفاق الأخلاقي.

وهكذا فأمر ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ليس نظريًّا؛ بل متطلب عملي للتفاعل مع السرديات القرآنية المعقدة بتواضع وانضباط وإجلال.

ومن خلال تكامل التدبر الروحي والتدبر الفكري، يُتيح المؤمن للقرآن تشكيلَ قلبه ورؤيته للعالم معًا، مُوفِّيًا الغرض الذي أُنزل هذا الكتاب المبارك لأجله.

6. إرث النبي داود: القوة والصبر وحدود السلطة

في سورة ص، يُقدِّم الله صورةً مميزة للنبي داود عليه السلام: رسول مُنح النبوةَ والحكمةَ والسلطة السياسية معًا. مملكته راسخة، وحكمه متين، وتعبُّده عميق درجةً أن الجبال والطيور سُخِّرت للتسبيح معه. يقول الله:
﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ (17) إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ (18) وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ (19) وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ (ص 17-20)

للوهلة الأولى قد يتساءل المرء: كيف يُعزِّي ذكر ملك قوي "مُشدَّد المُلك" النبيَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم في المرحلة المكية حيث لم يمتلك سلطانًا دنيويًّا وكان يواجه رفضًا متواصلًا؟ الجواب يكمن في المقطع التالي مباشرةً. وحين يُقرأ بالتدبر الفكري بعيدًا عن الإسرائيليات المُسيئة إلى نزاهة الأنبياء، تُقدِّم السردية درسًا جوهريًّا: حتى أقوى ملك لا يستطيع إكراه الناس على الإيمان أو أن يتولى القوامة على قلوبهم.

ويتكشَّف هذا الدرس في القرآن عبر أربعة مشاهد مهيكلة بعناية.

المشهد الأول: انتهاك المكان المحمي
كان النبي داود في محرابه، مكان عبادة مرتفع ومعزول، حين تسوَّرت جماعة (جمع) الجدارَ وظهروا أمامه فجأة. هذا الاقتحام المفاجئ لموضع العبادة المحمي أذهله طبيعيًّا. ثم طلبوا منه الحكم في خصومة.

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ (21) إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ (ص 21-22)

المشهد الثاني: خصومة القوامة
يعرض أحد الخصمين القضية: لـ"أخيه" تسع وتسعون نعجة وله نعجة واحدة، فطلب منه صاحب الكثرة أن يكفِّله إياها وغلبه في الخطاب.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ (ص 23)

الكلمة المحورية هنا "أَكْفِلنيها" (مشتقة من الكفالة) تعني الرعاية والولاية وتحمُّل المسؤولية لا الملكية. وقد يُفهَم من السياق أن القضية تتجاوز مجرد الجشع المادي إلى معنى أعمق يتعلق بالقوامة والتحكم، أي ادعاء أحد الطرفين معرفته بما هو أصلح للآخر.

المشهد الثالث: الحكم السريع
دون استفسار إضافي، يحكم داود عليه السلام فورًا، واصفًا المطلب بالظلم ومُلاحِظًا شيوع الاعتداء بين الخلطاء.
﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص 24)

يُخطئ بعض المفسرين خطأً جسيمًا هنا: إما بتحويل الرواية إلى مثل عن رغبة غير مشروعة مما ينتهك نزاهة الأنبياء، أو بتصوير داود ظالمًا أو متسرعًا في الحكم. كلا القراءتين يتعارض مع شهادة القرآن الصريحة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص 20)

والإدراك الحقيقي لا يتعلق بالظلم، بل بالتعرف على أن سبب الخصومة يعكس ميله الخاص: السعي بسلطته الحاسمة إلى ضم من لم يهتدوا بعد في حظيرة الإيمان، متجاوزًا إرادتهم الحرة.

المشهد الرابع: الإدراك والتوبة
يُدرك داود عليه السلام أن هذه لم تكن قضية قانونية عادية، بل ابتلاء إلهي مُرتَّب عكس ميلًا خفيًّا في قيادته: الرغبة النبيلة في تحمُّل المسؤولية عمَّن لم يهتدوا بعد، حتى حين تُخاطر هذه المسؤولية بتجاوز حرية اختيارهم.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (25) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص 24-26)

حتى الرغبة النبيلة كإرادة هداية الجميع لا ينبغي أن تتجاوز العدل أو الإرادة الحرة. الهداية تُعرَض؛ والقبول يبقى خيارًا شخصيًّا.

هذه السردية تُعزِّي النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم في كفاحه المكي مباشرةً. فشفقته على البشرية كانت عميقةً درجةً أن الله حذَّره:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء 26: 3)

إن ملكًا بقوة داود لم يستطع القوامة على كل قلب في مملكته، فلا ينبغي أن يُنهك النبيَّ الرفض. واجبه التبليغ الواضح لا الرعاية القسرية.

إرث داود في سورة ص منهج للقيادة في كل عصر: قوة دون استبداد ورحمة دون إكراه وسلطة مُقيَّدة بالتواضع وقدرة موجَّهة بالتوبة والعدل.

7. ابتلاء القوة: مرض سليمان ومملكته

تُقدِّم سورة ص النبي سليمان عليه السلام نبيًّا ملكًا وابن نبي ملك، وارثًا المسؤولية الروحية والسلطة الدنيوية معًا:
﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص 38: 30)

ورغم اتساع السلطة الممنوحة له، عرَّض الله سليمانَ لابتلاء شديد مُذِلٍّ. يصف الله هذا الابتلاء في عبارات موجزة بالغة الدلالة:
﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص 38: 34)

لا يُفصِّل القرآن التفاصيل الطبية لهذا المرض، لكن الوصف مقصود. سليمان، حاكم يُسيطر على قوى تتجاوز الطاقة البشرية، يُختزَل إلى جسد: عاجز قاعد على عرش. السلطة ظاهرة خارجيًّا لكن القدرة على ممارستها مسلوبة. يُجسِّد هذا المشهد مبدأً قرآنيًّا جوهريًّا: القوة دون السند الإلهي فارغة، والسيادة ليست ملازمة للإنسان بطبعه.

والجوهري أن سليمان لا يعترض ولا يتذمر ولا يشكك في قضاء الله. تختتم الآية بـ"ثُمَّ أَنَابَ": استجابته لفقدان القوة لم تكن ضغينةً بل توبةً وتجديدًا للتوكل على الله.

وبعد شفائه يتوجه سليمان إلى الله بدعاء لا يقبله الله وحسب بل يستجيب له بصورة لا مثيل لها في التاريخ الإنساني:
﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ (ص 35-38)".

للوهلة الأولى، كثيرًا ما يُساء فهم طلب سليمان "ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي" باعتباره رغبةً في التفرد والتفوق. غير أن التدبر الفكري يستلزم توافق أي تفسير مع مبدأين قرآنيين ثابتين:

1. الأنبياء مثل أخلاقية، محمية من الطموح المدفوع بالأنا.
2. الله لا يُقدِّر الغرور ولا يُكافئ عليه ولا يمنحه تأييدًا إلهيًّا.

يصف الله سليمان صراحةً بـ"نِعْمَ الْعَبْد" ويُؤكِّد أنه "أواب". ومنح هذا الدعاء مقرونًا بهذا الثناء يستبعد قطعيًّا أي دافع أناني.

وحين يُقرأ ضمن الإطار القرآني الكلي، يمكن فهم دعاء سليمان بوصفه نابعًا من ثلاثة دوافع مبدئية، كل منها متجذِّر في التوحيد لا الرغبة الشخصية:

1. **إقامة آية فريدة دائمة :**
ابتغى سليمان شكلًا من السلطة تعمل طبيعته في ذاتها معجزةً مستمرة. فتسخير الريح والجن وعناصر تتجاوز الطاقة البشرية حوَّل مملكته إلى دليل حي مستمر على السيادة المطلقة لله. هذه قوة لذاتها بل آية علنية لا تُنكَر تُثبِّت أن الملك لله وحده.

2. **صون التوحيد من إساءة استخدام القوة :**
بطلبه ألا يُمنَح هذا الملك لأحد من بعده، كان سليمان يسأل إغلاق هذا المستوى من السيطرة الاستثنائية بصورة دائمة. أغلق الباب أمام طغاة مستقبليين أو مدَّعين يُمكنهم توظيف السلطة الخارقة للادعاء بالألوهية أو استعباد البشرية أو إفساد الاعتقاد. وطلبه إذن حماية للتوحيد لا احتكار شخصي.

3. **أدوات للخدمة القصوى لا للحكم الشخصي:**
العناصر الممنوحة لسليمان لم تكن ترفًا. الريح أتاحت الحركة السريعة والإدارة عبر أراضٍ شاسعة؛ والجن بنوا وغاصوا وعملوا حيث عجز البشر. كانت أدوات خدمة تُتيح إقامة العدل والعبادة والنظام على نطاق مستحيل أن يبلغه غيرها. والقوة في هذا السياق وسيلة لأداء المسؤولية الإلهية لا غاية في ذاتها.

ومن هذا المنظور، تصير قصة سليمان عليه السلام درسًا عميقًا في أخلاقيات القوة. السلطة الحقيقية تبدأ بالتواضع وتُختبَر بالفقدان وتُستعاد بالتوبة ولا تُبرَّر إلا حين تُمارَس في خدمة غرض الله.

وهكذا تُقدِّم سورة ص نمطًا قرآنيًا متسقًا: تُمنَح القوة وتُسحَب وتُعاد، لا لتمجيد العبد بل لإظهار سيادة الرب.

8. ابتلاء أيوب وتعافيه: الصبر والجهد والتجديد الأخلاقي

في سورة ص، يُقدِّم الله النبي أيوب عليه السلام النموذج الأسمى للصبر في الشدة المديدة. أُصيب بمرض وخيم وفقد ثروته وعائلته. وتُشير الروايات الصحيحة إلى أن محنته امتدت سنوات طويلة. ومع ذلك، طوال هذا المعاناة الممتدة، ظل دعاؤه لله رفيعًا مضبوطًا عميق الوعي بالله:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ (ص 41)

لم يتَّهم أيوب الله ولم يحتج على القضاء. بل وصف حاله وعزا الجانب المؤلم من المعاناة إلى الشيطان، محافظًا على الأدب الكامل مع ربه. وهذا التمييز يعكس نضجًا روحيًّا: الاعتراف بالألم دون المساس بالإجلال.

استجابة الله لدعاء أيوب فورية لكنها تعليمية. فالشفاء لا يأتي بالراحة السلبية؛ بل بالجهد الموجَّه:
﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ (ص 42)

حتى في الشفاء الإلهي يُؤمَر أيوب بالفعل. الرحمة لا تنفي الجهد؛ بل تُفعِّله. الحركة الجسدية تصير بوابة التعافي الجسدي.

وباسترداد الصحة، يُعيد الله لأيوب أهله وأكثر، مُؤطِّرًا هذا الاسترداد صراحةً بالرحمة والتذكير:
﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص 43)

أما المرحلة الأخيرة من تعافي أيوب فتتعلق بوضعه المادي والتزاماته الأخلاقية:
﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ (ص 44)

هنا لا بد من الابتعاد عن التفسيرات الشعبية، ولا سيما الادعاء بأن هذه الآية تُشير إلى ضرب زوجة أيوب. مثل هذه القراءات تتعارض مع الشخصية النبوية وتتجاهل أخلاقيات القرآن وتُغفل الفقه الراسخ للأيمان الذي شرَّعه الله للكفارة لا للعنف. وكان أيوب نفسه مشهودًا له بالدقة في أداء الكفارات حتى عن غيره.

بدلًا من ذلك، يُوجِّه التدبر الفكري الأنظار إلى المصطلح الجوهري "الضِّغث". فلغويًّا الضِّغث حُزمة من عناصر متنوعة لا شيء واحد موحَّد. وفي سياق استعادة أيوب الممنهجة: الصحة ثم الأسرة ثم الرزق، لا يبرز هذا الأمر عقوبةً بل استراتيجية.

الضِّغث : يفتح هذا التعبير بابًا لتأمل يرتبط بمبدأ التنويع: تحولًا مقصودًا بعيدًا عن الاعتماد على مصدر دخل أو إنتاج واحد.

ويُفهَم هذا الأمر في سياقات اقتصادية مختلفة:

- **السياق الزراعي :**ضِغث من بذور متنوعة يُشير إلى التحول نحو التعدد الزراعي، حمايةً للرزق من الآفات أو الإخفاقات الخاصة بمحصول بعينه.
- **السياق التجاري" :**الضرب" بضِغث من البضائع يعكس تنويع المحفظة الاستثمارية، مبدأ أساسي لإدارة المخاطر في التجارة.

وفي الحالتين، يُقدِّم الله أيوب ليس الموارد فحسب بل الأسلوب: طريقة إعادة بناء الثروة بمسؤولية واستدامة. وفي الوقت ذاته يُعزِّز الله الحد الأخلاقي:

﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ "ولا تحنث".
التعافي المادي لا يُبرِّر الإخلال بالنزاهة الأخلاقية. الثروة نعمة فحسب حين تُكتسَب وتُستعاد دون انتهاك التزام أو مبدأ.

وتُختتم قصة أيوب بالكلمات ذاتها المستخدمة في حق سليمان:

﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ (ص 44)

معًا، تُقدِّم قصتا سليمان وأيوب الطيفَ الكامل للصبر: صبر حين تُؤتَمَن على قوة استثنائية (سليمان) وصبر حين تُجرَّد من كل شيء تقريبًا (أيوب). وفي كلا الطرفين، الطاقة الكاملة والعجز شبه التام، يبقى العبد الحق "أوابًا" متواصل العودة إلى الله، مُحوِّلًا كل حال منصةً للطاعة والحكمة والتوكل.

9. الدين الخالص: بلا وسطاء

يُؤسِّس القرآن شرطين لا ينفصلان لقبول الله أي عمل. أولًا: أن يُؤدَّى العمل بنية خالصة لله وحده. ثانيًا: ألا يُوضَع وسيط، لا وسيط، ولا ممثل روحي، ولا وكيل في العبادة. فكل شكل من أشكال العبادة: من دعاء وصلاة وذبح ونذر وتوكل ومحبة وخوف ورجاء، يجب أن يُوجَّه حصرًا إلى الله دون أن يُشرَك معه شيء.

يُبيِّن الله هذا الأساس بلا لبس:
﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (الزمر 2)

هنا يربط الله إنزال الكتاب بتطهير الدين مباشرةً. القرآن لم ينزل لإثراء العقل فحسب، بل لإصلاح القلب، حتى تتوجه العبادة لله وحده بعيدًا عن الرياء وابتغاء التقدير أو الاستناد إلى المخلوقين. والإخلاص يعني أن الله هو الهدف الوحيد ومصدر الأمل الوحيد والمخشي الوحيد في العبادة.

ثم يُفكّك الله الانحراف الأشد ثباتًا عن هذه النقاء: الادعاء بضرورة وسطاء للتقرب إلى الله.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ (الزمر 3)

تكشف هذه الآية سوء فهم دقيق لكنه خطير: الاعتقاد بأن الإنسان مُذنِب جدًّا أو حقير جدًّا ليتقدم إلى الله مباشرةً، وأنه لذلك لا بد من وسطاء روحيين من أولياء أو أصنام أو شخصيات مُعظَّمة. والقرآن يرفض هذا رفضًا قاطعًا. الوساطة في العبادة ليست تواضعًا؛ بل تتعارض مع التوحيد لأنها تُصرف الإخلاص عن الوحيد المستحق له.

الدين الخالص الذي يأمر به الله علاقة مباشرة غير مُتوسَّطة معه. تدعوه مباشرةً. تتوكل عليه مباشرةً. ترجوه مباشرةً. لا حاجب يعترض إلا ذاك الذي يصنعه العبد بتحفظاته الخاصة.

ولهذا يأمر الله حتى رسوله صلى الله عليه وسلم، أكرم الخلق، أن يُعلن علنًا توحيد العبادة:
﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ (11) وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (12) قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (13) قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُ دِينِي﴾ (الزمر 11-14)

إن أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعلان عن خشيته من المعصية والتزامه بالعبادة الخالصة، فلا أحد سواه يدَّعي الإعفاء. الله ذاته فتح الباب ودعا كل عبد شخصيًّا.

ولإزالة أي تردد متبقٍّ، يُذكِّر الله المؤمن بقربه:
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ (ق 16)

حين يكون الله أقرب من شريان الحياة، لا حاجة لوسيط. هو يعلم المخاوف غير المُعلَنة والندامات الصامتة والآمال المُبطَنة. يسمع الدعاء الذي لا يبلغ اللسان ويستجيب للقلب المتوجِّه بصدق.
لكن ماذا لو أخطأ ذلك القلب؟ ماذا لو تُضرِّر إخلاصه؟ ماذا لو أُهملت العبادة؟

السورة ذاتها التي تأمر بنقاء الدين تفتح فورًا أفق المغفرة غير المحدودة:
﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر 53-54)

لاحِظ العبارة: "الذين أسرفوا على أنفسهم." كل ذنب لا يُوصَف بأنه ينقص من جلال الله، والذي يظل بلا أثر، بل بأنه أذى يلحق النفس. الذنب يجرح الروح ويُبعِدها عن الوضوح والسكينة. ومع ذلك، حتى للذين أسرفوا في الخطأ، رسالة الله ليست الإدانة بل الدعوة: لا تقنطوا.

باب الرحمة لم يُفتَح جزئيًّا؛ بل يبقى مفتوحًا على مصراعيه حتى تُغلق الحياة ذاتها. والطريق العودة بسيط ومباشر، نفس المباشرة التي تُعرِّف العبادة الخالصة:

- طريقه التوبة (العودة إلى الله).
- شرطه الإخلاص.
- ثمرته التجدد.

من عبد مباشرةً لا بد أن يتوب مباشرةً. لا وسيط يحمل التوبة. ولا وليٌّ يمحو ذنبًا. الذي يأمر بالإخلاص هو ذاته الذي يغفر الذنوب جميعًا.

الدين الخالص والرحمة غير المحدودة إذن ليسا موضوعين منفصلين؛ بل حركتان في العلاقة ذاتها. العبادة مباشرة. التوبة مباشرة. القرب مباشر.

الدين الخالص لذلك ليس مجرد أداء شعيرة صحيح؛ بل القرار الواعي باختيار الله وحده غايةً قصوى، وحين يتعثَّر المرء، العودة إليه وحده، دون يأس ودون حاجز.

يعيش المؤمن بين يقينين: إخلاص مطلق في العبادة ورجاء مطلق في الرحمة. وبين هذين يجد القلب توازنه.

10. علامة الذكاء: التبصُّر واختيار الأفضل

العبد الحق لله ليس من يتبع تقليدًا أعمى، بل من يُنصِت جيدًا ويتأمل عميقًا ويختار بحكمة. ويُثني القرآن على مثل هذا الشخص بالذكاء الحقيقي: من يُفرّق بين الأصوات والأفكار والآراء ثم لا يلتزم إلا بما هو "أحسن": الأفضل والأصوب والأنفع. يقول الله:

﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ (17) ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الزمر 39: 17-18) "فبشِّر عباد (17) الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب".

تحتفي هاتان الآيتان بالوعي الفكري المتبصر: القدرة على الإنصات دون التخلي عن الحكم، والتقييم دون الغرور، واختيار ما يتوافق أكثر مع الحق والصلاح. الإسلام يُرسِّخ بذلك ما نسميه اليوم محو الأمية المعلوماتية قبل ظهور هذا المصطلح بكثير.

أولو الألباب ليسوا من يُردِّدون الرأي الشائع أو يتمسكون بالأفكار الموروثة دون تأمل. بل هم من يفحصون كل ادعاء ويزنونه في ضوء الهداية الإلهية ويستخلصون أعلى قيمه الأخلاقية والروحية. والإنصات بالمعنى القرآني ليس استقبالًا سلبيًّا؛ بل تقييم نشط يعقبه اختيار مسؤول.

في هذه الآية، يُعرِّف الله الذكاء بأنه القدرة على التدبر: التحليل الانعكاسي الذي يُفضي إلى عمل أخلاقي. القرآن لا يُعطِّل العقل، بل يُهذِّبه ويصقله. "اتباع أحسن ما قيل" يعني تنمية بوصلة داخلية قادرة على التمييز بين الحق والتشويه، وبين الاتجاهات العابرة والحكمة الخالدة.

العبودية الحقيقية لله إذن ليست طاعةً عمياء للسلطة البشرية، ولا فوضى فكرية مدفوعة بالهوى الشخصي؛ بل هي خضوع مستنير وفكر مستقل موجَّه بالوحي. مثل هذا العقل يصير ضياءً يسير به المؤمن في ضجيج الحياة، مختارًا باستمرار المسار الأرضى لله.

خاتمة

يُقدِّم الجزء الثالث والعشرون إطارًا روحيًّا متكاملًا يبدأ بالمسؤولية وينتهي بالأمل. وعبر آياته، يُعلِّم القرآن أن الإيمان يُعاش بالصبر والجهد والتبصُّر والإخلاص لا بالسلبية واليأس.

تكشف النماذج النبوية في هذا الجزء أن الابتلاءات ليست علامات هجران بل وسائل للتهذيب. يونس يتعلم الصبر وداود يتعلم حدود السلطة وسليمان يتعلم التواضع في القوة وأيوب يُجسِّد الثبات في الخسارة. وفي كل حالة، يؤدي العبد واجبه تاركًا النتائج لله.

يُعرِّف الجزء أيضًا الذكاء الحقيقي بأنه القدرة على الإنصات والتأمل واتباع الأفضل. ومن خلال التدبر يتعلم المؤمن التفاعل مع القرآن بقلب وعقل معًا، فيتحرر من التقليد الأعمى دون أن ينفصل عن هداية الوحي.

وفي جوهر الهداية كلها تقف العبادة الخالصة: مباشرة ومخلصة وغير مُتوسَّطة. لا وسيط يقف بين العبد والله، ولا عودة صادقة تُرد. وبعد اشتراط المسؤولية والوضوح الأخلاقي، ويطمئن الله كلَّ نفسٍ كافحت وجاهدت: لا تقنطوا. ما دام القلب قادرًا على العودة، فالرحمة قريبة.

الإيمان كما يُعلِّمه هذا الجزء ليس في عدم السقوط؛ بل في الإنابة الدائمة.

جواهر الجزء الرابع والعشرين: رحلة عبر النفس والكون والأمر الإلهي

(الزمر 39: 32 - فصلت 41: 46)

مقدمة

الجزء الرابع والعشرون من القرآن الكريم نسيج عميق من علم النفس الروحي و العظمة الكونية. يمتد عبر أجزاء من سورة الزمر وسورة غافر وسورة فصلت، فتربط هذه الآيات الهوة بين عالمنا الداخلي وامتداد السماوات الشاسع. في هذا الفصل نستكشف عشر جواهر: آيات بعينها تُقدِّم رؤى عميقة في طبيعة النفس ودقة الخلق والإخلاص المطلق المطلوب للتواصل مع الخالق. هذه ليست مجرد نصوص قديمة؛ بل إشارات حية مُصمَّمة لتوجيه العقل المعاصر نحو حالة من اليقين والطمأنينة.

1. الإخلاص والتفاني الخالص

يحمل الجزء الرابع والعشرون تركيزًا متكررًا على الإخلاص: التوافق الداخلي بين القلب والأفعال الظاهرة. لا تكتفي هذه الآيات بتعريف الإخلاص؛ بل تُقدِّم أداةً تشخيصية لتقييم صحة عبادتنا. ويظهر حجر الأساس لهذه الموضوعة في مطلع الجزء:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (الزمر 2)

تعريف العبادة الخالصة

تستلزم العبادة الخالصة ألا يكون بين العبد وخالقه حجاب من أحد أو شيء. يُعالج الله مباشرةً مغالطة "الوساطة" التي ضلَّل بها أهل مكة أنفسهم. وكانوا يزعمون أن أصنامهم مجرد "جسور" إلى الإلهي، لكن الله يُعرِّف ذلك قصورًا في الإخلاص وضربًا من ضروب الشرك:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ (الزمر 3)

الإخلاص ليس اقتراحًا؛ بل أمر إلهي واجب. وافتقاد الإخلاص قصور جوهري في الاعتقاد. وقد أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعلان عن ذلك مرتين تأكيدًا لخطورته:

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ (11) وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (12) قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (13) قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُ دِينِي﴾ (الزمر 11-14)

البُعدان في الإخلاص

لكي تكون العبادة كاملة لا بد أن تتجلى على وجهين:

1. **التجلي الخارجي :**طاعة الجوارح لأوامر الله بالعمل الظاهر.
2. **التجلي الداخلي :**النية الخفية في القلب التي لا يعلمها إلا الله والإنسان ذاته.

يستلزم الإخلاص الحق الانخراط الكامل للجسد والروح معًا. وكثيرًا ما يُفرَض هذا على الناس قسرًا في أوقات الشدة القصوى. فحين يواجه الإنسان أزمةً تتلاشى الصوارف السطحية ويدعو الله بتركيز كامل. غير أن القرآن يُحذِّر من "القلب المتقلّب" الذي يعود إلى الغرور حين تنقشع العاصفة:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ ۥعَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر 49)

تنمية الإخلاص بالتأمل

الإخلاص لا يتحقق في فراغ؛ بل هو ثمرة التأمل العميق في الكون. فبمراقبة نظام الخلق وجلاله يُدرك الإنسان أن كيانًا واحدًا وحده مستحق للتفاني المطلق:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ﴾ (الزمر 5)

2. علامات القلب الصادق

يُقدِّم الجزء وصفًا بديعًا للمؤمن الصادق: الاتساق في الطاعة "في آناء الليل"، والتواضع في السجود والقيام، وحالة وجدانية متوازنة قائمة على خوف صحي من الآخرة جنبًا إلى جنب مع رجاء عميق في رحمة الله.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (الزمر 9)

الإخلاص في التوبة

الإخلاص هو المفتاح الذي يفتح أبواب المغفرة. حتى من "أسرف على نفسه" يُدعى إلى العودة، شريطة أن تكون إنابته صادقة وفي أوانها:

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر 53-54)

الإخلاص في العمل: قوة الدعاء

وإن كان الإخلاص حالةً قلبية فإن أقوى تعبير عنه هو الدعاء. وفي الجزء الرابع والعشرين يُؤكِّد الله أن دعاءه ليس مجرد خيار بل متطلب جوهري للإيمان. وترك الدعاء وقوع في الكبر، وهي سمة تُفضي إلى الخراب الروحي:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر 40: 60)

ركائز الإخلاص: الصبر والاستغفار

الدعاء الصادق لا يقف وحيدًا؛ بل لا بد أن يقترن بالصبر والاستغفار. وكثيرًا ما يُختبَر الإخلاص حين يبدو الجواب على الدعاء متأخرًا. وفي هذه اللحظات يُذكَّر المؤمن بأن وعد الله حق مطلق:
﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ (غافر 55)

وبنسج هذه الآيات معًا تتشكَّل صورة متكاملة للإخلاص:

- **الجذر** :إدراك أن الدين الخالص لله وحده.
- **الأداة** :الدعاء الصادق تعبيرًا أوليًّا عن افتقارنا إليه.
- **الداعم** :الصبر والذكر الدائم لإبقاء القلب ثابتًا.

3. معجزة النوم

تُبرز هذه الآية عن النوم إحدى أكثر معجزات الله إغفالًا. ولأنه يومي نغفل كثيرًا عن غموضه الكامن. فليس في أيدينا سيطرة نهائية على نومنا؛ لا نستطيع إجباره على الحضور ولا منعه إلى أجل غير مسمى. وقد نتمدد منهكين دون أن نُحدِّد اللحظة الدقيقة للانتقال، إذ ندخل فيه ببساطة كما نستيقظ فجأة. ويُقيم القرآن تشابهًا مباشرًا بين النوم والموت، مُقدِّمًا بصيرةً عميقة في العلاقة بين الجسد والروح:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر 42)

بينما يُمثِّل الموت فراقًا دائمًا بين الجسد والروح، يُشكِّل النوم فراقًا مؤقتًا. وأثناء النوم تتحرر الروح جزئيًّا من قيود الزمان والمكان. وهذه الحالة تُيسِّر الأحلام والرؤى. فبينما كثير من الأحلام ثمرة الخيال، تُقدِّم الرؤى الحقيقية لمحاتٍ من الواقع غير المادي. وهي ليست حكرًا على الأنبياء؛ كما في رؤيا ملك مصر في

عهد النبي يوسف، إذ يمكن حتى لغير المؤمنين تلقّي هذه الإشارات. وتُثبِّت هذه التجربة قدرة الله ونسبية الزمان.

وتُقدِّم هذه الآية إطارًا لفهم طبيعة الروح. ولأن الوظائف البيولوجية الأساسية كدقات القلب والتنفس تستمر بينما تكون الروح "غائبة" أثناء النوم، يُشير ذلك إلى أن الروح لا تُدير مباشرةً الوظائف الكيميائية الكهربية للجسد.

ويمكننا الافتراض أن الله زوَّد الجسد بنظام تشغيل داخلي يُدير هذه العمليات اللاإرادية. يبقى هذا النظام نشطًا حتى يعجز العتاد الجسدي عن إسناده. وإذا كان الله وحده يستطيع "إيقاف" هذا النظام بقضائه بالموت الطبيعي، فالإنسان يستطيع التدخل فيه بالعنف. وفي هذه الحالة يُصبح الجسد عاجزًا ماديًّا عن احتضان الروح.

فما الروح إذن؟ يمكن تشبيه الروح بمثال حديث مثل الهولوغرام للانسان. وكما يحتوي الهولوغرام على بيانات الصورة ثلاثية الأبعاد بأكملها في كل جزء منه، تحفظ الروح المعلومات والذكريات والخصائص الكاملة المتراكمة خلال العمر. ويُقدِّم هذا التشبيه تفسيرًا قويًّا للبعث:

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ (التكوير 7)

في يوم البعث يصل الله الروح بجسد جديد ملائم للوجود الأبدي. ويمكن تشبيه الروح, على سبيل التقريب الذهني، بأنها تحفظ هوية الإنسان وبياناته المتراكمة، لحظة اتصالها بهذا الجسد الجديد يمتلك الفرد فورًا جميع ذكريات وهوية حياته الأرضية. ويُعزِّز القرآن هذا المفهوم المتعلق بصون الهوية عبر آيات عدة:

1. الكتاب الحفيظ :حين يتساءل المتشككون كيف يُستعادون من تراب، يُحيل الله إلى سجل بعينه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ (ق 4)

حتى وإن تفكَّك الجسد المادي، تبقى شفرة المصدر محفوظة.

2. البصمات البيولوجية الفريدة :يُؤكِّد الله دقة استعادة الفرد:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝(3) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝﴾ (القيامة 3-4)".

تحمل الروح البيانات التفريدية الدقيقة اللازمة لإعادة بناء الشخص عينه.

3. النفس شاهدة على ذاتها :يُقال للإنسان يوم القيامة:

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ (القيامة 13-14)

لكي تصح شهادة النفس على ذاتها لا بد أن تمتلك المبعوث البيانات والوعي عينهما اللذين كانا لديه في حياته الأرضية.

4. **النسخة الأصلية :**يُذكّرنا الله بأن الخلق الثاني "أهون:"

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ (الروم 27)

تكرار العملية دائمًا أيسر حين يكون المخطط الأصلي محفوظًا.

4. إعطاء الله حق قدره

تتضمن هذه الآية توبيخًا قويًّا للبشرية على قصورها في إدراك عظمة الخالق. وهي موضوعة محورية في رسالة القرآن تظهر في موضعين آخرين (الأنعام 91 والحج 74).

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (الزمر 39: 67)

دقة لغوية: القَدْر مقابل القَدَر
في العربية كثيرًا ما يلتبس لفظ "القَدْر" بمقابله المتشابه. فتشكيل حرف الدال يُغيِّر المعنى كليًّا:

- **القَدْر** (بسكون الدال): يعني المكانة والقيمة والشأن والعظمة. وهو اللفظ المستخدم في هذه الآية لوصف جلال الله العظيم.
- **القَدَر** (بفتح الدال): يُشير إلى القضاء والمشيئة والمصير.

والآية في سورة الزمر لا تتحدث عن القضاء والقدر؛ بل هي دعوة للاعتراف بعظمة الذي يقبض الكون كله في يده.

الصلة بليلة القدر

ليس من قبيل المصادفة أن يتكرر هذا اللفظ ذاته "القَدْر" (بسكون الدال) ثلاث مرات في سورة القدر (97) لوصف ليلة القدر.وعظمة تلك الليلة مصدرها نزول القرآن: كتاب أُنزل لكي تعرف البشرية الله وتُعطيه حق قدره. والغاية القصوى لكل وحي هو تعليمنا كيف نُجلّ أوامره و ونقدس حضوره، لأنه يرى كل ما نفعل ويسمع كل ما نقول ويعلم كل ما نُضمِر.

تأمل في رمضان

يسعى كثير من المسلمين إلى الفوز بعظيم بركات ليلة القدر في رمضان، غير أن رسالة القرآن أعمق بكثير من ليلة واحدة مكثَّفة من العبادة. فشعائر الصيام والصلاة ليست غايات في ذاتها، بل أدوات مُصمَّمة لتطهير القلب والعقل وتجريدهما من صوارف الدنيا كي نبني تدريجيًّا إدراكًا حقيقيًّا لعظمة الله الحق. والتركيز في هذه الليلة على طقوس مع إهمال العمل العمري الذي يطالب به القرآن فعلًا هو بالضبط الإخفاق الذي يُحذِّر منه القرآن مرارًا في الأنعام والحج والزمر. والوعد الحقيقي لليلة القدر خاص بمن يعاملون رمضان لا فرصةً سنوية لتجميع الأجر في ساعات، بل محطةً في مسيرة متواصلة من بناء قدر الله في قلوبهم. تلك المسيرة، لا الليلة ذاتها، هي ما يدعو القرآن البشرية إليه منذ أول وحي.

5. الرحلة الأخيرة: حكاية بابين

بعد إصدار الحكم بعدل مطلق، تنقسم البشرية إلى مجموعتين متمايزتين، تُقاد كل منهما نحو وجهتها الأبدية. ويكشف الوصف القرآني لهاتين الرحلتين عن تناقض نفسي وروحي عميق في طريقة استقبال هاتين الفئتين.

1. الوصول إلى جهنم: المتكبرون

للذين رفضوا الحق يكون الوصول مفاجئًا صادمًا. يُساقون جماعات نحو وجهة تبقى أبوابها مُغلقة حتى لحظة الوصول:
﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (71) قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر 71-72)

تنفتح الأبواب عند وصولهم فقط، مما يزيد رعبهم. ولا يُستقبَلون بترحيب بل باستجواب لاذع من خزنة جهنم الذين يُذكّرونهم بالتحذيرات التي تجاهلوها. ولقبهم الأخير "المتكبرون"، إذ الكبر هو ما حجب عنهم الحق.

2. الوصول إلى الجنة: المتقون

وفي تناقض بديع، رحلة الصالحين تسير في سلام وكرامة. يُقادون نحو الجنة في جماعات، لكن تجربتهم عند الباب مختلفة اختلافًا جذريًّا:
﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر 73)

عند الدخول ينفجر المؤمنون شكرًا، شاهدين أن الله وفى وعده ومنحهم ميراثًا يسكنون فيه حيث يشاؤون. ويختتم المشهد برؤية مهيبة للملائكة المحيطين بعرش الله مُسبِّحين في إعلان كوني أخير من الحمد.
المعجزة اللغوية: واو الاستئناف

تنكشف تفصيلة عجيبة حين نقارن الصياغة لهذين الوصولين، شاهدًا على دقة النص القرآني:
لجهنم (71): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾
للجنة (73): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾
إضافة "الواو" في وصف الجنة ذات دلالة بالغة. في اللغويات العربية يُشار إلى هذا بـ"واو الحال". وتُشير إلى أن الأبواب كانت مفتوحة أصلًا في استقبال المؤمنين حتى قبل وصولهم.

بينما يواجه الكافرون صدمة باب يُفتَح ليسجنهم، يجد المؤمنون بيتًا جُهِّز وفُتِح قبل وصولهم بكثير. وهذا يتسق مع سورة ص:
﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (49) جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ (ص 49-50)

الفرق بين الوجهتين ليس الموضع فحسب بل طريقة الاستقبال. فئة تواجه بابًا مُغلقًا وسؤالًا من التأنيب، وأخرى تواجه بابًا مفتوحًا وتحيةً بالسلام.

6. منظومة الدعم الملائكي

يُكشَف في مشهد ملوكي من عالم الغيب عن شرف عميق يُمنَح للمؤمن. تصف هذه الآيات الملائكة الكرام حملة العرش، أرفع المخلوقات مكانةً ، وعملهم الرائع: فهم في حالة دعاء مستمر من أجلك.
قد تشعر باليأس بسبب ذنوبك، لكن إن عدت إلى الله بالتوبة، فإن صفوة السموات تُرافعون عنك:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (غافر 7-9)

الملائكة لا يدعون لسلامتك وحسب؛ بل يدعون لذريتك. يسألون الله إدخالك جنات عدن والأكثر دلالةً إعادة لقائك بآبائك وأزواجك وأبنائك الصالحين. يكشف هذا عن المحبة الجسيمة التي يكنُّها الله للنفس التائبة: لقد كلَّف أقوى عبيده أن يكونوا وكلاءك.

ويُوضِّح الذكر البشري ويُفسِّر هذا الدعم السماوي وعلاقته بالاستجابة الإلهية. فحين تذكر الله تبدأ عملية تبادلية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا (42) هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ (الأحزاب 41-43)

"صلاة" الملائكة هي دعاؤهم لمغفرتك، فارضةً كالمنارة الروحية التي تشدُّك من ظلمة الحيرة والذنب إلى نور الهداية.

وعلاقتنا بالملائكة لا تقتصر على السماوات البعيدة. فللذين يجاهدون للثبات على الاستقامة في الطريق المستقيم، يصبح الملائكة رفقاء فاعلين مُعزِّين في أحرج لحظة في الحياة: لحظة الانتقال بالوفاة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (30) نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (فصلت 30-31)

تخيَّل لحظة مغادرة هذا العالم: بينما يتعطَّل الجسد، يظهر حلفاء من الغيب ليُزيلوا كل خوف وحزن. يُرحِّبون بالروح لا بوصفها غريبًا بل صديقًا كانوا يدعون له منذ أول لحظة توبة. المؤمن لا يكون وحيدًا قط.

7. طبيعة الوحي: خلق أم أمر؟

في عهد الخلافة العباسية (833-851م) نشأ صراع فكري محتدم حول ما إذا كان القرآن "مخلوقًا" أم الكلام الإلهي غير المخلوق. وبينما اشتغل الفلاسفة بالجدل، قدَّم القرآن ذاته توصيفًا حاسمًا: إ إن القران هو روح من الأمر الإلهي.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ (غافر 15)

التمييز بين الخلق والأمر

في المصطلح القرآني ثمة تمييز جوهري بين "عالم الخلق" الذي يشمل المادة والزمان والبيولوجيا، و"عالم الأمر" المملكة السماوية للقضاء الإلهي. وبتسمية القرآن "روحًا من أمره" يضع الله الوحي فوق قوانين الخلق المادي. وتتعزز هذه الفكرة في سورة الشورى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَـٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلۡنَـٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (الشورى 52)

"الروح" قوة مُحيية
تسمية الوحي "روحًا" صورة مقصودة وبالغة الدلالة. فكما تُحيي الروح الجسد المادي، يُحيي الوحي القلب الإنساني. فبدونه العقل أجهزة بلا نظام تشغيل.
استنادًا إلى هذه الآيات، القرآن ليس مجرد مادة مخلوقة أو كتاب تاريخي. بل هو:

- **أزلي المصدر :**صادر مباشرةً من الأمر الإلهي.
- **نوراني الطبيعة :**موصوف بالنور الذي يخترق الظلام الروحي.
- **متعالٍ :**موجود خارج قيود الزمان ليُشكِّل تاريخ البشرية.

إدراك القرآن بوصفه "روحًا من أمره" يُغيِّر طريقة تفاعلنا معه. فهو ليس نصًّا للتحليل وحسب؛ بل الجسر بين الخالق غير المقيَّد بالزمان والخليقة المقيَّدة به، مُجسِّدًا الكلمة الأزلية لله في لغة البشرية.

8. معجزة نمو النبات

من أبرز سمات القرآن عمقه اللغوي. فالآية تُفهَم بسهولة من العامة، وتكشف عن تعقيد علمي عميق حين تُفحَص بعدسة الأبحاث الحديثة. لاحظ وصف الحياة التي تنبثق من تربة جافة مُدمجة. فالأفعال المحددة المستخدمة في النص العربي تُشير إلى عمليات فيزيائية وبيولوجية معقدة تجري في تسلسل دقيق:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت 39)

لقرون طويلة كان "الاهتزاز" و"الربو" يُعدَّان صورًا أدبية. غير أن علم التربة الحديث واكتشاف الحركة البراونية (التي رصدها رايبرت براون أول مرة عام 1827م) يُقدِّمان إطارًا تقنيًّا لفهم هذه المراحل:

1. المرحلة الحركية: "اهتزَّت "تتضمن المرحلة الأولى الحركة الجسدية لجسيمات التربة عند ملامستها لمياه الأمطار. فقطرات المطر تتحرك في كل اتجاه مُصطدِمةً بجسيمات التربة المجهرية وجاعلةً إياها تهتز وتتحرك بصورة عشوائية: وهو ما يُعرَف بالحركة البراونية. وهذا "الاهتزاز" ضروري لتوزيع المعادن وإحداث الشقوق الدقيقة في التربة.

2. المرحلة الحجمية: "ربت "تُشير المرحلة الثانية إلى تمدد جسيمات التربة مع امتصاصها للماء. فجسيمات التربة، ولا سيما معادن الطين، مؤلَّفة من تراكيب طبقية رقيقة بمسافات بينها. ومع تخلل الماء بين هذه الطبقات تتمدد الجسيمات وتتضخم التربة. وهذه الخاصية حيوية لأنها تُبقي الرطوبة قرب السطح بدلًا من السماح لها بالتسرب بعمق، مما يضمن بقاء الماء في متناول الكائنات الحية وجذور النباتات.

3. المرحلة البيولوجية: الإنبات المرحلة الأخيرة هي الإحياء البيولوجي للأرض. تنبض التربة التي كانت تبدو ميتة أو خاملة بالحياة. وتُساعد الحركة البراونية على توزيع العناصر الغذائية التي تحتاجها البذور للإنبات، و"تنفتح" التربة بفضل المراحل الفيزيائية السابقة، مما يُتيح للنبات الظهور.

للعامة هذه صورة بديعة للبعث عودة الحياة لما كان ترابًا. وللعالِم هي وصف دقيق للتحول الفيزيوكيميائي لسطح الأرض، شاهدًا على الذي "يُحيي" الموتى.

9. الأرزاق المُقدَّرة

عمر الأرض نحو 4.6 مليار سنة. ومنذ نشأتها صمَّمها الله إناءً مكتفيًا بذاته. فغير أشعة الشمس، لا يصل إلى الأرض شيءٌ أساسي للحياة من خارج غلافها الجوي. وكل الموارد الازمة لحياة كل إنسان وحيوان وطائر وحشرة، من أول مخلوق إلى آخره، كان مودَعًا في أنظمة الأرض عند لحظة خلقها.

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (فصلت 9-10)

عبارة "قدَّر فيها أقواتها" تُوحي بحساب دقيق. وبالمصطلح الحديث نُسمِّي ذلك الطاقة الاستيعابية للكوكب. ويُخبرنا الله أن هذه الأرزاق لم تكن لاحقةً للتفكير؛ بل كانت "مُقفَّلةً" في مراحل الكوكب التأسيسية. وتُلمِّح عبارة "سواءً للسائلين" إلى أن الموارد صُمِّمت لتكفي مجمل "السائلين"، أي كل كائن يحتاج إلى قوت.

وتتحدى هذه الآيات تحديًّا جوهريًّا نظرية مالتوس (Malthusian theory) التي اقترحها توماس روبرت مالتوس والقائلة بأن نمو السكان سيتجاوز حتمًا الإنتاج الغذائي. وبحسب المنظور القرآني لا مشكلة قط في شُح الرزق ، بل الفشل في التوزيع. والبيانات المعاصرة تدعم ذلك:

- **الإنتاج السعري الكافي :**تُنتِج الأرض حاليًّا وفق منظمة الأغذية والزراعة (الفاو) سعرات حرارية كافية لإطعام 10 مليارات شخص، أي أكثر بكثير من التعداد الحالي البالغ 8 مليارات. نحن نعيش على كوكب وفرة لا ندرة.
- **الوصول وعدم المساواة :**يُبرز برنامج الأغذية العالمي (WFP) أن الجوع نادرًا ما يسببه عدم المساواة الاقتصادية والنزاع السياسي وإخفاقات السوق.

وكثيرًا ما يتجلى الظلم الذي يُشير إليه القرآن في احتكار هذه الأرزاق المُقدَّرة. وحين تتعدى المجتمعات على موارد مخصصة للجميع تُخل بالميزان الإلهي. فنقص الغذاء ليس إخفاقًا لقدرة الأرض؛ بل إخفاق للشخصية الإنسانية. وإدراك ذلك ينبغي أن يُلهِم الدفع نحو العدل: فإن كان الله قد وفَّر للسائلين، فواجبنا أن نضمن وصول هذه الأرزاق إلى مستحقيها.

10. البوصلة الأخلاقية للمُبلِّغ عن الله

القرآن بوصفه الرسالة الأخيرة لله يحتاج إلى وعاء بشري ليصل إلى قلوب الآخرين. غير أن الرسالة لا يمكن تبليغها بالمنطق وحده؛ بل تستلزم شخصيةً أخلاقيةً رفيعة. ولدعوة الآخرين إلى الله لا بد للمسلم أن يكون تجسيدًا حيًّا لأثر الإيمان، مُبرهِنًا على اللطف والتسامح والصبر الثابت.

يُعرِّف الله أرقى صور الخطاب الإنساني لا بالبلاغة بل بالغاية ونزاهة المتكلم:

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (فصلت 33)

تُؤسِّس هذه الآية معيارًا ثلاثيًا للداعية: الإلهام (الدعوة إلى الله)، والاتساق (عمل الصالحات)، والهوية (الانتماء بتواضع إلى الإسلام).

وأشق جوانب تمثيل الإسلام مواجهة المعارضة. ويُقدِّم الله درسًا متكاملًا في إدارة الصراع، آمرًا بالرد على السلبية بضدها:

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ (فصلت 34)

برفض مقابلة الغضب والحقد بمثليهما يكسر المؤمن حلقة العداء. وهذا اللطف الاستباقي قادر على تحويل عدو صلب إلى صديق حميم.

ويعترف الله بصعوبة هذا الكبح الذي يستلزم نضجًا روحيًّا بعينه:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ (فصلت 35)

الرد على الإهانة بالدعاء أو اللطف علامة حظ عظيم. تدل على قلب بلغ من صلته بالله غنىً جعله لا يحتاج إلى الدفاع عن أنانيته. وللحفاظ على هذه الحالة لا بد من التحرز من الوساوس الداعية إلى الانتقام:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (فصلت 36)

بالاستعاذة يتوقف المؤمن. يُدرك أن الغضب إلهاء عن مهمته، مما يُتيح له العودة إلى حالة السلام ومواصلة دعوة الآخرين بسلوكه. الشخصية هي "الدعوة الصامتة"، الاستجابة الصابرة للأذى التي تبلغ النفس وتُحوِّل الأعداء إلى حلفاء.

خاتمة

حين نتأمل هذه الجواهر العشر، تبرز موضوعة واضحة: الصلة التي لا تنفصم بين عالَم القلب الإنساني الصغير وعالَم الكون الكبير .من النظام التشغيلي البيولوجي الداخلي الذي يُدير نومنا إلى الوقف الجيولوجي الشاسع الذي يُمد مليارات البشر، يُذكِّرنا الجزء الرابع والعشرون أننا جزء من منظومة إلهية مُدارة بعناية فائقة. سواء أكانت الفروق اللغوية الدقيقة لحرف واحد يصف أبواب الجنة، أم الدعم السماوي لملائكة حملة العرش، فكل آية تدعونا للانتقال من الغفلة إلى التفكر العميق.

وتُعلّمنا هذه الجواهر في نهاية المطاف أنه حين نُعطي الله حق قدره ونتقدم إليه بقلب من الإخلاص، تُحوّل روح الأمر حياتنا قاطبةً فتنقلنا من الظلمات إلى النور.

جواهر الجزء الخامس والعشرين: من الكون الداخلي للنفس إلى الوحدة الجماعية للأمة

(فصلت 41: 47 - الجاثية 45: 37)

مقدمة

يُقدِّم الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم، المشتمل على سور فصِّلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية، بناءً متكاملًا لحياة المؤمن. يجسر الهوة بين العالم الداخلي للإيمان والوعي والحقائق الخارجية للأسرة والمجتمع والحضارة.

وعبر هذه السور، ينتقل القرآن بسلاسة من العمق اللغوي للوحي وقدرته على تفتُّح معانيه عبر الأجيال، إلى الأخلاق العملية التي تحكم العلاقات الإنسانية والحياة الجماعية. يُخاطب القلبَ الفرد وبنية الأسرة ووحدة الأمة ومسار البشرية نحو عودتها النهائية إلى الله.

يستكشف هذا الفصل عشرة موضوعات متشابكة تُخاطب التحديات الدائمة في كل عصر. يبدأ بالقرآن معجزةً حيةً دائمة التجدد، ثم يفحص جذور الفرقة وعلاجها، ويُتوِّج بحقائق المحاسبة والآيات التي تسبق الساعة.

وعبر هذه الرحلة، يبرز القرآن لا سجلًّا تاريخيًّا بل دليلًا حيًّا وشريعةً تُمهِّد طريقًا واضحًا وخالدًا للتعامل مع تعقيدات الدنيا والآخرة.

1. المعجزة الخالدة: العلم والوحي

يُؤكِّد الله أن معجزة القرآن ليست راكدة محدودة بعصر واحد، بل معجزة حية ديناميكية تتواصل آياتها في التجلي كلما اتسع العلم الإنساني:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ (فصلت 53)

من أبرز خصائص القرآن عمقه اللغوي. آياته تُوصِّل المعنى على مستويات متعددة في آن: في متناول العامة، وقادرة في الوقت ذاته على الكشف عن أبعاد عميقة حين تُفحَص في ضوء المعرفة الإنسانية المتقدمة. ومع تقدم الفهم العلمي، تزداد وضوحًا طبقات جديدة من هذه الآيات دون أن تنضب معانيها. فمن الأمثلة على ذلك:

اتساع الكون :يصف القرآن طبيعة الكون بما يتوافق مع ما كشفه علم الكونيات الحديث مؤخرًا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات 47)

ديناميكا الموائع والحواجز :يصف التقاء مجريَي مياه متمايزَين مع الحفاظ على خصائص كل منهما بدقة لافتة:
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ (الفرقان 25: 53)

الأرض والسموات متعددة الطبقات :يُشير القرآن إلى تعقيد بنيوي في السموات والأرض:
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ (الطلاق 12)

حركة الأرض :وبينما تبدو الجبال ساكنة للإدراك البشري، يُلمّح القرآن إلى حركتها المستمرة المتسقة مع دوران الأرض:
﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ (النمل 88)

هذه الأمثلة ليست ملاحظات معزولة؛ بل تُجسِّد نمطًا متسقًا: القرآن يتكلم بصورة تتجاوز الطاقة العلمية لأول جمهوره مع البقاء ذا صلة مستمرة بالأجيال اللاحقة.

معجزة القرآن إذن لا تقتصر على أثرها الأولي على عرب القرن السابع؛ بل تتجدد عبر الزمن، داعيةً كل جيل لإعادة اكتشاف آياتها في ضوء آفاقه المتسعة من المعرفة.

وإن كانت هذه التوافقات بالغة الدلالة، فينبغي أن يُرى الانسجام بين الوحي والواقع المرصود لا إخضاعًا مُتكلَّفًا بل دعوةً إلى التأمل: تغدو فيها التقدمات المعرفية وسيلةً لتعميق اليقين بصدق القرآن لا تضييقًا لمعناه.

2. تحريم استخدام الدين ذريعةً للتفرقة

من الأوامر المحورية في القرآن: التحريم الصارم لاستخدام الوحي الإلهي أداةً للإيقاع بالفرقة بين المؤمنين. وهذا الأمر لم يكن خاصًّا بالرسالة الخاتمة؛ بل هو مبدأ جوهري مشترك بين مهام جميع رسل الله، ولا سيما أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ (الشورى 13)

تُؤسِّس هذه الآية حقيقةً عميقة: جوهر دين الله واحد. ولذا لا ينبغي أن توجد فرقة جوهرية بين من يتبعون هدايته. غير أن التاريخ والواقع المعاش يشهدان عكس ذلك: الفرقة مستمرة ليس فقط بين أتباع أنبياء مختلفين، بل حتى بين من يدَّعون الولاء للرسول ذاته.
ويُحدِّد القرآن الجذور الحقيقية لهذه الفرقة، ليست الجهل بل الفساد الأخلاقي والاجتماعي. ويُصرِّح بأن التشرذم يقع حتى بعد وضوح العلم:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ (الشورى 42: 14)

الفرقة إذن ليست إخفاقًا فكريًّا في المقام الأول، بل إخفاق أخلاقي. يعزوها القرآن إلى البغي: التعدي والتنافس والسعي إلى الهيمنة. ويتجلى ذلك في أنماط متكررة:

- **ادعاءات التفوق :**مجموعة تؤكد لنفسها النجاة الحصرية أو التفوق الذاتي على غيرها.
- **استغلال القادة :**زعماء فاسدون أو مصلحيون يُسيِّحون الدين لتأمين الثروة والنفوذ والسلطة السياسية.
- **التقليد الأعمى :**تلاعب بالأتباع المخلصين غير المُلمِّين، يدفعهم إلى التضحية بحياتهم ومواردهم وولاءاتهم لأجل قضايا تخدم في نهاية المطاف أهداف البشر لا الحق الإلهي.

ومع ذلك، يُقرِّر القرآن أيضًا مبدأً جوهريًّا: الله يصون حرية الإنسان في الاختيار. فهو لا يُعاجِل بالعقوبة من يُثيرون الفرقة أو ينحرفون عن الهداية. بل يُقرِّر تأخيرًا في الحكم:

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الشورى 42: 14)

هذا التأجيل ذاته تجلٍّ للرحمة الإلهية. فلو كانت المحاسبة فورية ما أطاقت البشرية تبعاتها. بل إن "الأجل المسمى" يُمثِّل فسحة من الفرص، ممتدةً على مدى العمر، للتأمل والتصحيح والتوبة والعودة إلى الوحدة.

في هذا الضوء، الدعوة القرآنية ليست للابتعاد عن صورة الفرقة فحسب، بل لتطهير الدوافع الداخلية التي تُولِّدها. الوحدة الحقيقية لا تتحقق بتوحيد الألقاب، بل بإخلاص السعي إلى الحق والخضوع لله وحده. الفرقة ليست مظهر قوة؛ بل انحراف عن الوحي. والوحدة لا تتحقق بادِّعاء الحق، بل بالخضوع له بتواضع.

3. الوسائل الأساسية للقضاء على الفرقة

لهدم بُنى الفرقة لا بد للمؤمنين من تبني مبادئ أخلاقية وسلوكيات محددة مُصمَّمة للحفاظ على الوحدة وحماية نزاهة الجماعة.

وأمتن ضمانة ضد الفرقة: التمسك الراسخ بالوحي في مواجهة الأهواء الإنسانية المتقلبة. من يرفضون الحق كثيرًا ما يفعلون ذلك لا من شُح المعرفة بل لأنهم يُنزِّلون أهواءهم منزلة السلطة المطلقة، فيُحوِّلونها عمليًّا إلى "إله" يعبدونه.
﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية 23)

حين يصير الهوى مصدر الهداية، يُختَم على القلب. ولمعالجة ذلك، يُقدِّم الله خارطة طريق واضحة وشاملة:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ﴾ (الشورى 15)

ترسم هذه الآية إطارًا رباعيًّا للحفاظ على الوحدة:

- **ادعُ :**ادعُ الناس باستمرار إلى جوهر الدين لا إلى الفصائل والشخصيات.
- **استقم :**جسِّد الثبات في الاعتقاد والعمل فتصير نموذجًا للسلوك المبدئي.
- **ارفض التحيز :**قاوم الانجرار إلى الولاءات الحزبية المدفوعة بالهوى لا بالحق.
- **أقم العدل (لأعدل بينكم) :**أبقِ الإنصاف للجميع بصرف النظر عن الانتماء لتسبق العدالة المصلحة الجماعية.

وفضلًا عن هذه الصفات الفردية، يُؤسِّس القرآن آليةً جماعية لإدارة الخلافات: الشورى.
﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى 38)

الشورى منظومة وقائية: تُتيح التعبير عن الخلاف وفحصه وحلَّه قبل أن يتصاعد إلى نزاع. تُحوِّل الاختلاف من مصدر تشرذم إلى مسار للحكمة الجماعية.

ومن الأوهام الشائعة أن الوحدة تستلزم التوحُّد التام. يُصحِّح القرآن ذلك بإقراره أن التنوع ذاته جزء من التصميم الإلهي:
﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ (الشورى 8)

بما أن التنوع مقصود، فالاختلاف طبيعي. الخطر ليس في الاختلاف ذاته بل في طريقة إدارته.

ولمنع الاختلاف من الانزلاق إلى فرقة مُدمِّرة، يُؤسِّس الله المبدأ المطلق للحل:
﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى 10)

يضع هذا المبدأ حدًّا ضروريًّا للادعاءات البشرية. فلا فرد ولا جماعة تملك حق إعلان نفسها المالكة الحصرية للحق أو الوارثة الوحيدة للنجاة. الحكم النهائي على الناس لله وحده.

الاعتراف بهذا الحد يكبح الغرور ويُحيِّد الإطلاقية الطائفية ويفتح الباب للتعايش المتجذِّر في التواضع والإخلاص المشترك.

الوحدة ليست غياب الخلاف؛ بل انضباط إدارته بالعدل والتواضع والخضوع لله.

4. معالجة الخلاف الأسري: القضاء الإلهي في الحياة الأسرية

مصدر بارز للصراع والتوتر العاطفي داخل الأسر ينشأ من المفاهيم الخاطئة حول الإنجاب، ولا سيما حين يعجز الزوجان عن الحمل أو حين يُرزَقان بالبنات فحسب. وفي مجتمعات كثيرة يُلقى هذا الثقل ظلمًا على الزوجة مما يُفضي إلى توتر وأذى عاطفي وحتى انهيار الأسرة.

يُزيل القرآن قطعيًّا أساس هذه الخلافات بتأسيس أن الإنجاب والجنس قضاء إلهي محض، لا سلطان للإنسان عليه. يقول الله:
﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (49) أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ (الشورى 49-50)

ترسم هاتان الآيتان أربعة نتائج متمايزة للأبوة، مُشكِّلتَين إطارًا متكاملًا لفهم ظروف الأسرة:

1. **هبة البنات :**مذكورة أولًا في الآية، رفعًا لمكانة الأنثى في مجتمع كان يستهين بها.
2. **هبة الأبناء :**تجلٍّ للفضل الإلهي بالمثل.
3. **هبة الجنسين معًا :**عطاء متوازن يعكس الكرم الإلهي.
4. **العقم :**لا يُعرَّف بوصفه إخفاقًا أو نقصًا، بل قضاءً مقصودًا من العليم القدير.

وبصياغة جميع الاحتمالات أفعالًا إلهية، يزيل القرآن كل سبب للوم أو خزي أو ضغينة بين الزوجين. إن استُخدمت هذه النتائج مسوِّغًا للصراع، سواء بالإيذاء العاطفي أو الضغط الاجتماعي أو حتى الطلاق، فذلك في حقيقته رفض للحكمة الإلهية. يُحوِّل ما عرَّفه الله قضاءً إلى اتهام بشري.

بدلًا من ذلك، هذه الأحوال مُصمَّمة لتنمية صفات روحية رفيعة:

- الصبر في مواجهة الابتلاء
- الرضا بقضاء الله
- والتآزر داخل الوحدة الأسرية

ومن المنظور العلمي، هذا المبدأ القرآني يتعزز: التحديد البيولوجي لجنس الطفل مرتبط بالمساهمة الكروموسومية للأب. ومن ثَمَّ، الممارسة الثقافية لإلقاء اللوم على الأم ليست باطلة لاهوتيًّا وحسب، بل باطلة علميًّا أيضًا.

حين تُستوعَب هذه الحقائق، يزول مصدر رئيسي للتوتر الأسري. ويحل محله بيئة أسرية قائمة على القبول والرحمة والخضوع المشترك لإرادة الله. السلام في البيت يبدأ حين ينتهي اللوم ويبدأ الإيمان بقضاء الله.

5. عالمية الإسلام ومحورية مكة

وإن كانت الرسالة الجوهرية للإسلام متسقة عبر جميع الرسل، فإن الرسالة الخاتمة تتميز بشموليتها الكونية. فالكتب السابقة وُجِّهت إلى مجتمعات وأمم بعينها، أما القرآن فيُخاطب البشرية جمعاء. يقول الله:
﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ (الشورى 7)

تُعرِّف هذه الآية مكة بوصفها المركز الروحي والجغرافي للرسالة الخاتمة: "أم القرى". وعبارة ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ تتجاوز النطاق المحلي أو الإقليمي. وقد فهمها علماء التفسير الكلاسيكيون والمعاصرون بأنها تشمل البشرية جمعاء. فمكة إذن ليست مجرد مدينة؛ بل النقطة التي تُشعُّ منها الهداية الإلهية إلى العالم أجمع.

وسمة أساسية لهذه الرسالة الكونية: قابليتها للفهم. يصف القرآن نفسه بـ"عربيًّا"، وهو أكثر من مجرد هوية لغوية؛ إذ يدل على الوضوح والدقة والقابلية للإدراك.

- **عربي :**مشتق من جذر يُفيد الوضوح والتعبير والإفصاح.
- **أعجمي :**ما هو غامض أو ضبابي أو عسير الفهم.

بوصف القرآن "عربيًّا"، يُؤكِّد الله أن الرسالة صِيغت بوضوح وفي متناول الفهم البشري، مُزيلةً الغموض ورافعةً أي عذر للجهل.

التطبيق المعاصر: التقويم الموحَّد

لتعريف مكة بـ"أم القرى" تبعات عملية على الأمة الإسلامية العالمية. وقد استند بعض العلماء والفقهاء المعاصرين إلى هذا المفهوم للمناداة بتقويم إسلامي موحَّد. يحاجون بأن مكة بوصفها المركز الروحي للإسلام ومحور الحج ولا سيما يوم عرفة، يمكن أن تكون مرجعيتها في رصد الهلال معيارًا موحِّدًا لتحديد بداية رمضان ونهايته وتواريخ العيدين.

يسعى مثل هذا النهج إلى ترجمة عالمية الإسلام إلى وحدة ، تُتيح للأمة الصوم والاحتفال والعبادة بوصفها جسدًا واحدًا متجاوزًا الانقسامات الجغرافية.

رسالة كونية تستدعي استجابةً موحَّدة، ومكة تبقى القلب الذي يجمع الأمة في اتجاه واحد وغرض واحد ومصير واحد.

6. الخسارة الجسيمة: حقيقة الخذلان الإلهي

أشد الأحوال خطرًا التي قد يبلغها الإنسان: أن يُتركه الله لنفسه. فحين يُقطَع عن السند الإلهي يفقد حارسه الوحيد ومرشده الحق.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ (الشورى 42: 44)

للوهلة الأولى قد تُوحي هذه الآية بسوء فهم جوهري: أن الله يحجب الهداية عن بعض الناس اعتباطًا مُجبِرًا إياهم على الضلال. وهذا التفسير يتعارض مع المبادئ القرآنية الراسخة في العدل الإلهي والرحمة. في الحقيقة، هداية الله ممتدة للجميع عبر قناتين رئيسيتين:

1. **الفطرة :**الاستعداد الفطري النقي المودَع في كل إنسان.
2. **الرسل والوحي :**الهداية الخارجية التي تُوضِّح الحق المُدرَك بالفطرة وتُؤكِّده وتصونه.

وكما أسَّس الله قوانين مادية تحكم الكون، أسَّس قوانين روحية (سنن) تحكم السلوك الإنساني وعواقبه. والخذلان الإلهي ليس اعتباطًا؛ بل هو المرحلة الأخيرة في مسار يرفض فيه الإنسان الحق باستمرار ويكبت فطرته ويُعرِض عن الوحي.

وهكذا، الله لا يُكره أحدًا على الضلال. لكن حين يختار الإنسان مرارًا الباطل يصبح غير قابل للسند الإلهي الذي يُمكِّن الهداية من التجذُّر في القلب.
ويُحدِّد القرآن صراحةً فئات استمرار سلوكها يُفضي إلى سحب هذه الهداية الخاصة:

- **الظالمون :**من ينتهكون حقوق الآخرين والحق: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة 2: 258 وآيات أخرى)
- **الفاسقون :**من ينقضون عهدهم مع الله بتعمُّد: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة 5: 108 وآيات أخرى)
- **الكافرون :**من يتعمدون تغطية الحق: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة 2: 264 وآيات أخرى)
- **الخائنون :**من يسلكون بالغدر والخداع: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ (يوسف 12: 52)
- **الكذَّاب المسرف :**من يعيشون في الباطل والتجاوز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ (غافر 40: 28)

هذه الفئات لا تُعرَّف بأخطاء معزولة، بل بأنماط سلوكية مستمرة. باب التوبة مفتوح، لكن حين يصير الرفض عادةً مُتعمَّدة تكون النتيجة الانسحاب التدريجي للسند الإلهي. "الضلال" في هذا الضوء ليس مفروضًا؛ بل نتيجة طبيعية للمقاومة الراسخة للهداية.

أعظم الخسارة ليست الجهل بل فقدان هداية الله بعد معرفة الحق.

7. الثبات على الصراط المستقيم وحقيقة القوة

المداومة على الاستقامة متطلب جوهري لمن يحملون رسالة القرآن. والاتساق في الاعتقاد والشخصية ما يمنح هذه الرسالة مصداقيتها في أعين الآخرين. يأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلاله جميع المؤمنين، بالتمسك بالوحي بصرف النظر عن الضغوط الخارجية:

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (43) وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ (الزخرف 43-44)

هذا الذكر شرف ومسؤولية في آن. كون المرء "مسؤولًا" يُوحي بأن الإيمان وحده غير كافٍ؛ لا بد من تجسيد الرسالة في السلوك، ولا سيما في التعامل مع المعارضين والمختلفين.

وحين يُواجَه بالعداء أو الحجج الزائفة، الاستجابة القرآنية ليست الانتقام بل الكرامة والضبط:

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ (الزخرف 89)

العفو مقرونًا بالابتعاد الهادئ يصون كرامة المؤمن ويمنع الصراع من الانزلاق إلى مواجهة مدفوعة بالأنا. كما يُفسح المجال للتأمل بعيدًا عن ضجيج العداء.

حقيقة الإدراك والقوة

وبينما يُؤمَر المؤمنون بعدم الانبهار بالمادية، لا يتجاهل المنظور القرآني الحقائق الاجتماعية. فحين يبدو أتباع الحق ضعافًا مُشتَّتين أو فقراء، قد يُشكّل ذلك حاجزًا نفسيًّا يمنع الآخرين من اعتناق الرسالة.

الناس كثيرًا ما يتأثرون ليس بالحق وحده بل بحال من يدَّعون الدفاع عنه. وتُجلّي لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بعدي بن حاتم، الزعيم القبلي الذي تردد في اعتناق الإسلام بسبب ثلاث نقاط ضعف محسوسة: فقر المسلمين وتعرضهم المستمر للتهديد وافتقارهم إلى السلطة السياسية.

فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن كل هاجس بوضوح ويقين نبوي:
"لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم".
(وكان عدي يقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن.) [ابن كثير، البداية والنهاية 5: 57؛ ورواه الترمذي (2953) وأحمد(18260)]

تُؤسِّس هذه الوعود مبدأً متكررًا: الضعف المادي قد يُعيق رؤية الحق، والقوة المتجذِّرة في الهداية تُزيل الحواجز أمام الإيمان.

وهكذا، تقوية الوضع الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع الإسلامي ليست سعيًا وراء الزيادة الدنيوية، بل وسيلة لتمكين الحق من الظهور دون تشويه. وإهمال الموارد لا يُزيل تأثيرها؛ بل يسمح لها فحسب بالاستخدام من قِبَل غيرهم، في الغالب ضد القيم التي يسعى الإسلام إلى تكريسها.

الثبات يصون الحق في الداخل، لكن القوة تجعل الحق مرئيًّا من الخارج.

8. الآيات الكبرى: تحذيرات إلهية واستعداد بشري

يُحذِّر القرآن من أن اقتراب الساعة سيُعلَّم بأحداث جسيمة وصريحة، آيات تعمل تحذيرات واختبارات حاسمة للبشرية. ومن بينها ظهور دخان مبين، موصوف بأنه ظاهرة ستُعمُّ الناس:

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ (9) فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ (10) يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (الدخان 44: 9-11)

يتحدث الموروث الإسلامي عن الآيات الكبرى التي تسبق الساعة. وبينما تُفصِّل أحاديث النبي عدة منها كالدجال وطلوع الشمس من مغربها، يُبرز القرآن ظواهر رئيسية كالدخان والدابة ويأجوج ومأجوج. وهذه ليست رموزًا مجردة؛ بل أحداث حقيقية ذات انعكاسات عميقة على الوجود الإنساني.

وهناك فهم شائع مفاده أن آيات الساعة تُنتَظَر بسلبية. غير أن القراءة القرآنية الأعمق تُوحي بأنها معدَّة لإيقاظ الاستعداد روحيًّا وماديًّا.

لعله إن نظرنا إلى التفسيرات العلمية التي ترى في "الدخان" ظاهرةً محيطةً شاملة، تُثار تساؤلات جوهرية للمسلمين:

- **المرونة الزراعية :**لو تعطَّل ضوء الشمس بصورة ملحوظة، لانهارت الزراعة التقليدية. مما يستدعي تطوير أنظمة بديلة كالزراعة المحمية والهيدروبونيك لضمان الحفاظ على الحياة.

- **الطوارئ التكنولوجية :**قد يُؤثِّر اضطراب جوي عالمي على أنظمة الاتصالات والأقمار الصناعية والبنية التحتية الرقمية. ومن الضروري النظر في أنظمة مرنة لا مركزية أو غير رقمية كتدابير طوارئ.

- **الأخلاق الحضارية :**يربط القرآن الدمار مرارًا بالفساد الأخلاقي والظلم والبغي والفساد في الأرض. ومن ثَمَّ قد تعكس هذه الآيات لا اضطرابًا ماديًّا فحسب بل تراكم أزمة أخلاقية أعمق.

وتُرسِّخ أهمية التهيؤ للمستقبل الحديثُ المشهور لجبريل. حين سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم، تضمَّن النقاش أربعة أبعاد جوهرية للدين:

- الإسلام: الشعائر الظاهرة والأحكام
- الإيمان: الاعتقادات الأساسية
- الإحسان: التميز الروحي والوعي بالله
- الساعة: حقيقتها وآياتها

وإدراج الساعة وآياتها ضمن هذا الإطار الجوهري يُشير إلى أن الوعي بالمستقبل ليس هامشيًّا؛ بل متكامل مع الرؤية الإسلامية للعالم.

غير أن هذا الوعي ليس لتحديد متى تقع الأحداث؛ بل لإعداد المرء لكيفية الاستجابة: الحفاظ على الإيمان والاستقرار والنزاهة الأخلاقية في أوقات الاضطراب العميق.

آيات الساعة لا تُعطى لتُخيفنا؛ بل لتُعدَّنا.

9. المحاسبة: السجل الفردي والجماعي

يُحذِّر الله من يرفضون رسالته من الحقيقة التي لا مناص منها حين تقوم الساعة. هذا الحكم ليس مبنيًّا على افتراض أو إشاعة، بل على سجل دقيق لا يُنكَر للواقع ذاته.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (27) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (28) هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (الجاثية 27-29)".

وثمة دقة لغوية بليغة في كلمة "نَسۡتَنسِخُ". وإن كانت كثيرًا ما تُترجَم "نُسجِّل" أو "نكتب"، فإن الجذر في العربية يحمل معنى إنتاج نسخة مطابقة طبق الأصل. مما يُوحي بأن سجل الأعمال ليس مجرد سجل مكتوب، بل استنساخ كامل وأمين للأفعال لا مجال معه للإنكار أو إعادة التأويل. كأن الواقع ذاته يُصان ويُقدَّم للإنسان بدقة مطلقة.

ما وراء الفرد: سجل الأمة

بينما المحاسبة الفردية محور الاعتقاد الإسلامي، قد تشير هذه الآيات إلى بُعدًا ثانيًّا: المحاسبة الجماعية. يُصوِّر القرآن أممًا بأكملها (أُمَمًا) تُستدعى إلى سجلاتها:

"كل أمة تُدعى إلى كتابها." يطرح ذلك سؤالًا جوهريًّا: هل يُحاسَب الأفراد ليس فقط على أعمالهم الشخصية بل أيضًا على الأعمال الجماعية للمجتمع الذي ينتمون إليه؟ يُوحي هذا المنظور بمستويات متعددة من المسؤولية:

- **الظلم المنهجي :**ما مدى تحمُّل الفرد مسؤولية الظلم أو الفساد أو العدوان الذي يرتكبه مجتمعه؟
- **الأغلبية الصامتة :**حين تهجر جماعة ما الهداية الإلهية جماعيًّا، قد يصبح الصمت أو القبول السلبي ضربًا من الاشتراك.

وهكذا، المحاسبة تمتد من الفرد (الفرد) إلى الجماعة (الأمة). ويمكن فهم هذه المحاسبة المزدوجة بمستويين من التقييم:

- **التقييم الفردي :**مبني على أعمال الشخص ونياته وجهوده.
- **التقييم الجماعي :**مبني على نتائج الجماعة أو المجتمع الذي يُسهم فيه.

فحتى لو أدى الفرد مسؤولياته الشخصية، قد يحمل نصيبًا من الإخفاق الجماعي إن أتاح للظلم المنهجي أو تجاهله أو لم يسعَ إلى تصحيحه. في المقابل، النجاح الجماعي يرفع شأن جميع من أسهموا فيه.

مبدأ الفاتحة: التكلم بـ"نحن"

هذه الهوية الجماعية متجذِّرة في أساس العبادة اليومية. ففي كل ركعة، يتلو المؤمن:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة 1: 5) "إياك نعبد وإياك نستعين".

استخدام الجمع "نحن" ليس عرضيًّا؛ بل يعكس حقيقة أن المؤمن جزء من أمة أكبر. الهداية تُطلَب جماعيًّا والمسؤولية تُتحمَّل جماعيًّا. إن طلبنا الهداية كجماعة، فالانحراف كجماعة أيضًا يحمل عواقب مشتركة.

وبعد عرض السجلات، تُقسَّم البشرية بناءً على استجابتها للحق:
﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ (30) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ (الجاثية 30-31)

سجلنا ليس فقط ما فعلناه وحدنا؛ بل ما أتحنا حوله أن يُفعَل.

10. الزينة الحقيقية في مقابل البريق الزائف

سورة الزخرف، المُسمَّاة بـ"الزينة" أو "البريق"، ترسم تناقضًا قويًّا بين متع الدنيا الزائلة وكرامات الآخرة الخالدة.
ولبيان حقارة الثروة الدنيوية في نظر الله، يُقدِّم الله سيناريو افتراضيًّا مُدهِشًا:

﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ (34) وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف 33-35)

لعل هذه الآية تكشف حقيقةً عميقة: الثروة ليست في ذاتها دلالة على الرضا الإلهي. بل يُشير الله إلى أنه كان يُمكن أن يمنح المزيد من الرفاه المادي الساحق لمن يرفضونه، لولا أن يُضلَّ بذلك جميع البشر. توزيع الثروة إذن ليس اعتباطيًّا؛ بل هو حكمة إلهية وحماية. فبالحد من الهيمنة المرئية للوفرة المادية، يصون الله قلوب المؤمنين من ابتلاء قد يطغى على إيمانهم.

الثروة الدنيوية مهما بهرت توصف بـ"متاع": منفعة مؤقتة لا حيازة دائمة.

ثم يُعيد القرآن توجيه نظر المؤمن من الفضة والذهب الدنيويين إلى الزينة الحقيقية في الآخرة:

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (71) وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (الزخرف 70-72)

هنا الذهب لم يعد ابتلاءً؛ بل صار تكريمًا. ما كان في الدنيا مُشتِّتًا يصير في الآخرة مكافأة. وخلافًا للمتعة الدنيوية التي كثيرًا ما يعقبها القلق والتنافس أو الفقدان، متعة الآخرة كاملة نقية خالدة: تُشبع النفس والحواس معًا دون نقص أو انتهاء.

رسالة للمؤمن المعاصر

في عصر يتسم بالعرض المادي والمقارنة الدائمة، يدعو القرآن المؤمن إلى رؤية ما وراء الزخرف: البريق الزائف. فمهما بلغت الثروة الدنيوية من التقدم والوفرة، تبقى محدودة وزائلة. الاستثمار الحقيقي ليس فيما يُمتلَك، بل فيما يُحفَظ للآخرة.

يُدعى المؤمن إذن إلى إعادة صياغة الحياة ذاتها: ليست سباقًا للتراكم، بل رحلة هادفة من الأعمال عائداتها أبدية.

لا تنبهر بما يلمع؛ بل استهدِ بما يدوم.

خاتمة

تقود الرحلة عبر الجزء الخامس والعشرين إلى إدراك موحِّد وتحويلي: كل بُعد من أبعاد الوجود الإنساني، الفردي والأسري والمجتمعي والعالمي، يعمل ضمن إطار سنن الله.

رأينا أن أكبر تهديد للنجاح الإنساني ليس الجهل، بل رفع الهوى فوق الوحي. ومن هذا الانحراف تنشأ الفرقة والظلم وهم الدوام في الزخرف الدنيوي.

في المقابل، يدعو القرآن المؤمن إلى مسار أرقى:

- **الاستعداد للمستقبل :**الاستعداد لا لقدوم الساعة وحسب بل للظروف التي تسبقها.
- **المسؤولية الاجتماعية :**الإدراك بأن المحاسبة تتجاوز الفرد إلى الجماعة.
- **الثبات الروحي :**تأصيل القلب فيما يدوم لا فيما يبهر.

في نهاية المطاف، يُعلّم هذا الجزء أن النجاح في محاذاة الذات مع الهداية الإلهية: في الفكر والعمل والنية. فليكن هذا التأمل ليس مجرد

جواهر الجزء السادس والعشرين: من التميز الفردي إلى الشهادة على البشرية

(الأحقاف 46: 1 - الذاريات 51: 30)

مقدمة

يُعلّم الجزء السادس والعشرون من القرآن الكريم تحولًا عميقًا في رحلة المؤمن: من الدائرة الحميمة للأسرة إلى المسؤولية الشاملة تجاه المجتمع والبشرية جمعاء. يبدأ بترسيخ الفرد في الواجب الجوهري المتمثل في إكرام الوالدين، ثم يتوسع تدريجيًا ليُحدِّد السلوك الأخلاقي داخل الجماعة وليُرسي في نهاية المطاف مكانة المؤمن شاهدًا على البشرية جمعاء.

وفي هذه الجواهر، نستكشف الطبيعة المتعددة الأوجه للتقوى، لا بوصفها صفةً راكدة، بل قوةً ديناميكيةً تحويلية. إنها تُشكِّل طريقة تعاملنا مع المعلومات، وأسلوب تفاعلنا مع الآخرين، وكيفية إدارة ثروتنا، وفهمنا لغاية وجودنا في الحياة.

ومن خلال هدى سورة الأحقاف ومحمد والفتح والحجرات وق والذاريات، يُقدِّم هذا الجزء منهجًا متكاملًا لحياة متوازنة: تجمع بين التواضع الروحي والوضوح الفكري، وبين الإخلاص الباطن والتميز الظاهر.

1. واجب الأبناء نحو آبائهم

يُولي القرآن أهميةً بالغةً لواجب الأبناء في إكرام آبائهم واحترامهم بصرف النظر عن دين هؤلاء الآباء. وفي سورة الأحقاف، يُبرز الله لحظةً محوريةً: سنُّ الأربعين. تمثِّل هذه المرحلة لحظة تأمل عميق حين يُدرك الإنسان كامل التضحيات التي بذلها والداه، ولا سيما الأم التي تحمَّلت المشقة في الحمل والوضع والرضاع. صلاح الإنسان ينعكس في إقراره بهذه الحقوق الوالدية وفي دعائه المستمر لهما. وفي المقابل، يعد الله الأبناء والآباء معًا بالثواب.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف 15)

تُقدَّم سن الأربعين بوصفها ذروة النضج الفكري والروحي. وفي هذه المرحلة ينبغي أن يُدرك الإنسان مسؤولياته مدى الحياة، ولا سيما تجاه والديه. وجزاءً على الوفاء بهذا الواجب يُعلن الله قبول هؤلاء: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ (الأحقاف 16)

واجب البر بالوالدين لا ينتهي بوفاتهما. فقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم:

"يا رسول الله، هل بقي عليَّ شيء من بر والديَّ بعد موتهما؟"
فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم: "نعم، أربعة أشياء:
(1**الدعاء :**ادعُ لهما خمس مرات كل يوم: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ، ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرًا.
(2**الروابط الاجتماعية :**حافِظ على صلتك بأصدقائهما.
(3**الميراث :**أوفِ بعهودهما ووصاياهما الشرعية.
(4**صلة الرحم :**حافِظ على الأرحام التي لم تكن لك بهم صلة إلا من خلالهما.
هذا ما بقي عليك من برهما بعد موتهما." (أحمد، أبو داود، ابن ماجه)

2. القرآن: وحي للإنس والجن

القرآن رسالة إلهية موجَّهة ليس للبشرية وحدها بل للجن أيضًا. كلا العالَمين يشتركان في مسؤولية تلقي هذه الهداية واستيعابها وتبليغها لمجتمعيهما. وفي سورة الأحقاف، يُسجِّل الله ردَّ فعل مجموعة من الجن حين سمعوا تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم لأول مرة:

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (الأحقاف 46: 29)

يُمثِّل ردُّ فعل الجن نموذجًا مثاليًّا للتفاعل مع الوحي. فقد استمعوا بانتباه تام، والتزموا الأدب أثناء التلاوة، وفور انتهائها انتهجوا دور المُبلِّغين للرسالة.

﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ (30) يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (الأحقاف 46: 30-31)

تكشف أقوالهم اقتناعًا فوريًّا وفهمًا واضحًا لمسؤولية دعوة الآخرين، مُثبِتةً أن التلقي الحقيقي للوحي لا بد أن يُفضي إلى عمل وتبليغ.

وتُبرز تصريحاتهم نقطتين لاهوتيتين عميقتين:

1. طبيعة المغفرة :جملتهم ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ توظِّف حرف الجر "مِن" الذي يُفيد الجزئية لا الكلية. وقد لاحظ العلماء هذه الدقة اللغوية لتُشير إلى أن الله يغفر الذنوب المتعلقة بحقوقه بالتوبة الصادقة، في حين أن الانتهاكات المتعلقة بحقوق الآخرين تستلزم الإصلاح والمصالحة أو التعويض. وهكذا تعمل المغفرة الإلهية ضمن إطار الرحمة والعدل معًا.

2. السيادة المطلقة لله :أدرك الجن أيضًا أنه لا يستطيع أحد الفرار من ملكوت الله. فالقوة والذكاء والمكانة لا توفر حمايةً نهائية. وقد يُصاب أقوى الناس بالعجز من شيء بالغ الصغر كجلطة دقيقة. يعكس هذا الإدراك وعيًا عميقًا بهشاشة الإنسان ويُؤكِّد أنه لا ملجأ ولا مُنجي إلا الله.

تأمل في ذكر موسى عليه السلام
سمة لافتة في قولهم: إحالتهم إلى القرآن وحيًا أُنزل من بعد موسى دون ذكر عيسى بن مريم رغم موضعه الزمني بين موسى ومحمد عليهم السلام. هذا يدعو إلى تأمل أعمق في طبيعة الوحي. فالقرآن كثيرًا ما يصف ما أُوتي موسى بـ"الكتاب": إطار قانوني واجتماعي شامل. في المقابل، ما أُوتي عيسى يُوصَف في الغالب بـ"البيِّنات".

قد يُفهَم من هذه التفرقة إلى أن التوراة والقرآن يتشاركان دورًا بنيويًّا كمنظومتين تشريعيتين شاملتين، في حين يُقدَّم الإنجيل أكثر بوصفه تأكيدًا وتهذيبًا روحيًّا وإضاءةً أخلاقية. وربما يعكس ربط الجن المباشر بين القرآن والتوراة وعيًا بهذا الاستمرار البنيوي بين "الكتابين"، مُبرِّزًا استمرارية الهداية الشاملة والحوكمة والتشريع.

3. السنة الإلهية للنصر والصراع

تُرسي سورة محمد إطارًا إلهيًّا واضحًا يحكم السلوك أثناء الصراع وبعده. وهي لا ترسم فقط أخلاقيات الاشتباك بل أسلوب التعامل مع الأسرى أيضًا، فضلًا عن تعريفها مبدأً جوهريًّا يمكن وصفه بسنة التبادل في السند الإلهي.

يُقدِّم القرآن توجيهًا صريحًا حول التعامل مع الخصوم حين يخفت حدة المعركة ويتحقق النصر:
﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ (محمد 4)

ترسي هذه الآية أسلوبين رئيسيين للتعامل مع أسرى الحرب:

1. **المنُّ**: الإفراج عنهم تفضلًا ورحمةً.
2. **الفداء**: الإفراج عنهم مقابل تعويض يشمل استرداد الأسرى المسلمين.

ومن اللافت أن الآية تقصر الخيارات صراحةً على هذين المآلين. وغياب الاسترقاق بوصفه خيارًا مُصرَّحًا به في هذا التوجيه الجوهري يدعو إلى تأمل عميق. فبينما أدرجت المناقشات الفقهية اللاحقة الأعراف التاريخية السائدة، يُؤكِّد النص القرآني ذاته الحلَّ عبر الرحمة أو الإفراج المتفاوَض عليه.

سنة التبادل

يُؤسِّس الله شرطًا واضحًا وعميقًا لنيل السند الإلهي:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ (محمد 7)

رغم أن الله غني مطلق لا يحتاج إلى معين، فإن "نصرة الله" تعني إقامة دعوته على الأرض. وتتجلى هذه المسؤولية في بُعدين محوريين:

- **تبليغ الرسالة :**إيصال حق التوحيد إلى البشرية بوضوح وإخلاص.
- **إقامة العدل :**السعي إلى حكم التفاعلات الإنسانية بالإنصاف والعدالة والهداية الإلهية.

وقد لخَّص جوهر هذه المهمة الصحابيُّ ربعي بن عامر رضي الله عنه في لقائه مع رستم قائد الجيوش الفارسية حين سئل عن غاية الحملة الإسلامية، فأجاب:
"الله ابتعثنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

ورغم امتلاك الله القدرة المطلقة على استئصال الظلم فورًا، أوجب على المؤمنين الكفاح، لا من باب الاحتياج بل ضريًا من الابتلاء: وسيلة لاختبار الإخلاص والالتزام والصبر والنزاهة الأخلاقية.

وفي هذا الإطار، الصراع ليس مجرد مواجهة جسدية بل مسار تحويلي. يُميز بين من يُعلنون الإيمان فحسب ومن يُقيمونه فعلًا، مُثبِّتًا أن النصر لا يُمنَح بالقوة وحدها بل بالانسجام مع الغاية الإلهية.

4. الحفظ بالصدقة

تختتم سورة محمد بتحذير رصين للمؤمنين من البخل. الرسالة واضحة: إن أمسكوا ثروتهم وجهودهم عن سبيل الله فهو غني عنهم، قادر على إحلال غيرهم ممن يمتلكون إخلاصًا وعزمًا أكبر على التضحية.
ومن أبرز الوسائل التي يبتلي الله بها إخلاص الإيمان: الثروة. فكثيرًا ما يُمثِّل الأمان المالي التعلُّقَ الأقصى، والقلب يميل حتمًا نحو ما يُعزِّزه أكثر. ولهذا تُحوِّل فريضة الزكاة، بوصفها أحد أركان الإسلام، الفداء المالي إلى تعبير جوهري عن الإيمان.

حين يُعرَض على الإنسان فرصة للعطاء فيُمسك، لا يخسر سبيلُ الله بل الفردُ ذاته. يقول الله:

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ (محمد 47: 38)

أثارت هذه الآية قلق الصحابة فسألوا: "يا رسول الله، من هؤلاء الذين ذكرهم الله الذين سيُستبدَل بهم إن تولَّينا؟"
وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه جالسًا إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم، فضرب النبيُّ فخِذَه وقال: "هذا وأصحابه، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطًا بالثريا لتناوله رجال من فارس." (الترمذي)

تُبرز الإحالة إلى أهل فارس، قوم سلمان، مبدأً إسلاميًّا جوهريًّا: الإيمان لا يُحدَّد بالنسب أو العرق أو القرب التاريخي، بل بالإخلاص والسعي والانفتاح على الحق.

حفظ الإيمان إذن لا يُعهَد به إلى مجموعة بعينها، بل لمن يُقدِّرونه ويُقيمونه ويستعدون للتضحية من أجله. فحين تُقصِّر جماعة في هذه المسؤولية أحلَّ الله مكانها من يحملون الأمانة بنزاهة أعظم.
يربط هذا المقطع الصدقة بالاستمرارية الحضارية مباشرةً. التضحية المالية ليست مجرد عمل صالح شخصي؛ بل آلية تستمر بها مهمة الإيمان عبر الأجيال. والبخل إذن ليس نقصًا أخلاقيًّا وحسب، بل تهديد لاستمرار الهداية الإلهية داخل الجماعة.

ملاحظة :لأن هذا الحديث يتعلق بتميُّز مجموعة بعينها، من الضروري تناوله بعنايةٍ علميةٍ لضمان السياق السليم، والتحوُّطِ من تأويلات تتأثر بتحيزات عرقية أو سياسية معاصرة.

5. السمات الفريدة للمؤمنين

تختتم سورة الفتح بتعريف الصفات الجوهرية للمؤمنين الحق. وهذه الصفات لا تُقدَّم في فراغ؛ بل هي امتداد مباشر لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتجسيد من صحبوه.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ (الفتح 29)

تُحدِّد هذه الآية عدة صفات مُعرِّفة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وبالتبعية النموذجَ لجميع المؤمنين:

1. الذكاء العاطفي والتوازن الأخلاقي :يمتلكون سمتَي الحزم والرحمة المتكاملتين. هم راسخون في وجه المعارضة للحق، رقيقون متحابون في ما بينهم. تميُّزهم ليس في امتلاك هذه الصفات فحسب بل في توظيف كل منها في سياقها المناسب بما يُرضي الله.
"

2. العلامات الروحية (وصف التوراة): "مثلهم في التوراة" يُؤكِّد عمق تفانيهم في العبادة. و"السيما" في وجوههم لا تقتصر على أثر جسدي بل تعكس نورًا باطنيًّا: مظهرًا من التواضع والإخلاص والسجود المستمر لله.

3. **النمو والقوة الجماعية (وصف الإنجيل):** "مثلهم في الإنجيل" يُصوِّرهم كيانًا حيًّا ينمو ويتعزز ويستقر مع الوقت. ما بدأ مجموعةً صغيرة تطوَّر إلى جماعة متماسكة صلبة. كبذرة تنضج إلى نبات راسخ، حققوا نموًّا عدديًّا وقوةً بنيوية، فصاروا مصدر استقرار وقوةً تُسعِد الذين "زرعوا" الرسالة وتُحبِط الذين عارضوها.

ومن الدلالة البليغة أن القرآن يُؤكّد أوصافًا وردت في الكتب السابقة:

- **الصلة بالتوراة :**مفهوم "العلامة" أو الإشارة المميّزة للصالحين يظهر في مواضع كحزقيال 9: 4، حيث تُوضَع علامة على جباه المؤمنين. وكذلك في الخروج 34: 29-30 وصف لإشراق موسى بعد لقائه بالإلهي، موازيًا المفهوم القرآني للعلامة الروحية التي تظهر ظاهرًا.

- **الصلة بالإنجيل :**صورة النبات النامي المتعزز تتوافق مع الأمثال المنسوبة لعيسى بن مريم، كمثل البذرة النامية (مرقس 4: 26-28) وحبة الخردل (متى 13: 31-32).

وتُقدِّم الإحالة المزدوجة إلى التوراة والإنجيل نموذجًا شاملًا للإيمان:

- **بُعد التوراة** يُؤكّد الحالة الداخلية: الإخلاص والتواضع والانضباط الروحي.
- **بُعد الإنجيل** يُؤكّد التجلي الخارجي: النمو والقوة والأثر الاجتماعي.

معًا يُقرّران أن الإيمان الحق لا يُحصَر في العبادة الخاصة ولا في النجاح العام وحده. بل هو التكامل المنسجم بينهما.

6. أخلاقيات المعلومات: مبدأ التثبت

تُؤسِّس سورة الحجرات مبدأً أخلاقيًّا جوهريًّا بالغ الأهمية في العصر الحديث: وجوب التثبت من المعلومات قبل قبولها أو التصرف وفقها أو نشرها. وفي عصر يهيمن عليه التواصل الفوري ووسائل التواصل الاجتماعي، يُمثِّل التوجيه القرآني حصنًا جوهريًّا للحق والعدل والانسجام الاجتماعي.
يُقدِّم الله بروتوكولًا واضحًا للتعامل مع التقارير، ولا سيما ما ينشأ من مصادر غير موثوقة أو يحمل إمكانية الإضرار:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ﴾ (الحجرات 6)

التصرف بناءً على معلومات غير موثَّقة أو مشاركتها يُشكّل انتهاكًا للسلوك الأخلاقي الإسلامي. والضرر الناجم عن المعلومات المضللة كثيرًا ما يكون غير قابل للإصلاح، ولا سيما حين يمسُّ كرامة الناس وشرفهم وسمعتهم.

ومفارقةً، بينما تُسرِّع التقنية الحديثة انتشار الكذب، فإنها في الوقت ذاته تُقدِّم أدوات التحقق. وبالتالي مسؤولية المؤمن لم تتضاءل؛ بل تضاعفت.

وتشتد هذه المسؤولية في المسائل المتعلقة بالقذف وتشويه السمعة، والتحريفات الدينية التي تنسب أقوالًا للنبي صلى الله عليه وسلم دون التثبت من صحتها.

الأمر القرآني ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يتمحور حول محتوى الخبر لا شخصية ناقله فحسب. فحتى لو كان المصدر غير موثوق، يبقى الواجب التثبت من المعلومة ذاتها قبل الحكم أو التحرك.

وقد رسَّخ النبي صلى الله عليه وسلم مبدأً جوهريًّا في ضبط الكلام:
"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت." (البخاري ومسلم)

وفي السياق ذاته قيل:
"من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به".

تأمل معاصر
في العصر الرقمي، "الكلام" يتجاوز الكلمات المنطوقة ليشمل كل منشور ومشاركة وتعليق وتأييد. وكل فعل يصير شهادة مُسجَّلة على الانضباط الأخلاقي للمرء.

وكل رسالة غير موثَّقة تُسهم في ما يمكن اعتباره "كثرة الكلام". على المؤمن إذن انتهاج نهج منضبط: تحقَّق قبل أن تُصدِّق، وأكِّد قبل أن تُشارِك، وقيِّم المنفعة قبل أن تُضخِّم.

مبدأ التثبت القرآني منظومة وقائية مُصمَّمة للحفاظ على الحق وصون الكرامة والحفاظ على الثقة داخل المجتمع.

7. المنظومة الإلهية لأخلاقيات المجتمع

وراء وجوب التثبت من المعلومات، ترسي سورة الحجرات منظومةً شاملة لقواعد السلوك التي تحكم العلاقات الشخصية بين المؤمنين. وتحظر هذه الآيات جملةً من الجرائم اللفظية والاجتماعية التي تُفسِّد الثقة وتُمزِّق النسيج الأخلاقي للجماعة، كالسخرية والشتم والظن والتجسس والغيبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (11) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحجرات 11-12)

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم هذه المبادئ الإلهية بتوجيهات عملية خالدة:

1. إصلاح النفس قبل نقد الآخرين:
"طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس." (البزار عن أنس بن مالك)

يُشجَّع المؤمن الحق على أن يكون "مرآةً" لنفسه أولًا. اهتمامه الأول إصلاح الداخل لا اكتشاف عيوب الخارج. وتتدهور المجتمعات حين يُصبح الأفراد نقَّادين للآخرين بدلًا من مُصلِحين لأنفسهم.

2. قدسية الخصوصية:
"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه." (الترمذي عن أبي هريرة)
في عصر الانكشاف المستمر والفضول المتطفل، هذا المبدأ بالغ الأهمية. يحظر الإسلام التجسس والبحث المتعمد عن العيوب المستورة أو الشؤون الخاصة للآخرين.

3. خطورة الغيبة:
"يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره. فقال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه." (أبو داود عن أبي هريرة)

الصورة القرآنية التي تُشبِّه الغيبة بأكل لحم الأخ ميتًا تُجسِّد البشاعة الأخلاقية لهذا الفعل.

4. مبدأ الحصانة الأخلاقية:
"إياك وما يُعتذَر منه." (الطبراني)
يُدخل هذا المبدأ مصفاةً أخلاقية قوية: قبل الكلام أو التصرف يُسأل الإنسان: هل سيستلزم هذا اعتذارًا؟ إن كان الجواب نعم، فالتحفظ المسلك الأحكم.

ترسي هذه الآيات والتعاليم منظومةً أخلاقية شاملة تحكم الأبعاد الخفية للحياة الاجتماعية. جماعة تُقيم هذه المعايير تحمي ليس فقط استقرارها الخارجي بل نزاهتها الداخلية أيضًا.

8. المقياس الإلهي: إعادة تعريف شرف الإنسان

بينما تناولت الأقسام السابقة السلوك داخل جماعة المؤمنين، يُوسِّع القرآن الآن النطاق ليشمل البشرية جمعاء. يُؤسِّس إطارًا كونيًّا للعلاقات الإنسانية متجذِّرًا في الأصل المشترك والتعارف المتبادل ومعيار الشرف المُحدَّد إلهيًّا.

في سورة الحجرات، يُذكِّر الله البشرية بأصلها المشترك:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات 13)

بتأكيد انحدار البشرية جمعاء من زوج واحد، يهدم القرآن أسس العنصرية والتفاخر القبلي والتراتبية الاجتماعية. فالتنوع في الشعوب والقبائل ليس سببًا للفرقة بل تصميم إلهي للتعارف والتفاهم والتعاون. تُدخل هذه الآية تحولًا ثوريًّا في مقياس القيمة. في الدنيا يتنافس الناس على الثروة والسلطة والجمال والمكانة. لكن القرآن يُعيد توجيه هذا التنافس نحو هدف أعلى وأكثر معنى:

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾

إن كان المقياس مُخلًّا فحتى النجاح الظاهر خسارة حقيقية. يستبدل القرآن المقاييس السطحية بمعيار واحد كوني: التقوى، الوعي الواعي بالله الذي يُشكّل النية والعمل معًا.

ويعمل السعي إلى التقوى على مستويين متشابكين:

- **البُعد الظاهر :**يتجلى في إحسان الأعمال والنزاهة في التعامل والعدل في الحكم والرحمة في العلاقات.
- **البُعد الباطن :**يتجذَّر في تزكية النفس. فبدون الإخلاص والوعي الداخلي تفقد الأعمال الظاهرة قيمتها الحقيقية.

وفي هذا الجزء يصف الله الجزاء الأعظم للفائزين في هذه المنافسة الإلهية. في سورة ق، يُصوِّر قُرب الجنة من المتقين:
﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ (31) ... مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ (ق 31، 33)

في قلب التقوى يقطن قلب يعود إلى الله دائمًا. هذا القلب المنيب هو محرك التحول. يُمسِّك المؤمن في رحلته مُرسِّخًا إياه في التواضع ومُجدِّدًا إخلاصه.

يُعيد القرآن تعريف الشرف الإنساني لا بوصفه شيئًا مُوروثًا أو مُكتسَبًا أو مُعروضًا، بل شيئًا يُزرَع في الداخل. في عالم هاجسه المقاييس الخارجية، يُعيد هذا المعيار الإلهي التوازن.

9. يقين الرزق

من أعمق دروس هذا الجزء: التحول في كيفية إدراكنا للرزق. يُؤسِّس القرآن أن الرزق ليس نتاج صدفة أو قوى السوق أو تفضل البشر، بل أمر مُقدَّر ومضمون في العالم الإلهي.

في سورة الذاريات، يُؤكِّد الله هذه الحقيقة بقسم قوي:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ (الذاريات 22-23)

شدة هاتين الآيتين لافتة. الله لا يُخبرنا بالرزق وحسب؛ بل يُقسِم بذاته ليُؤكِّده. والمقارنة بالغة القوة: كما لا يشك المرء في كلامه لا ينبغي أن يشك في يقين رزقه.

حين تترسَّخ هذه الحقيقة تُحوِّل رؤية المؤمن للعالم. يبدأ في إدراك أنه وإن تعامل مع الأسباب الظاهرة من أصحاب عمل وعملاء وأسواق، فهذه مجرد وسائل (أسباب) لا المصدر الحقيقي. المُرزِق الحق هو الله وحده.

يُحرِّر هذا الإدراك المؤمن من التساهل الخوَّاف. يمنع التضحية بالمبادئ والكرامة والإيمان في سبيل الرزق، لأن الرزق لا تتحكم به المخلوقات بل يضمنه الخالق.

ولفهم كيفية عمل الرزق في الحياة الإنسانية، يمكن النظر إليه عبر فئتين متكاملتين:
1. **الرزق غير المشروط (هبة الحياة):** يشمل الموهوب دون أي جهد منا، كالهواء الذي نتنفسه والتصميم المعقد لأجسادنا ونبضة القلب التي تُمسِك الحياة حتى قبل الولادة. هذا النوع تجلٍّ مباشر للرحمة الإلهية مستقل عن الفعل الإنساني.
2. **الرزق المشروط (ثواب السعي):** يشمل الأرزاق التي تستلزم جهدًا بشريًّا للوصول إليها. الجهد هنا مطلوب لكنه وسيلة لا ضمانة.

بينما يستوجب الرزق المشروط السعي، النتيجة لا يُحدِّدها الجهد وحده. يعمل المؤمن في إطار متوازن: الجسد يسعى والقلب يتعلق بالله.

التوكل الحق ليس هجر السعي، بل الانفصال عن الاعتماد عليه. المؤمن يعمل بجد ويُدرك أن النجاح يمنحه الرزاق وحده.

هذا المنظور القرآني يُعيد تعريف العلاقة بين الجهد والنتيجة. يُرسِّخ الثقة دون الغرور والتوكل دون السلبية. في عالم تسوده القلقة على الرزق، تُرسِّخ هاتان الآيتان المؤمن في اليقين: ما كُتب لك سيصلك دون أن تتنازل عمَّن أنت.

10. الوعي الأعلى: العيش في ظل القُرب الإلهي

تبلغ رحلة التقوى ذروتها في إدراك عميق: الله ليس بعيدًا. هو أقرب إلينا منا إلى أنفسنا. هذا الوعي يُحوِّل الإيمان من مفهوم إلى وعي حي مستمر. في سورة ق، يُعلن الله:
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ (ق 16)

ترسي هذه الآية أعمق أساس للتقوى: الوعي بأن الله يعلم ويرى ويسمع كل شيء، الأفعال الظاهرة والأفكار الباطنة معًا. هو يعلم حتى الهمسات الصامتة للنفس قبل أن تصير كلامًا أو أفعالًا. هذا ليس مجرد علم؛ بل قُرب: قُرب الوعي الكامل والسلطة والحضور.

حين تستقر هذه الحقيقة في القلب تُنتج تحولًا عميقًا. يصبح المؤمن حذرًا في الخلوة كما في العلن، دقيقًا في النية كما في العمل، متسقًا في حالاته الخفية كما في المرئية.
هذا جوهر الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

عند هذا المستوى، لم تعد التقوى نظريةً؛ بل صارت بوصلة داخلية توجِّه كل قرار.

- نحرس كلامنا لأنه يسمع.
- نُطهِّر أعمالنا لأنه يرى.
- نُهذِّب نياتنا لأنه يعلم.

قد يفلت الإنسان من أعين البشر لكن لا يفلت أبدًا من نظر الله. يصبح هذا الوعي حارسًا داخليًّا: يكفُّ عن الذنب دون ضغط خارجي، ويُلهِم الخير دون حاجة إلى تقدير، ويحمي الإخلاص من الرياء.
في عالم يُقسِّم فيه الناس حياتهم بين العام والخاص، يبقى المؤمن ذاته في كليهما، لأن الله حاضر دائمًا.

الخاتمة

حين نتأمل جواهر الجزء السادس والعشرين، تبرز موضوعة موحِّدة بوضوح وعمق: سيادة الله وصدق العبودية الإنسانية المتجذِّرة في الوعي الدائم بقربه.

رأينا أن الله هو الرزاق المطلق، ومع ذلك يأمرنا بالسعي في سبيله لا من باب الاحتياج بل ابتلاءً لإخلاصنا. كل لحظة في الحياة وكل نعمة نمتلكها جزء من أمانة إلهية، وكل عمل فرصة للوفاء بتلك الأمانة تحت رقابة الله الواعية.

من أدق الأفعال كفّ اللسان عن نشر إشاعة، إلى أكثرها وضوحًا كإقامة العدل وبناء المجتمعات وزراعة الأرض .كل عمل يغدو تعبيرًا عن العبادة حين يُؤدَّى بوعي بالله. وهكذا تتحول الحياة ذاتها إلى عمل عبودية متواصل.

هذا الوعي: أن الله يعلم ما نُعلن وما نُخفي وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، أساس التقوى الحقيقية. يُهذِّب النية ويُنضبط السلوك ويُوحِّد حياة المؤمن العامة والخاصة.

بمحاذاة أخلاقنا مع هذه التوجيهات الإلهية نرتقي من مجرد ساكنين على الأرض إلى خلفاء حقيقيين على رسالتها. تعاملاتنا تعكس إيماننا وأخلاقنا تصون مجتمعاتنا ووعينا الداخلي يُرسِّخ إخلاصنا.

وعد الله حق. ولمن يعود إليه بقلب مُنيب صادق، النهاية ليست النجاح وحسب بل القرب من الذي كان دائمًا قريبًا.

جواهر الجزء السابع والعشرين: من السموات المتسعة إلى القلب المتواضع: منهج موحَّد للتميز الروحي والحضاري

(الذاريات 51: 31 - الحديد 57: 29)

مقدمة

الجزء السابع والعشرون من القرآن الكريم نسيج بديع يُضفِّر أشمل نطاقات الوجود بأكثر أبعاد النفس خصوصيةً وحميمية. يبدأ بتوجيه أنظارنا إلى النجوم وحدود الكون المتمدِّدة، مُثبِّتًا أن خالق الكون هو ذاته مؤلِّف الوحي.

وعبر السرد الممتد في سور الذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة، يُقدِّم الجزء أكثر من مجرد عزاء روحي؛ إذ يُقدِّم منهجًا متكاملًا للنجاح الإنساني. نتعلم أن العبادة الحقيقية لا تنفصل عن الخلافة، وأن العدل الإلهي لا بد أن يُحرَس بالتوازن الأخلاقي والقوة المادية معًا. يستكشف هذا الفصل عشر "جواهر" من هذه الآيات: دروس صُمِّمت لإيقاظ العقل وتهذيب الشخصية وتمكين الأمة من القيادة بالكتاب والحديد معًا.

1. اتساع الكون

يحتوي القرآن على إشارات عديدة إلى عالم الطبيعة، تعكس السنن الإلهية التي أرساها الله لحكم خلقه. وهذه الإشارات معدَّة لإلهام المسلمين بالدراسة والاستكشاف والتميز في جميع التخصصات العلمية، مُمكِّنةً إياهم من القيادة بالمعرفة.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ (48) وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات 47-49)

تُبرز هذه الآيات اتساع الكون والسطح الصالح للسكن على الأرض وازدواجية الخلق كله. إنها تُذكِّر بأن دراسة العالم الطبيعي من أعمق السبل لمعرفة الله. فطلب معرفة الخالق دون التأمل في خلقه لا يُفضي إلا إلى فهم محدود لصفاته.

لقرون طويلة، كان الإجماع العلمي السائد يرى الكون ساكنًا. وحتى أعظم العقول قد تتعثَّر حين تُقدِّم العقيدة السائدة على بيانات دقيقة. ففي عام 1917م، حين صاغ ألبرت أينشتاين معادلاته للنسبية العامة، كانت حساباته الأصلية تُشير إلى كون متمدِّد. غير أنه أدخل "ثابت الكون" cosmological constant" بصورة تحكمية ليُجبِر معادلاته على إظهار كون ساكن توافقًا مع النموذج السائد.

وفي عام 1924م، بيَّن الرياضي الروسي الشاب ألكسندر فريدمان أن معادلات أينشتاين ذاتها تتنبأ بكون ديناميكي لا بد أن يكون إما متمدِّدًا أو مُنكمِشًا. واعترف أينشتاين في نهاية المطاف بخطئه، مُسمِّيًا ثابت الكون "أكبر أغلاطه". ثم جاء إدوين هابل عام 1929م بدليل رصدي على أن الكون في حالة توسع.

يحمل هذا التطور التاريخي درسًا بالغًا لشباب المسلمين: الإجماع العلمي ليس معصومًا. حين تبدو الاستنتاجات متعارضة مع القرآن ينبغي ألا يكون الرد قبولًا أعمى أو رفضًا أعمى، بل تحقيقًا مُتأنِّيًا. كفريدمان، لا ينبغي أن تُرهِبنا السلطة الراسخة، بل يجب أن نسعى إلى الحق بنزاهة فكرية.

أما الأرض فقد صاغها الله بشكل فريد لعمران البشر. فالحياة لا تزدهر على كوكب صخري بحت. فأوجد الله التربة الخصبة وأودع الينابيع الخفية وشقَّ الأنهار عبر الأرض، وأودع في باطنها معادن متنوعة بخصائص مميزة تُغذِّي الابتكار الإنساني.

ويُذكِّرنا الله كذلك بطبيعة الخلق المزدوجة، وهو مفهوم يمتد عبر مستويات متعددة من الوجود من البيولوجي إلى دون الذري:

- الذرة تتكون من شحنات موجبة وسالبة.
- البروتونات مؤلَّفة من كواركات مُزدوَجة.
- الحمض النووي DNA مُهيكَل على شكل حلزون مزدوج مبني على تسلسلات مُزدوَجة.

هذا النمط المتكرر من الازدواجية يعكس نظامًا أعمق في الخلق يُشير إلى تصميم مُدبَّر لا عشوائية.

وكلما تعمَّقنا في دراسة الخلق تتعمق إدراكاتنا لعظمة الله التي لا تحدُّها حدود. وحين نعترف حقًّا به خالقًا وراعيًا يتعمق إدراكنا له مُلزِمًا إيانا بالتوجه إليه بتواضع. ويختتم الله هذا المقطع بدعوة قوية:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (50) وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ (الذاريات 51: 50-51)

وهكذا تبلغ الرحلة من مراقبة الخلق ذروتها في حركة روحية حاسمة: الفرار إلى الله وحده، والاعتراف بوحدانيته، ورفض جميع أشكال الشرك، والاستجابة للمعرفة بإخلاص صادق.

2. وجوب العبادة: غاية الخلق

في سورة الذاريات، يُحدِّد الله غاية الوجود بوضوح لا يحتمل الالتباس:

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ (56) مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ (الذاريات 51: 56-57)

كثيرًا ما تُترجَم "العبادة" ترجمةً ضيِّقة، غير أن جذرها "عبد" يدل على الانتماء الكلي والخضوع لسيِّد. وفي المنظور الإسلامي، كون الإنسان عبدًا لله ليس حالة إذلال؛ بل أرقى مراتب الشرف. إنها تُحرِّر الإنسان من جميع أشكال العبودية الزائفة: للأنا والثروة والمكانة وموافقة المجتمع، وتُعيد توجيه القلب نحو مولاه الحق.

وهذه العلاقة من العبودية ليست أحادية الجانب. الله في رحمته اللانهائية يُقدِّم ما يمكن وصفه بـ" العهد الإلهي". رغم أنه المالك الأصلي لحياتنا وأموالنا، يعرض أن "يشتريها" منا مقابل النجاح الأبدي. يُعلن الله في سورة التوبة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ (التوبة 9: 111)

إسناد الحياة والمال إلى الله ليس خسارة؛ بل التحقق الأعمق من قيمتهما الحقيقية. ما يُهدى إلى الإلهي لا يتضاءل؛ بل يُعلى ويُحفظ ويُعاد بصورة أعظم بكثير مما أُعطي. يُحوِّل هذا التبادل حياة المؤمن إلى قربان هادف. كل فعل وتضحية وخيار يصبح جزءًا من عهد واعٍ مع الله، نتيجته مضمونة من أصدق القائلين. أن تكون عبدًا حقيقيًّا لله يعني الائتمان خليفةً على الأرض. يُحوِّل هذا الدور العبادة من تفانٍ سلبي إلى مسؤولية فاعلة. يُطالب المؤمن بـ:

- **تنمية الموارد وتطويرها :**توظيف العقل والكفاءة للاستكشاف والتكرير والانتفاع من موارد الأرض.
- **إقامة العدل :**إنشاء منظومات تعكس العدل الإلهي وإزالة عوائق الظلم التي تحجب وصول الحق.
- **طلب المعرفة :**الانخراط في العلوم والتكنولوجيا والصناعة عبادةً حين تنسجم مع غرض إلهي.

وفي هذا الضوء، بناء الحضارة ذاته يغدو تعبيرًا عميقًا عن العبادة: إيمان لا يُحصَر في الشعائر بل يتجلى في بناء عالم عادل وعالِم وواعٍ بالله.

3. الراحة الإلهية: العثور على القوة في نظر الله

الالتزام بأن تكون عبدًا حقيقيًّا لله والوفاء بالمسؤولية الثقيلة للخلافة لا يضمن حياةً سهلة. بالعكس، هذه الدنيا صُمِّمت ساحةً للابتلاء لا مكانًا نهائيًّا للجزاء. النمو كثيرًا ما يستلزم احتكاك الانزعاج، وهذه الرحلة تستوجب صبرًا عميقًا.

غير أن الله في لحظات الإرهاق والوحدة والتضحية الصامتة يمنح المؤمن مصدر عزاء لا نظير له. يُطمئنه أن كفاحه ليس خافيًا ولا مُهمَلًا، لأنه دائمًا تحت رعايته المباشرة:

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ (الطور 52: 48-49)

عبارة "بأعيُننا" من أكثر التعبيرات حميميةً في القرآن. لا تُوحي بالمراقبة وحسب بل بالحماية والرعاية والاهتمام الإلهي. حين يصعب مسلك الصلاح ويبدو العالم لامُبالِيًا بتضحياتك، يُذكِّرك الله بأن كفاحك يشهده الوحيد الذي يهمُّ اعترافه حقًّا.

أن تكون "بأعيُن الله" يعني:

- لستَ منسيًّا: كل دمعة خفية وكل جهد غير مرئي معلوم ومُسجَّل.
- أنت محمي: الذي ائتمنك على هذا المسلك لا يتركك عليه.
- قيمتك مرتفعة: صبرك قد استحق اهتمام الخالق.

تختتم الآية بتقديم الدواء العملي للقلب المرهق: التسبيح الدائم. بتحميده حين نقوم وفي ساعات الليل الهادئة نُعيد ضبط قلوبنا ونستعيد تركيزنا الروحي.

وذكر تسبيحه عند "إدبار النجوم" بالغ العمق. يلتقط اللحظة الانتقالية من الظلام إلى النور، تلك اللحظة الهادئة قبيل الفجر. تذكير يومي بأنه كما يُفضي الليل حتمًا إلى طلوع الشمس، يعقب الفرجُ المشقةَ بيقين. وهكذا، صبر المؤمن ليس تحملًا سلبيًّا بل حالة نشطة من التواصل. " العهد الإلهي" يستمر بهذا الذكر المتواصل، مُحوِّلًا الشدة إلى ارتقاء والمثابرة إلى ضرب جميل من العبادة.

4. طريق التميز: الإخلاص لا الكمال

يُعرِّف الله المحسنين، المستحقين لأعظم الجزاء، ليس بوصفهم أناسًا معصومين بل من يسعون للحفاظ على النزاهة باجتناب الكبائر حتى وإن وقعوا أحيانًا في صغائر:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (31) ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ (النجم 31-32)

لسلوك طريق الإحسان لا بد للمؤمن من معرفة الحدود التي رسمها الله. والتأمل في القرآن يُمكِّننا من تحديد كبائر الإثم والفواحش التي يجب اجتنابها بوعي:

الكبائر:

1. الشرك: الإشراك بالله (النساء 4: 48)
2. إضاعة الصلاة (مريم 19: 59؛ المدثر 74: 42-43)
3. القتل: أخذ النفس ظلمًا (المائدة 5: 32)
4. الربا: أكل الفائدة الربوية (البقرة 2: 278-279)
5. الاستغلال: أكل مال اليتيم (النساء 4: 10)
6. القذف: رمي المحصنات (النور 24: 4)

7. الخيانة: نقض العهود (آل عمران 3: 77)
8. المسكرات والميسر (المائدة 5: 90-91)
9. القنوط: فقدان الأمل في رحمة الله (يوسف 12: 87؛ الحجر 15: 56)
10. عقوق الوالدين (مريم 19: 14؛ لقمان 31: 14-15)
11. قطع الأرحام (محمد 47: 22-23)
12. شهادة الزور والكذب (البقرة 2: 283)
13. الفرار من الزحف (الأنفال 8: 15-16)

الفواحش:
1. الزنا (الإسراء 17: 32)
2. عمل قوم لوط (الأعراف 7: 80)
3. القول على الله بغير علم (الأعراف 7: 33)

وتختتم الآية بتحذير قوي: "فلا تزكوا أنفسكم." هذه دعوة إلى التواضع. فبينما نستطيع مراقبة الأفعال الظاهرة، الله وحده يعلم علم اليقين بالقلب، الذي هو مقر التقوى.

علم الله بنا ليس مقتصرًا على الحاضر؛ بل هو جوهري وشامل. فقد علم جوهرنا حين كنا "ترابًا من الأرض" وأشرف على تطورنا في الأرحام. هو وحده يعلم كفاحنا ونياتنا وإخلاصنا. وبالتالي هو وحده مؤهَّل للحكم على الحال الحقيقي للقلب.

الحكم البشري محدود بالمظاهر. حتى حين نشهد صلاحًا عظيمًا في الآخرين، نتحاشى الادعاءات المطلقة بالنقاء. بل نقول: "نحسبهم من أهل التقوى والله أعلم." هذا المنهج يحمي المؤمن من الغرور الروحي ويُعيد التركيز نحو رحلته الخاصة، ساعيًا إلى المغفرة الواسعة لله.

5. المعجزة المتاحة: قرآن لكل قلب

القرآن ليس دليلًا مشفَّرًا محجوزًا للعلماء ولا حكمته مُعلَّقة وراء طبقات تفسير بعيدة المنال. فالله في رحمته اللانهائية أنزل القرآن كتابًا واضحًا: دليلًا شاملًا متاحًا للبشرية جمعاء.

في سورة القمر، بعد سرد أقدار الأمم الغابرة: قوم نوح وعاد وثمود ولوط، يُختم السرد بحقيقة لافتة وسؤال متكرر قوي:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر 54: 17، 22، 32، 40)

تكرار هذه الآية أربع مرات داخل سورة واحدة هو تأكيد إلهي عميق. يتحدى مباشرةً مقولة أن القرآن عسير جدًّا على المؤمن العادي للتعامل معه.

ومع ذلك، كثير من المسلمين اليوم يتحاشون التفاعل العميق مع القرآن. فثقافة "المتخصصون فقط" أوجدت حاجزًا غير ضروري، وقادت الأغلبية إلى الاعتقاد بأنهم دون إتقان العربية الكلاسيكية أو التفسير المتقدم غير مؤهلين للتأمل في كلمات الله.

وبينما يستلزم الاستنباط القانوني التفصيلي والتحليل اللغوي المتقدم تخصصًا أكاديميًّا، فإن غايات القرآن الجوهرية: الهدى والشفاء والذكر، دعوة مفتوحة لكل قلب صادق. الاعتقاد بأن القرآن للخبراء وحدهم بات أحد أعظم الحواجز بين الأمة والقوة التحويلية للوحي.

ا القرآن لا يطلب مؤهلات أكاديمية بقدر ما يطلب قلبًا سليمًا. حين يسأل الله "فهل من مُدَّكِر؟" إنه ينادي على:

- **الإخلاص** :الإقبال على النص بنية صادقة لأن يُهدى ويتغير.
- **التدبر** :تمكين الآيات من أن تتردد صداها مع تجارب الحياة الشخصية وكفاحاتها.
- **التواضع** :الاعتراف بأن الخالق يخاطب خليقته مباشرةً.

حين تُستوعَب إمكانية الوصول إلى القرآن يستعيد المؤمن علاقةً حيةً معه. ينتقل من الاستماع السلبي إلى التفاعل النشط، داخلًا في حوار مستمر شخصي مع الله.

6. المعلِّم الحقيقي للقرآن

يُقدِّم مطلع سورة الرحمن تسلسلًا عميقًا مُثيرًا للتأمل:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ (1) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (2) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (3) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن 55: 1-4)

منطقيًّا قد يُتوقَّع ذكر خلق الإنسان أولًا ثم تعليم القرآن. غير أن الله يُقدِّم تعليم القرآن على خلق البشر. يُثير هذا الترتيب المقصود التأمل ويطرح سؤالًا جوهريًّا: لمن عُلِّم القرآن قبل وجود البشر؟

فرضية مقنعة متجذِّرة في الأدلة القرآنية تُشير إلى أن هذا التعليم يتعلق بالجوهر الإنساني الأصيل: النفس الواحدة التي ينشأ منها البشر كلهم. والقرآن يُؤكِّد مرارًا أن البشر جميعهم استُخرجوا من نفس واحدة أصلية (النساء 41؛ الأنعام 98؛ الأعراف 189؛ الزمر 6):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء 4: 1)

فإن كان القرآن قد عُلِّم لهذا الجوهر الأصلي، ويمكن أن يُستأنس من ذلك بأن رسالة القرآن مودَعة في البصمة الروحية الفطرية لكل إنسان.

إن كنا جميعًا قد عُلِّمنا القرآن في حالتنا الأصلية، لماذا لا نتذكره؟ الجواب قد يكمن في الحجاب الذاتي الذي يُخفي ذاكرة الميثاق الأصلي حين جمع الله ذرية آدم وسأل:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (الأعراف 7: 172)

كما لا نتذكر هذا الميثاق بصورة واعية ومع ذلك نحمل أثره فطرةً، قد نحمل أيضًا "صدىً" للقرآن في نفوسنا. هذا الأثر ما قبل الأرضي يسبق الذاكرة الواعية لكنه يُشكِّل إدراكنا الفطري للحق.

وللتواصل مع هذا الرنين الداخلي، يُوجِّهنا القرآن نحو تزكية النفس:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (الشمس 91: 7-9)

النجاح إذن يُعرَّف بالتزكية: تطهير النفس. وحين يُعترَف بالله معلِّمًا حقيقيًّا، يتضح أن مدى تردُّد الإنسان مع القرآن مرتبط ارتباطًا مباشرًا بحال كيانه الداخلي. كلما كانت النفس أنقى كلما كان اتصالها بالكلمة الإلهية أعمق.

يُقدِّم هذا المنظور عدسةً أعمق لفهم الحديثين المعروفين:
"يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتقِ ورتِّل كما كنت تُرتِّل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها." (أبو داود والترمذي)
"يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه." (ابن ماجه وأحمد)

"المنزلة" هنا قد تتجاوز مجرد الحفظ. إنها تعكس ارتقاء نفس أتاحت للقرآن أن يخترق حقيقتها الباطنة ويُطهِّرها. ومن حفظ القرآن ظاهرًا دون استيعاب هدايه قد يجد ارتقاءه محدودًا. في المقابل، من عاش بمعانيه سيجد الآيات تتدفق طبيعيًّا من داخله، لأنها لم تكن في يوم من الأيام خارجه.

القرآن إذن ليس مجرد نص يُتعلَّم؛ بل حقيقة تُكتشَف. والله ليس فقط مُنزِّل القرآن؛ بل معلِّمه الحق، يُرشِد كل نفس إلى ما كانت دائمًا معدَّة للإدراك.

7. الفئات الثلاث من البشر

حين تقع الواقعة، يوم القيامة، تُفكَّك رتبة الدنيا وتنقسم البشرية انقسامًا نهائيًّا إلى ثلاث فئات متمايزة.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (6) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (الواقعة 56: 1-7)

مفتاح لغوي :في الآية 7، يظهر العدد "ثلاثة" بعد المعدود "أزواجًا"، مُفيدًا الحصر. وهكذا "أزواجًا ثلاثة" تُوحي بمعنى "ثلاث فئات فحسب"، مُؤكِّدًا الحصرية. فلو أن التركيب عكسي: "ثلاثة أزواج"، لأفاد التعداد دون حصر المجموع. وهذه البنية اللغوية الدقيقة تُعزِّز حقيقةً حاسمة: في ذلك اليوم تتقلص البشرية إلى ثلاث فئات نهائية لا أكثر ولا أقل.

المصائر الثلاثة:

1. السابقون (أصحاب المقام الأعلى)
هم المؤمنون النخبة الذين لم يسيروا على الطريق وحسب، بل تسابقوا في الإيمان والإخلاص والتضحية. وهم المقرَّبون.

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ (10) أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (11) فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ (الواقعة 10-14)

2. أصحاب اليمين
هم عموم المؤمنين: من أقاموا الإيمان والعمل الصالح. جزاؤهم حياة سلام ووفرة وراحة دائمة.

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ (27) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (31) وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة 56: 27-33)

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ (الواقعة 56: 39-40)

3. أصحاب الشمال
هم من أنكروا الحق وعاشوا في عصيان الهداية الإلهية. مصيرهم تحذير صارم من الغرور والغفلة والانغماس دون محاسبة.

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ (41) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (43) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (الواقعة 41-47)

ملاحظة لافتة تبرز من ديموغرافية هذه الفئات:

- **السابقون** كثير منهم من الأوليين وقليل من الآخرين، مما يُوحي بأن بلوغ أعلى مراتب التميز الروحي يزداد ندرةً مع الزمن.
- في المقابل، **أصحاب اليمين** كثيرون من الأوليين والآخرين معًا: طمأنينة بالغة الدلالة على أن باب النجاة يبقى مفتوحًا للجموع المؤمنة في كل عصر.

8. القوة حارسة العدل: رمزية الحديد

الغاية الأولى من وحي الله استئصال الظلم، سواء تجاه الله بإنكار سلطانه أو تجاه خلقه بالاضطهاد. غير أن سورة الحديد تُقرّر حقيقةً صارمة: الحق دون وسائل الدفاع عنه كثيرًا ما يُكبَت. ولضمان وصول الرسالة الإلهية إلى كل نفس وحماية الضعيف من المعتدي، لا بد للعدل من الوسائل التي تُقيمه وتحميه.

ويتجلى هذا الترابط العميق بين الوحي والعدل والقوة المادية في آية محورية:
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد 57: 25)

ترسم هذه الآية إطارًا متكاملًا لمجتمع عادل وفاعل. الله لم يُرسِل الوحي معزولًا؛ بل قدَّم المكوِّنات الضرورية لضمان تطبيقه وصونه .ويبرز ثلاثة عناصر جوهرية:

1. **الكتاب :**الوحي الإلهي الذي يُقدِّم الهداية والغاية والإطار الأخلاقي للحياة: مصدر الحق الذي يُحدِّد الصواب والخطأ.
2. **الميزان :**منظومة العدل والتوازن الأخلاقي التي تضمن الإنصاف في التفاعلات الإنسانية وتمنع الخلل والاضطهاد الاجتماعي.
3. **الحديد :**القوة المادية اللازمة لإقامة العدل: القدرة العسكرية والتطوير الصناعي والبنية التحتية والتقدم التكنولوجي.

وذكر أن الله "أنزل الحديد" لافت بصفة خاصة. فهو يرفع الحديد فوق كونه مادةً صرفة، مُؤطِّرًا إياه موردًا إلهيًّا ضروريًّا للحضارة الإنسانية. فالحديد لا يرتبط بالدفاع والردع وحسب، بل بالبناء والنقل والطب والصناعة: الأعمدة التي تُبنى عليها المجتمعات المتقدمة.

ترسم هذه الآية أن العدل لا تُصونه المُثُل وحدها. فهي تستلزم القدرة على حماية الحق والدفاع عن الضعيف ومقاومة الظلم. فبدون القوة، حتى أنبل المبادئ يمكن إخمادها.

وتختتم الآية بالتأكيد على أن من يُوظِّفون هذه الموارد الإلهية لإقامة الحق هم الناصرون الحقيقيون لله ورسله. وهذا يُوحي بمسؤولية جماعية عبر مجالات متعددة:

- **التواصل :**إيصال رسالة الكتاب بوضوح وحكمة.
- **القضاء :**إنشاء منظومات تعكس العدل الإلهي وتحمي الحقوق.
- **الصناعة والدفاع :**تطوير القدرات العلمية والتكنولوجية والعسكرية اللازمة لصون العدل.

يُثبِّت التاريخ باستمرار خللًا جوهريًّا: مجتمع يمتلك الكتاب لكنه يفتقر إلى الحديد يصير عُرضةً للهيمنة والظلم الخارجي، في حين مجتمع يمتلك الحديد لكنه يفتقر إلى الكتاب والميزان يصير قوةً للاضطهاد. النجاح الحقيقي في دمج الثلاثة.

حضارة مسلمة تُهمِل التقدم العلمي أو القوة الصناعية أو القدرة الاستراتيجية تُهمِل في الحقيقة موردًا أنزله الله صراحةً لصون العدل. وبالتالي، السعي إلى القوة حين تُوجِّهه الرسالة ليس مُباحًا فحسب؛ بل هو مكوِّن من مكوِّنات الوفاء بالأمانة الإلهية على الأرض.

9. عضلة القوة: التضحية المالية والقرض الحسن

كما يستلزم العدل قوةً، والقوة قدرةً مادية، فإن القدرة المادية تعتمد بدورها على الموارد المالية. غير أن الإسلام يُؤسِّس نموذجًا مختلفًا اختلافًا جوهريًّا عن المنظومات الحديثة القائمة أساسًا على الاستخراج الإلزامي. إنه يدعو إلى التضحية الطوعية المتجذِّرة في الاعتراف بأن الثروة كلها ملك الله في نهاية المطاف. يُدعى المؤمنون إلى الإنفاق لا بوصفهم مُلَّاكًا بل أُمناء:

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (الحديد 7)

تُعيد هذه الآية صياغة الثروة كليًّا. ما نمتلكه ليس ملكًا حقيقيًّا لنا؛ بل أمانة بأيدينا. والإنفاق إذن ليس خسارة بل وفاء بتلك الأمانة.

ويُميِّز القرآن بين من يُعطون حين تنجح الجماعة ومن يُعطون حين تكون القضية هشَّة. وحفاظًا على دافعية المؤمنين، يُبرز الله المكانة الخاصة لـ"المبادرين المبكِّرين"، من يُضحون والنتيجة لا تزال غير محسومة:

﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ (الحديد 10)

وبينما يُشير "الفتح" تاريخيًّا إلى فتح مكة، المبدأ كوني. المساهمة حين تكون الأمة ضعيفة ومُفتقِرة للموارد أو ساعيةً إلى إرساء نفسها تحمل ثقلًا لا يُضاهيه ما يأتي بعد تحقق النجاح.

وليزيد الله من دافعية المؤمن، يُقدِّم صورةً ماليةً مذهلة، واصفًا الإنفاق في سبيله قرضًا منه:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ (الحديد 11)

هذا من أكثر المفاهيم مُواضِعةً في القرآن. الله الغني يمتلك السموات والأرض. ومع ذلك يستخدم لغة المقترِض ليدعونا إلى العطاء. كأنه يقول: "أعطيتك رأس المال وأنا أطلب منك الآن إعادة جزء منه لأُعيده إليك مُضاعَفًا".

هذا "القرض الحسن" هو وقود الحديد المُشار إليه في القسم السابق. فبدون التضحية المالية لا تقوم أركان الحضارة العادلة:

- لا بحث وتطوير لبناء القوة الصناعية.
- لا منظومات أمان اجتماعي للحفاظ على توازن العدل.
- لا قدرة دفاعية لحماية الضعيف وصون الحق.

بصياغة الإنفاق قرضًا يضمن الله تسديده، يُزيل القرآن خوف الخسارة ويحلُّ محله يقين الكسب. يُعلِّم أن الثروة الحقيقية ليست ما يُجمَع بل ما يُستثمَر مع الله.

في هذا الضوء، قوة الأمة لا تُقاس بما تكتنزه بل بما تستعد لإعطائه. الثروة المُقرَضة لله هي الثروة التي تبني العدل وتُمسِك القوة وتُؤمِّن النجاح في الدنيا والآخرة.

10. النداء إلى القلب: لقد حان الوقت

بعد معالجة الأبعاد الشاسعة للوجود: اتساع الكون وأسس العدل وضرورة القوة، يُعيد الله التركيز على أكثر مكونات أي حضارة أهميةً: القلب الإنساني.

الآية التالية من أكثر التذكيرات رقةً وأشدِّها وقعًا في القرآن كله:

﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد 16)

هذا نداء إلهي للاستيقاظ. الله يسأل المؤمن برفق: إلى متى ستنتظر؟ كم من الهداية تحتاج قبل أن يستجيب قلبك؟

تُحذِّر الآية من أحد أخطر الأمراض الروحية: قسوة القلب. هذا الداء لا يحدث فجأة؛ بل يتطور تدريجيًّا حين يمر الوقت دون ذكر أو تأمل أو تجديد. حتى يصبح القلب مقاومًا للحق، لا يتأثر بعد بالتذكيرات التي كانت تُحرِّكه يومًا.

وقوة هذه الآية التحويلية تتجلى أجلى تجلٍّ في حياة الفضيل بن عياض (ت. 187هـ).
قبل أن يصبح عالمًا وزاهدًا أسطوريًّا، كان الفضيل قاطع طريق مشهورًا مرهوبًا في خراسان. وفي ليلة بينما كان يتسلق جدارًا لارتكاب سرقة، سمع صوتًا قريبًا يتلو هذه الآية بالذات: "ألم يَأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله".

ضربته الكلمات كصاعقة. وفي ظلام تلك الليلة، أجاب الفضيل: "بلى يا ربي، لقد آن"!

لقد ترك حياة الجريمة في تلك اللحظة نفسها. لم يقتصر الأمر على أنه توقف عن السرقة؛ بل بدأ يبحث عمّن ظلمهم ليردّ إليهم حقوقهم ويطلب منهم العفو والسماح. ثم هاجر إلى مكة، حيث تفرّغ للعبادة وطلب علم الحديث. ذلك الرجل الذي كان يومًا خطرًا على المسافرين أصبح وليًّا من أولياء الله، وعالمًا لا تزال حكمته تُقتبس بعد أكثر من ألف عام.

ولأن الفضيل قد رأى أحلك جوانب النفس البشرية، اتسمت تعاليمه بعد توبته بإخلاص عميق وخوف شديد من الله. ومن أشهر أقواله:

•في الرحمة: " والله، لا يحلّ لك أن تظلم حتى كلبًا أو خنزيرًا بغير حق، فكيف تؤذي مسلمًا؟«
•في الصدق مع النفس» :أكذب الناس من أنكر ذنوبه، وأجهل الناس من أعجب بعمله، وأعلم الناس بالله أشدّهم له خشية«.
•في مجاهدة النفس» :لا يكون العبد كاملًا حتى يكون دينه هو الحاكم على هواه، ولا يهلك حتى يكون هواه هو الحاكم على دينه«.

إن قصة الفضيل تجسّد حقيقة هذه الآية: فالتغيير لا يحتاج إلى عمرٍ كامل، بل يحتاج إلى لحظة صدق. وكما حدث مع الفضيل، فإن كل مؤمن يصل في النهاية إلى لحظة فاصلة في حياته، لحظة يصبح فيها الحق واضحًا لا يمكن إنكاره. ويبقى السؤال: هل سنستجيب للنداء؟ وإذا سمعناه، فهل سنقرر أخيرًا أن الوقت قد حان؟

الخاتمة:

إن الرحلة مع الجزء السابع والعشرين تقودنا إلى حقيقة واحدة لا مفرّ منها: فمع أن الله قد خلق كونًا بالغ التعقيد، ومنحنا من الموارد ما يمكن أن نبني به حضارات عظيمة، فإن الحدث الأعظم في النهاية هو لقاء الخالق سبحانه.

لقد رأينا أن اتساع السماوات آية من آيات قدرته، وأن «القرض الحسن» اختبار لصدق الثقة بالله. ومع ذلك، فإن كل القوة الصناعية والمعرفة العلمية في العالم لا تستطيع أن تنقذ قلبًا قسا مع مرور الزمن. إن جواهر هذا الجزء تذكّرنا بأن الإحسان ليس أن يكون الإنسان بلا خطأ، بل أن يكون صادقًا: يعود دائمًا إلى طريق التزكية، ويستجيب للنداء الإلهي :﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ**﴾.

ومع ختام هذا الفصل، فلنكن من أهل القرآن حقيقةً لا لفظًا فقط. نسأل الله أن يجعلنا من السابقين، الذين جمعت حياتهم بين العبادة والعمران، وظلت قلوبهم حيّةً رقيقةً بذكر الله.

جواهر الجزء الثامن والعشرين :من القرب الإلهي إلى مسؤولية الإنسان عن نفسه ومجتمعه

(سورة المجادلة 58:1 إلى سورة التحريم 66:12)

المقدمة

نزل القرآن الكريم على مدى ثلاثٍ وعشرين سنة، متفاعلًا بصورة مباشرة مع الواقع الحيّ لجماعةٍ كانت تُبنى من الأساس. ويقف الجزء الثامن والعشرون شاهدًا متميزًا على هذا الوحي، إذ يقدم صورة إنسانية عميقة لمعنى أن يعيش الإنسان في علاقة واعية مع الله، ومع الآخرين، ومع بيته وأسرته.

وما يتجلّى في هذا الجزء هو رؤية للإسلام تجمع بين السعة والحميمية في آنٍ واحد. فهو يبدأ بسماع الله لشكوى خاصة من امرأة واحدة، ثم يمتد إلى مسؤولية كل مؤمن عن حماية السلامة الروحية لأهل بيته. وبين هذين الطرفين، ينتقل الجزء بين آداب الجود والسعة، وأخلاق العدل مع الآخرين، وانضباط الطاعة الواعية، وحقيقة الخلق الهائل الذي لا يزال علم الإنسان في بدايات إدراك سعته.

اقرأ هذه الصفحات بتأنٍّ وتدبّر. دع مثال الأنصار يتحدى سخاءك. ودع صورة الجبل الخاشع المتصدع من القرآن توقظ قلبك. إن مطالب هذا الجزء عظيمة، ولكن العون الإلهي الذي يصاحبها أعظم.
وتتخلل هذه التأملات كلها تذكرة دائمة بحقيقة الله سبحانه: السميع، الغفور، الذي أحاط علمه بكل شيء.

1. قرب الله وسماعه لكل ما تقول

تتجلى إحاطة الله الشاملة بكل شيء بوضوح في افتتاح سورة المجادلة. ففي هذا المشهد القوي، يظهر قرب الله وسمعه ورحمته في أبهى صورة. فلم يكن الأمر أن الله سمع حوار النبي ﷺ مع امرأة مؤمنة تشكو أمرًا شخصيًا عميقًا فحسب، بل استجاب بالهداية والعدل والفرج.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ المجادلة 58:1

تؤسس هذه الآية لحقيقة عميقة: لا صوت أخفض من أن يسمعه الله، ولا همّ أصغر من أن يلتفت إليه، ولا مظلمة أبعد من أن تبلغ سمعه سبحانه.

ومن اللافت أن سورة المجادلة تتميز بذكر اسم "الله" في كل آية من آياتها. وهذه السمة العجيبة تعزز الرسالة المركزية للسورة: أن الله حاضر، عليم، مطّلع، قريب، ومحيط بكل ما يقال ويفعل.

ثم تحذر السورة الذين يتناجون سرًّا، ظ
انين أن كلماتهم خفية لا يعلمها أحد. فيزيل الله هذا الوهم تمامًا، ويقرر حضوره الدائم وعلمه الكامل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة)7

هذه الحقيقة لا تترك مجالًا لوهم الخصوصية أمام الله. فكل كلمة مسموعة، وكل نية معلومة، وكل عمل محفوظ.

ومن ثم فهي دعوة إلى الإخلاص الكامل، وإلى دوام التقوى والمراقبة في كلامنا. وعلى ضوء ذلك، يوجه الله المؤمنين إلى أن تكون أحاديثهم الخاصة في خدمة البر والإصلاح، لا في الإثم والعدوان والأذى.

2. إفساح المجال للآخرين: من المسجد إلى القلب

يضع الله أدبًا واضحًا للمجالس، مؤكدًا معنى السخاء المادي والمعنوي حين يضيق المكان. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(المجادلة 11)

تأمل دقة هذا الأمر. فالله لا يقترح على المؤمنين أن يفسحوا للآخرين حين يكون ذلك سهلًا ومريحًا، بل يأمرهم :﴿**فَٱفْسَحُوا**﴾ .إنه أمر مباشر، فوري، مقصود.

ويأتي بعد الأمر مباشرة وعد إلهي :﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ .وهذا الفسح الذي يمنحه الله يتجلى بطرق عميقة ومتعددة:

- في الدنيا: سعة في الرزق، وبركة في الوقت، وطمأنينة في القلب. يفتح الله أبوابًا كانت تبدو مغلقة، ويجعل اليسر في مواضع الضيق.
- وفي الآخرة: رفعة في الدرجات وسعة في الجنة لا يحيط بها الخيال.

وكل ذلك يُمنح مقابل فعل يبدو في ظاهره صغيرًا: أن يتحرك الإنسان قليلًا، وأن يتنازل عن بعض راحته، وأن يؤثر غيره على نفسه.

ثم يرفع الله مستوى التضحية بقوله :﴿**وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا**﴾؛ أي إذا قيل لكم قوموا، فقوموا.

فأحيانًا لا يكون إفساح المجال مجرد تحريك بسيط في المكان، بل يتطلب أن يترك الإنسان مكانه تمامًا. أن يقوم ليجلس غيره، وأن يضحي براحة شخصية من أجل أخيه المؤمن. ولهذا المستوى الأعلى من الإيثار يأتي الجزاء أعظم :﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾.

فهذا ليس أدبًا جسديًا فحسب، بل تدريب روحي.

ونحن نعيش هذا الاختبار كل يوم جمعة. حين يمتلئ المسجد، يقف كل إنسان أمام خيار: هل أحمي مساحتي الخاصة، أم أؤثر أخي؟ إن إفساح المجال يحتاج إلى تواضع، ويحتاج إلى تأديب النفس التي تطلب الراحة والسيطرة والأولوية. وعظمة الثواب تعكس حقيقة هذه المجاهدة الداخلية.

ولكي نفهم كيف يبدو "إفساح المجال" في الواقع، ينبغي أن ننظر إلى المدينة المنورة عند ولادة المجتمع المسلم.

لقد وصل المهاجرون وليس معهم شيء. ضحّوا ببيوتهم وأموالهم وأمنهم في مكة من أجل الله. دخلوا المدينة غرباء بلا موارد. وكان أمام الأنصار، أهل المدينة، خيار: إما أن يحموا مصالحهم الخاصة، وإما أن يجسدوا روح التضحية. فلم يكتفوا بإيوائهم، بل احتضنوهم بسخاء عجيب. قال تعالى في وصفهم:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر 9)

لاحظ هذا الاقتران العميق: لقد تبوؤوا الدار، وتبوؤوا الإيمان. فإيمانهم لم يكن سطحياً، بل كان راسخًا ثابتًا كرسوخ بيوتهم التي يسكنونها. ومن هذا العمق الإيماني وُلدت نتيجة عظيمة: آثروا غيرهم على أنفسهم، ولو كانوا هم في حاجة.

لقد جسّد الأنصار أمر "افسحوا" في أقصى صوره.

فعندما آخى النبي ﷺ بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، عرض سعد أن يقسم ماله نصفين، بل عرض أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه بعد انقضاء عدتها، حتى يستطيع أن يؤسس بيتًا. لم يكن ذلك مجرد كرم، بل كان فتحًا كاملًا للحياة أمام أخيه.

وهذا يتحدى التعريفات الحديثة للسخاء. لم يكن الأمر مساعدة عابرة، بل كان إيثارًا وتضحية.
وما النتيجة؟ أعلن الله فلاحهم، لا بسبب ما امتلكوه، بل بسبب ما تغلبوا عليه :شح النفس.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وهذا هو تعريف النجاح الحقيقي. فالشح ليس مقصورًا على المال. إنه مرض في القلب يجعل الإنسان يحتكر المكان، والوقت، والانتباه، والرحمة. يحوّل العلاقات إلى صفقات، ويحوّل الناس إلى أعباء.

أما الأنصار فقد وُقوا هذا المرض. فتحوا بيوتهم، وأموالهم، وقلوبهم، فمنحهم الله ما هو أعظم من ذلك كله: إرثًا خالدًا. وبعد أكثر من أربعة عشر قرنًا، لا يزالون المعيار الذهبي للأخوة في الإسلام.

3. قياس القلب: كيف يتفاعل مع القرآن؟

في سورة الحشر، لا يخاطب الله المؤمنين بأمر مباشر، بل يدعوهم إلى لحظة عميقة من التأمل، تكشف طبيعة القرآن وجلال مصدره:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر 21)

توقف وتأمل هذه الصورة. الجبل هو الرمز الأعلى للقوة والثبات والرسوخ. يقف صامدًا قرونًا، لا تحركه العواصف ولا يؤثر فيه مرور الزمن. ومع ذلك يخبرنا الله أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل، لما اهتز فقط، بل لخشع وتصدع من خشية الله؛ لا بسبب قوة مادية، بل بسبب ثقل الخشية وعظمة الكلام الإلهي.
هذه هي القوة التي تحملها كلمات القرآن. فإذا كان القرآن قادرًا على أن يصدع جبلًا، فماذا ينبغي أن يفعل بقلب الإنسان؟

بخلاف الحجر، خُلق القلب البشري لينًا، قابلًا للتلقي، مستعدًا للاستجابة، قادرًا على التحول. خُلق ليحمل الإيمان. ولذلك فإن هذه الآية توجه السؤال إلى الداخل:

- ماذا يحدث في قلبي حين أقرأ القرآن؟
- هل يحركني؟ هل يوقظني؟ هل يغيّر زاوية نظري؟
- أم يمر عليّ كما يمر الماء على حجر أملس، لا يترك أثرًا؟

وقد أشار ابن القيم إلى أن القلب يكون بين حالتين: اللين والقسوة.
القلب اللين حيّ بالله؛ يرتجف عند سماع كلماته، ويستجيب لمواعظه، وتصلحه رحمته.
أما القلب القاسي فقد فقد حساسيته. يسمع القرآن مرارًا، لكنه لم يعد يصغي إليه حقًا. يتلو ولا يتلقى، ويقرأ ولا يتدبر.

هذه الآية ليست وصفًا فحسب، بل هي تشخيص روحي. في المرة القادمة التي تجلس فيها مع القرآن، راقب حالك الداخلي. فإن حدث فيك أدنى تغير، لحظة تأمل، شعور بالتواضع، دمعة، أو نية جديدة، فهذه علامة حياة.

وإذا لم يتحرك فيك شيء، فلا تيأس، ولكن لا تتجاهل ذلك أيضًا. فقسوة القلب ليست دائمة، بل حالة قابلة للعلاج. تعالج بالحضور أثناء التلاوة، وبالتدبر الأعمق، وبالدعاء الصادق أن يلين الله ما تصلب.

الجبل لا يملك اختيارًا في استجابته للقرآن. أما أنت فتملك. واختيارك أن تفتح قلبك لكلام الله هو في ذاته من أعظم العبادات.

4.العلاقة مع غير المسلمين المسالمين: معيار البر

في الإطار القرآني، لا يقوم مبدأ العلاقات الإنسانية على الاشتراك في العقيدة وحده، بل أيضًا على السلوك. ويضع الله تمييزًا دقيقًا ومتوازنًا بين من يعادي ويحارب، ومن يعيش في سلام:

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(الممتحنة 8-9)

بناء الآيتين مقصود ودقيق. فالآية الأولى تفتح بابًا واسعًا للخير، والثانية ترسم حدًا واضحًا تجاه العدوان النشط. والرسالة لا لبس فيها: ليس اعتقاد الإنسان وحده هو الذي يحدد كيفية التعامل معه، بل سلوكه أيضًا. وحيث لا يوجد عدوان، فالأصل ليس مجرد التسامح، بل البر.

والقرآن لا يستخدم هنا كلمة عادية، بل يقول :﴿**أَن تَبَرُّوهُمْ**﴾، من البر. وهذه الكلمة تحمل عمقًا يتجاوز مجرد اللطف. فالبر يدل على التقوى، وحسن الخلق، والمسؤولية الأخلاقية الراسخة. إنه ليس امتناعًا سلبيًا عن الأذى، بل إحسان فعّال.

ولكي ندرك وزن هذه الكلمة، نتأمل استعمال القرآن لها في مواضع أخرى:
في حق الوالدين، يمثل البر أعلى درجات الإحسان إليهما: بر الوالدين.
وفي وصف عيسى عليه السلام لأخلاقه مع أمه، قال تعالى على لسانه :﴿**وَبَرًّا بِوَالِدَتِي**﴾.

وباستخدام هذه الكلمة الدقيقة، يرتفع القرآن بالتعامل مع غير المسلمين المسالمين من مستوى المجاملة الاجتماعية إلى مستوى الواجب الأخلاقي الرفيع.

ولهذا فإن برّ الجار المسالم، أو الزميل، أو المواطن، ليس تصرفًا دبلوماسيًا، بل هو عبادة. إنه ينبع من الأصل الأخلاقي نفسه الذي يحكم أقدس العلاقات الإنسانية.

وهذا المبدأ يصحح كثيرًا من التصورات الخاطئة. فالموقف الأصلي للمؤمن تجاه الآخرين ليس الشك ولا الجفاء، بل العدل، والبر، والإحسان الفعّال تجاه كل من يعيش في سلام.

5. الإسلام يصنع مؤمنين مفكرين

في سورة الممتحنة، يبين الله شروط البيعة التي أخذها النبي ﷺ من النساء المؤمنات. وهذه البيعة التزام أخلاقي شامل، يتضمن رفض الشرك، والسرقة، والزنا، وقتل الأولاد، والبهتان. لكنها تختم بقيد لافت عميق الدلالة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة 12)

إن عبارة ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ تحتاج إلى تدبر.

فالنبي ﷺ رسول الله، ومن المعلوم في الإيمان أنه لا يأمر إلا بالحق والخير. فلماذا إذن يذكر القرآن هذا القيد؟ لماذا لا يأمر بطاعة مطلقة غير مقيدة؟

الجواب يكشف مبدأ عميقًا في الأخلاق الإسلامية: الإسلام لا يربي أتباعًا عميانًا، بل يربي مؤمنين مفكرين. فإدخال لفظ **المعروف**، أي ما يُعرف أنه خير وعدل واستقامة، داخل نص البيعة نفسها، يؤسس ضمانة خالدة تحكم كل سلطة بشرية. ولهذا القيد آثار بعيدة:

الطاعة مشروطة: فهي ليست مطلقة، بل مربوطة بالحق والاستقامة. تُتبع الأوامر حين توافق العدل والهدى، وتُرفض حين تخالف توجيه الله.

الحماية من إساءة استعمال السلطة: فهذا المبدأ يمنع المؤمنين من أن يتحولوا إلى أدوات ظلم في أيدي من يسيئون استخدام السلطة.

وقد صاغ الفقهاء هذا المعنى بوضوح في القاعدة المعروفة: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهذه ليست دعوة إلى التمرد، بل دعوة إلى وضوح أخلاقي ومسؤولية مبدئية.

عمليًا، يعني ذلك أن المسلم، قائدًا كان أو تابعًا، جنديًا أو مواطنًا، موظفًا أو طالبًا، لا يعطل حكمه الأخلاقي. فهو ليس منفذًا سلبيًا للأوامر، بل صاحب مسؤولية أخلاقية واعية. يحمل مبادئه في كل قرار، ويزن أفعاله بميزان المعروف والحق.

وهذا يمثل أحد أرقى الأطر الأخلاقية في التعليم الإسلامي، لأنه يضمن أن يبقى الولاء الأعلى لله وللحق، لا لأي سلطة بشرية قابلة للخطأ.

6. التضامن في صلاة الجمعة: الإيقاع الإلهي

تمثل صلاة الجمعة الأسبوعية أحد أكثر مظاهر الإسلام وضوحًا وقوة في التعبير عن وحدة الجماعة. إنها إيقاع إلهي منسوج في حياة المسلم، يعيده كل سبعة أيام إلى إدراك أنه لا يسير في هذا الطريق وحده.
في سورة الجمعة، يوجه الله نداءً مباشرًا وعاجلًا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجمعة9)

ومن اللافت أن الله لا يدعو المؤمنين هنا إلى "الصلاة" فحسب، بل يدعوهم إلى **ذكر الله** .فالصلاة هي الوسيلة، أما الغاية فهي الصلة بالله.

والأمر عاجل :﴿**فَٱسْعَوْا**﴾ .إنه يتطلب انفصالًا مؤقتًا عن الاجتماعات، والمعاملات، والانشغالات الدنيوية.
وعبارة ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ تدعو إلى تأمل عميق: فما يبدو انقطاعًا مؤقتًا عن النشاط الدنيوي هو في حقيقته مكسب عظيم دائم.

لكن بعد الصلاة مباشرة يتغير الإيقاع؛ من السكون إلى الحركة:
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الجمعة 10)

فالرب الذي أمرك أن تترك البيع هو نفسه الذي يأمرك بعد الصلاة أن تعود إلى السعي. وهذا يؤسس توازنًا إسلاميًا أصيلًا: المقدس والدنيوي ليسا في صراع، بل هما في ترتيب. الإسلام لا يدعو إلى الانسحاب من الحياة، بل إلى الانضباط داخلها.

وهناك تحول لغوي دقيق وعميق:
عند النداء إلى المسجد :﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.
وعند العودة إلى الدنيا :﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وهذا الفرق يعكس بيئتين مختلفتين. فالمسجد مكان محمي، مهيأ للتركيز والحضور. أما السوق ومواقع العمل فهي أماكن مليئة بالمشتتات والمطالب المتنافسة. ولذلك فإن حفظ الوعي بالله في الدنيا يحتاج إلى جهد أكبر من حفظه في الصلاة. فالله لا يطلب منا أن نترك الدنيا، بل أن نحمل ذكره معنا إليها.

ثم تختم السورة بالإشارة إلى حادثة واقعية كاشفة. أثناء خطبة النبي ﷺ، وصلت قافلة تجارة إلى المدينة، فاندفع عدد من الناس إليها وتركوا النبي ﷺ قائمًا على المنبر:

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (الجمعة:11)

كانت هذه الحادثة بين أصحاب إيمان حقيقي، ومع ذلك قد يغلب جذب الدنيا حتى القلوب الصادقة لحظة من الزمن. والتصحيح القرآني هنا ليس إدانة للتجارة، بل إعادة ضبط للأولويات. لا تترك الأبدي من أجل المؤقت.

وتختم السورة بعلاج قوي للقلق الذي يدفع الإنسان إلى العجلة والتعلق :﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ .فأنت لم "تفقد" رزقك بحضور الجمعة؛ فما كُتب لك سيأتيك لا محالة.

الذي يجب أن تحافظ عليه ليس رزقك، بل قلبك، وحضورك، وصلتك بما يبقى حقًا.

7. الحسرة على الصدقة المؤجلة

من أكثر التحذيرات إيقاظًا في هذا الجزء أنه لا يتحدث عن كافر أو فاسق ظاهر الفجور، بل يصور شخصًا أقرب إلينا بكثير: مؤمنًا كان يعلم قيمة الصدقة، لكنه ظل يؤجلها حتى ضاعت الفرصة إلى الأبد.

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المنافقون 10-11)

تأمل كلمات هذا الإنسان. فعند حافة الموت، لا يطلب مزيدًا من الوقت ليستمتع بالحياة، أو ليزيد ثروته، أو ليحقق طموحات دنيوية. بل يطلب مهلة قصيرة لغرض واحد محدد: أن يتصدق.

في تلك اللحظة الأخيرة، تنكشف الحقيقة كاملة. يدرك أن المال الذي تمسك به لم يكن ملكًا حقيقيًا له، بل كان فرصة ائتمنه الله عليها، ثم ضاعت منه بلا رجعة. ويأتي الرد الإلهي حاسمًا: لقد انتهى الوقت.
هذه الآيات ليست مجرد أمر بالإنفاق، بل مشهد حيّ. فهي لا تكتفي بالتوجيه، بل تجعلنا نرى ما قد نتمنى نحن أنفسنا أننا فعلناه.

وقوة هذا المشهد تكمن في قربه من واقع الناس.

فهذا ليس شخصًا أنكر الصدقة، بل شخصًا أجّلها. إنه صوت من قال:

- "عندما تستقر الأمور "...
- "عندما يكبر الأولاد "...
- "عندما يصبح عندي فائض أكثر "...

لكن القرآن يهدم هذا الوهم بحقيقة بسيطة وعميقة:
الوقت الوحيد الذي تملكه حقًا هو الآن. أما الباقي فمجرد افتراض.
ثم تختم الآيات بتذكير بالغ الدقة:

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

لاحظ الدقة: لم يقل "بما نويتم" أو "بما خططتم له". فمع أن الله يعلم النيات، إلا أن الذي يُسجَّل في الصحائف هو العمل.

- الصدقة التي تخرجها اليوم حقيقة .
- أما الصدقة التي تنوي إخراجها "يومًا ما"، فتبقى احتمالًا قد لا يتحقق أبدًا .

ولهذا فإن الصدقة المؤجلة ليست مجرد صدقة متأخرة، بل كثيرًا ما تكون صدقة ضائعة.
وهنا يطرح القرآن سؤالًا أعمق: إذا كان المؤمن يعلم قيمة العطاء، فما الذي يمنعه؟

وسيأتي الجواب في الآيات التالية: إن العوائق الحقيقية ليست خارجية، بل كامنة في أعماق النفس.

8. المال والأسرة: الاختبار الخفي

إذا كان القسم السابق يسأل: ما الذي يمنعنا من العطاء؟ فإن هذا القسم يقدم الجواب. فالقرآن يحدد اثنين من أقوى التعلقات التي قد تضعف التركيز الإيماني للمؤمن بصورة هادئة وخفية: المال والأسرة.
يقول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن:14)

هذه الآية لا تدين الحياة الأسرية، ولا تصف جميع الأزواج والأولاد بهذا الوصف. ودقة التعبير تظهر في كلمة ﴿**مِنْ**﴾؛ أي أن الأمر يتعلق ببعضهم لا بكلهم.

وكذلك فإن وصف "العدو" هنا لا يعني العداوة الصريحة، بل يشير إلى احتمال أن يتحول الحب والتعلق والرغبة في الراحة والاستقرار إلى عائق روحي، يدفع الإنسان إلى تقديم الدنيا على واجباته تجاه الله.
ولهذا يوازن الله التحذير مباشرة بالدعوة إلى الرحمة:

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾
فالعلاقة لا تُقطع، وإنما تُدار بوعي ورحمة.

ثم يقرر القرآن المبدأ العام بوضوح:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن 15)

والفتنة ليست مجرد مشقة، بل اختبار يكشف حقيقة القلب.

وما يجعل هذا الاختبار عميقًا أن المال والأسرة يمكن أن يكونا سببًا للغفلة، كما يمكن أن يكونا طريقًا إلى الأجر الأبدي.

وقد بيّن النبي ﷺ هذا المعنى بقوله:
"إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" [مسلم عن أبي هريرة]

فالمشكلة ليست في امتلاك المال أو إنجاب الأولاد، بل في طريقة توجيههم واستعمالهم.

- المال الذي يُنفق في سبيل الله يبقى بعد موت صاحبه .
- والولد الذي يُربّى على الإيمان يصبح بابًا مستمرًا من الرحمة .

ولكي ينجح المؤمن في هذا الاختبار، يضع الله منهجًا عمليًا متدرجًا:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن:16)

لاحظ أن الصدقة لا تُعرض هنا كفضيلة اختيارية، بل توضع في قلب التقوى نفسها. فالنجاح الحقيقي لا يُقاس بكمية ما يجمعه الإنسان، بل بقدرته على التغلب على **شح النفس**.

ولمن يشعر بألم "خسارة" المال عند الإنفاق، يعيد القرآن صياغة الفكرة كلها بمنظور مختلف:
﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن:17)

هذا هو التحول الجذري في الرؤية:
أنت لا تخسر ما تنفقه، بل تُقرضه لمالك كل شيء.

وهو سبحانه لا يعدك بردّه فقط، بل بمضاعفته، ومعه مغفرة الذنوب.

وعندها تصبح الصدقة أكثر من مجرد عمل؛ تصبح دليلًا على أن حب الله أصبح أعظم في القلب من حب ما أعطاه الله.

9. مسؤولية البيت: إنقاذ الأسرة

يحتوي الجزء الثامن والعشرون على واحد من أكثر الأوامر الشخصية عمقًا في القرآن. وهو ليس موجَّهًا للحكام أو العلماء فقط، بل لكل مؤمن داخل أكثر البيئات تأثيرًا وقربًا: البيت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:6)

لاحظ ترتيب الآية:
﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ فالإنسان لا يستطيع أن يمنح ما لا يملكه. ومن لم يبنِ تقواه، ويحفظ صلته بالله، لن يكون مؤهلًا لقيادة غيره روحيًا.

فالقيادة الإيمانية تبدأ بإصلاح النفس، ثم تمتد إلى من تحت الرعاية.

ووصف النار هنا شديد ومقصود لغاية الإيقاظ:
- وقودها الناس والحجارة،
- وعليها ملائكة غلاظ شداد،
- لا يترددون في تنفيذ أمر الله .

وهذه الصورة ليست لمجرد التخويف، بل لإظهار عِظم المسؤولية الملقاة على المؤمن.
وقد لخّص النبي ﷺ هذه المسؤولية بقوله:
"كلكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيته" (رواه البخاري)

فالراعي الحقيقي لا يكتفي بالسير أمام القطيع، بل يراقب ويحذر ويحمي ويوجه.
وهذا هو نموذج الأب والأم والزوج والزوجة في الإسلام.

وإنقاذ الأسرة لا يتحقق بمواعظ متفرقة أو أوامر عابرة، بل ببناء بيئة يعيش فيها الإيمان واقعًا يوميًا:
- تُقام الصلاة داخل البيت باستمرار .
- وتُمارس قيم الصدق والكرم والعدل عمليًا قبل تعليمها بالكلام .
- ويُفتح باب الحوار للأسئلة والشكوك والتأملات، بالحكمة لا بالقمع والخوف .

ومع ذلك، فإن هذه المسؤولية يوازنها الإسلام برحمة عظيمة. فالمطلوب هو السعي والتعليم والتوجيه والقدوة، لا التحكم الكامل في النتائج.

فحتى الأنبياء، كنبي الله نوح وإبراهيم عليهما السلام، شهدوا أفرادًا من أسرهم يختارون طريقًا آخر.
ولهذا فإن النجاح لا يُقاس بالنتائج وحدها، بل بصدق الجهد.

فالمؤمن الذي يعلّم، ويقتدي، ويدعو لأهله باستمرار، يكون قد أدى الأمانة التي عليه. وهو يسعى لا لأن النتائج مضمونة، بل لأن الله أمره بالسعي نفسه.

وهذا السعي، بالصبر والإخلاص والاستمرار، هو في ذاته عبادة ومحبة.

10. الاتساع الذي يفوق الإدراك في الخلق

كثيرًا ما نحصر فهمنا لقدرة الله في الكون المرئي. ومع أن اتساع المجرات والنجوم يفوق التصور، فإن القرآن يذكّرنا بأن ما نراه ليس إلا جزءًا يسيرًا من خلق الله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق:12)

يشير القرآن كثيرًا إلى السموات السبع كحقيقة تتجاوز إدراك الإنسان. لكن عبارة :﴿**وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾

تلفت الانتباه بصورة خاصة.
وقد تأمل العلماء في معناها وذكروا عدة احتمالات:

1. عوالم متعددة غير عالمنا .
2. طبقات داخل الأرض نفسها .
3. تقسيمات جغرافية كالقارات .
4. أو التوقف عن التحديد واعتبارها من الغيب .

لكن هدف الآية ليس تقديم درس جغرافي، بل إغراق القلب في الإحساس بعظمة الخلق وسعة الكون.

حوار بين الوحي والعلم الحديث

عند قراءة هذه الآية في ضوء الفكر المعاصر، يظهر بعد إضافي للتأمل. فقد طرحت الفيزياء النظرية الحديثة مفاهيم مثل "الأكوان المتعددة"، أي احتمال وجود أكوان كثيرة بقوانين مختلفة.

ومع أن هذه النظريات لا تزال افتراضية، فإن ظهورها بحد ذاته يحمل دلالة مهمة: حتى العلم بدأ يدرك أن الوجود قد يكون أوسع بكثير من الكون المرئي الواحد.

ولا يعني هذا أن القرآن "يتنبأ" بهذه النظريات تحديدًا، بل يؤكد حقيقة أعمق: أن حجم الوجود يتجاوز حدود الخيال البشري.

ومن أعجب ما ورد في تفسير هذه الآية ما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما:
رواه ابن أبي حاتم في تفسيره والحاكم في مستدركه، و رواه البيهقي، عن أبي الضحى، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن. قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى .

ومع ضرورة التعامل العلمي المتزن مع مثل هذه الروايات، فإنها تفتح بابًا واسعًا للتأمل في كونٍ هائل منظم وموجَّه بأمر الله.

فالذي نعبده سبحانه لم يخلق شيئًا صغيرًا ثم سماه "كل شيء."

ولهذا تختم الآية بهدفها الحقيقي:
﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وهذا ليس تقريرًا عقديًا مجردًا، بل دعوة إلى تحول داخلي.

فعندما تستقر هذه الحقيقة في القلب:
- يزول الشعور بالضيق،
- ويتولد اليقين،
- وتمتلئ النفس بالهيبة والسكينة .

فالذي يدبر هذا الخلق الهائل هو ذاته الذي يسمع دعاءك، ويعلم همومك، ويتولى قدرك.
وعند هذه الحقيقة تجد الروح تواضعها وسلامها بين يدي رب العالمين.

الخاتمة

رحلة تبدأ بشكوى امرأة واحدة، وتنتهي بحماية الأسرة من النار، تبدو وكأنها تقطع مسافة واسعة جدًا. لكن عند النظر إلى هذه الجواهر العشر كوحدة متكاملة، يظهر انسجام عجيب يجمعها كلها.

فالجزء الثامن والعشرون يرسم صورة المؤمن المجاهد:
- الذي يعيش مستحضرًا أن الله يسمع كل كلمة،
- ويفسح للناس دون حساب للمكاسب،
- ويفكر بوضوح،
- ويحسن إلى الآخرين،
- ويبادر بالعطاء قبل فوات الفرصة .

ويؤكد هذا الجزء أن هذا السعي لا يضيع:
- فالصدقة تتحول إلى "قرض حسن" يضاعفه الله ويغفر به الذنوب،
- والقلب الذي يستجيب للقرآن يصبح قلبًا حيًا،
- والأسرة التي تُربى بإخلاص تصبح أثرًا يمتد بعد الموت .

ومع أن الجزء لا يتجاهل ضعف الإنسان، فإنه لا يتركه أبدًا بلا طريق. ففي كل موضع يوجد تحذير، ويوجد معه باب للعودة والإصلاح.

وفي النهاية، يجيب هذا الجزء عن سؤال يسكن قلب كل إنسان:
هل الله قريب؟

ويأتي الجواب يقينًا:
لقد سمع شكوى امرأة واحدة واستجاب لها. فإذا كان قريبًا منها بهذا القرب، فهو قريب منك كذلك.
فاحمل هذه الجواهر معك في حياتك اليومية.

دعها تشكل طريقة جلوسك مع الناس، وقيادتك داخل بيتك، وإنفاقك، ونظرتك إلى العالم من حولك.
هذا هو النداء الذي يوجهه إليك هذا الجزء.

وذلك النداء، في ذاته، رحمة من الله.

جواهر الجزء التاسع والعشرين :حيث يخاطب القرآن الروح مباشرة: هنا والآن

(سورة الملك 1 إلى سورة المرسلات50)

المقدمة

الجزء التاسع والعشرون من القرآن ليس مجموعة من المقاطع المتفرقة، بل هو حوار متواصل بين الله والإنسان؛ حوار يواجه أعمق أسئلة الوجود بوضوح، وإلحاح، ورحمة.
من أنت؟
ولماذا أنت هنا؟
وإلى أين تمضي؟
وكيف ينبغي أن تعيش في ضوء هذه الحقيقة؟

تتنقل سور هذا الجزء بين موضوعات واسعة ومتنوعة: طبيعة الاختبار الذي نعيشه، والصفات التي ينبغي أن نتخلق بها، والمخاطر التي يجب أن نحذرها، والأعمال التي تحدد منزلتنا، والحقائق التي تنتظرنا بعد هذه الحياة. لكن خلف هذا التنوع يمتد خيط جامع واحد:

إن القرآن يخاطبك أنت، مباشرة، وفي هذه اللحظة، وبصورة شخصية، عن حالك الحقيقي.

فالقرآن، كما يذكّرنا الله، يهدي إلى "التي هي أقوم"؛ هداية حية مستمرة، لا تخاطب الأمم الماضية فقط، بل تخاطب لحظتك الراهنة. ويبقى السؤال الوحيد: هل ستقبل عليه بالقلب المنفتح الذي يستحقه؟

1. الموت والحياة مجرد اختبار: فاسعَ في الاتجاه الصحيح

أكثر حقيقة لا يستطيع أي إنسان إنكارها هي أننا وُلدنا، وأننا سنموت. ومن هذه الحقيقة تنشأ أسئلة عميقة لا يستطيع العاقل أن يهرب منها:

1. من الذي يتحكم حقًا في وقت ولادتي وموتي وكيفيتهما؟
2. ما دام وقتي في الدنيا محدودًا، فما غايتي؟
3. هل كنت موجودًا قبل هذه الحياة؟ وماذا ينتظرني بعد الموت؟

ويجيب القرآن عن هذه الأسئلة بوضوح مدهش في آية واحدة موجزة:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك 2)

فميلادنا وموتنا كلاهما تحت سلطان الله الكامل؛ فهو خالق الموت والحياة معًا. ووجودنا في هذا العالم ليس عبثًا، بل هو اختبار، ومقياس هذا الاختبار ليس مجرد كثرة الأعمال، بل جودة العمل وإحسانه.
وهذا الابتلاء يظهر في كل صور الحياة:

- في الشدة والرخاء،
- وفي الفقد والعطاء،
- وفي المحن والفرص .

فكل لحظة تحمل وزنًا أبديًا.

ولاحظ أن الآية قدمت الموت على الحياة. وقد أشار العلماء إلى أن الموت ذُكر أولًا لأنه أوضح دليل على سلطان الله المطلق على الخلق. لكن الترتيب قد يشير أيضًا إلى حقيقة أعمق: أننا كنا في حالة عدم قبل أن نُبعث إلى الحياة، ثم سنموت مرة أخرى، ثم نُبعث للحساب.

ويؤكد القرآن هذه الحقيقة على لسان أهل النار:
﴿قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر 40:11)

وإذا كانت الحياة اختبارًا والوقت محدودًا، فإن السؤال الأهم يصبح:
إلى أين ينبغي أن تتجه طاقتنا؟

ويجيب القرآن عن ذلك بضبط "سرعة" حركتنا بحسب ما نسعى إليه.

قال تعالى:
﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك 67:15)

وقال في وصف عباد الرحمن:
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان 25:63)

في الآيتين معًا استُخدم فعل :**يمشون** .حركة هادئة متزنة، بلا فزع ولا اندفاع محموم.

فعندما يتعلق الأمر بالرزق والدنيا، يخفف القرآن من اندفاع الإنسان الطبيعي. فالأرض مهيأة، والرزق موزع، فلا حاجة للهلع.

لكن عندما يتحول الحديث إلى الآخرة، تتغير اللغة:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (آل عمران 133)

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الحديد 21)

﴿فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الذاريات:50)

امشوا... سارعوا... سابقوا... فرّوا. هذا التصاعد مقصود.

فالناس بطبعهم يندفعون وراء الدنيا، ولذلك يهدئهم القرآن. أما في أمور الآخرة، فإنهم يؤجلون ويتباطؤون، ولذلك يرفع القرآن مستوى النداء.

وهذا التباين ليس مجرد بلاغة، بل تشخيص لحالة الإنسان:
نحن نركض نحو المؤقت، ونسير ببطء نحو الأبدي.

والقرآن لا يطلب منا ترك الدنيا، بل إعادة ضبط سرعتنا، حتى تتوافق استعجالاتنا مع ما يبقى حقًا.
فالسؤال ليس: هل نحن نتحرك؟
بل: هل نجري في الاتجاه الصحيح؟

2. الجوهرة التي على تاج النبي: مكارم الأخلاق

يمكن تلخيص طبيعة النبي ﷺ وغاية رسالته في كلمتين: مكارم الأخلاق.

وأعظم ثناء أثنى الله به على نبيه ﷺ جاء في قوله تعالى:
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾
(القلم 68:4)

فهذا الثناء الإلهي يرفع الأخلاق إلى قمة الكمال النبوي. فهي ليست جانبًا من الرسالة، بل روحها الجامعة.
وقد عبّر النبي ﷺ عن هذا المعنى بأوضح عبارة:
«إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق.»

فالإسلام ليس مجرد شعائر أو قوانين، بل مشروع متكامل لصناعة الإنسان أخلاقيًا.
ولذلك كرر النبي ﷺ هذا المعنى في أحاديث كثيرة، منها:

«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا.»
«خيركم أحاسنكم أخلاقًا.»
«أفضل المؤمنين أحسنهم خلقًا.»
«أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا.»
«إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار.»

«إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا.»

وعندما تُجمع هذه النصوص معًا، تتضح حقيقة عظيمة:

- الأخلاق هي كمال الإيمان،
- والأخلاق هي معيار التفاضل،
- والأخلاق طريق إلى محبة الله،
- والأخلاق سبب لرفعة الدرجات في الآخرة .

وبهذا ترتفع الأخلاق من كونها فضيلة ثانوية إلى كونها ركنًا محوريًا في الدين.

فالعبادات بلا أخلاق تبقى ناقصة، والعلم بلا أخلاق يتحول إلى عبء، وحتى قيمة العبادة الحقيقية تظهر في الأخلاق التي تنتجها.

3. الالتزام بإطعام الفقراء علامة فاصلة على الإيمان

تعرض سورة الحاقة مشهدًا حاسمًا من يوم القيامة، ينقسم فيه الناس إلى فريقين بحسب كيفية تسلمهم لكتب أعمالهم.

فريق يأخذ كتابه بيمينه، وهي علامة القبول والنجاح، فيفرح لأنه يعلم أن مصيره الجنة.
وفريق يأخذ كتابه بشماله، وهي علامة الخسران الكامل، فيغمره الندم وهو يعلم أن مصيره النار.

ويبين القرآن سبب هذا المصير:
﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة 33-34)

الاقتران هنا بالغ الدقة:
فعدم الإيمان بالله وُضع بجوار تقصير اجتماعي: عدم الحضّ على إطعام المسكين.
وهذا ليس أمرًا عارضًا.

فالقرآن لا يقدم الإيمان كفكرة داخلية مجردة، بل كحقيقة ينبغي أن تتحول إلى رحمة عملية تجاه الناس، وخاصة الضعفاء.

واللافت أن الإدانة لا تقع فقط على من لا يطعم، بل حتى على من لا يشجع غيره على الإطعام.

وقد يتكلم الإنسان عن الإيمان، لكن القرآن يختبر صدق هذا الادعاء في تعامله مع المحتاجين.
ويتكرر هذا الربط في مواضع أخرى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (الماعون 1-3)

فإنكار الآخرة يرتبط مباشرة بإهمال الضعفاء.

وهذا يؤسس قاعدة عظيمة:
الإيمان بالله ينبغي أن ينتج رحمة، واليقين بالحساب ينبغي أن ينتج مسؤولية.

فالقرآن لا يدعو إلى صدقات موسمية متفرقة، بل إلى موقف دائم:
أن يهتم المؤمن بالمحتاجين، ويعمل لأجلهم، ويحث المجتمع على رعايتهم.

4. كمال الأخلاق من خلال الصلاة

تقدم سورة المعارج تحليلًا عميقًا للطبيعة البشرية، كاشفة عن نقاط الضعف الفطرية التي قد تفسد الإنسان والمجتمع إن تُركت بلا تهذيب.

قال تعالى:
﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج 19-21)

وتكشف الآيات ثلاث علل أساسية:
- القلق والاضطراب الداخلي،
- والانهيار عند الشدة،
- والبخل عند السعة .

وهذه ليست عيوبًا طارئة، بل جزء من طبيعة الإنسان.

لكن القرآن لا يترك الإنسان أسيرًا لهذه الحالة، بل يقدم طريق التحول:

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ (المعارج 70:22-23)

فالصلاة في المفهوم القرآني ليست طقسًا منفصلًا، بل نظامًا يعيد تشكيل النفس.
ومن هذا الأساس تنبثق سلسلة من الصفات الأخلاقية:

فالصلاة تحول البخل إلى سخاء:
﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾

وتحول الإيمان إلى يقين بالمسؤولية:
﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

وتحول الغفلة إلى وعي وخشية:
﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾

وتحول الشهوة إلى انضباط:
﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾

ثم تمتد آثار الصلاة إلى المجال الاجتماعي:
﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾
﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَاتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾

فالصلاة تنتج:
- الأمانة،
- والوفاء،
- والصدق،
- والاستقامة .

وبذلك يعيد القرآن تعريف الصلاة:

فهي ليست مجرد عبادة تؤدى، بل برنامج متكامل لبناء الشخصية.

فإذا أُقيمت الصلاة حقًا:
- تحولت القلوب القلقة إلى مطمئنة،
- والبخل إلى عطاء،
- والاضطراب إلى اتزان،
- والضعف الأخلاقي إلى استقامة.

5. قوة الاستغفار

يقدّم القرآن الاستغفار لا باعتباره مجرد عبادة روحية، بل مفتاحًا تحوليًا يفتح أبواب الرزق والفرج من الله.
ينقل الله دعوة نبيّه نوح عليه السلام إلى قومه:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ (نوح 71:10-12)

إن الوعد هنا واسع وعظيم:

- رفع القحط،
- وزيادة الرزق،
- وكثرة الذرية،
- وازدهار الحياة .

لكن هذا يثير سؤالًا مهمًا قد لا يُطرح كثيرًا:
إذا كنا نستغفر كثيرًا، فلماذا لا نرى دائمًا هذه النتائج؟

الجواب لا يتعلق بالوعد، بل بحقيقة الاستغفار نفسه.

فالاستغفار في المفهوم القرآني ليس مجرد ترديد لفظي، بل حالة قلبية تجمع:

- الاعتراف بالذنب،
- والندم الصادق،
- والرجوع إلى الله،
- والعزم على التغيير .

وعندما يتحول الاستغفار إلى مجرد تكرار بلا تحول حقيقي، فإنه يفقد أثره المقصود. فاللسان الذي يقول: "أستغفر الله" بينما يصرّ صاحبه على الذنب نفسه، أو يفرّط في الواجبات، أو يبقى غافلًا، لا يحقق الاستغفار الذي دعا إليه نوح عليه السلام.
فالاستغفار الحقيقي لا ينفصل عن التوبة. إنه ليس مجرد طلب للمغفرة، بل عودة كاملة إلى الله.
ولهذا لم يكتفِ النبي ﷺ بتعليم الاستغفار، بل جسّده عمليًا في حياته اليومية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة.» (رواه البخاري)

ولم يكن استغفاره ﷺ بسبب ذنب، بل كان ثمرة تواضع، ووعي بعظمة الله، ودوام رجوع إليه سبحانه.
كما أكّد النبي ﷺ على المداومة على الاستغفار فقال:

«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.» (رواه أبو داود عن ابن عباس)

والكلمة المحورية هنا هي " **لزم**" أي داوم والتزم وارتبط بالاستغفار. فليس المقصود ذكرًا عابرًا، بل حالة مستمرة من الرجوع إلى الله.

وإذا لم تظهر النتائج بصورة واضحة، فقد يكون السبب واحدًا أو أكثر مما يلي:

- غياب الإخلاص: كلمات بلا حضور قلب،

- الإصرار على الذنب،
- الاستعجال في انتظار النتائج الدنيوية،
- أو حصر معنى الرزق في المال وحده .

فقد تكون استجابة الله:
- بدفع بلاء خفي،
- أو تأخير مصيبة،
- أو زيادة سكينة القلب،
- أو ادخار الأجر للآخرة .

فالاستجابة حقيقية دائمًا، لكنها لا تأتي دائمًا بالصورة التي نتوقعها.

والاستغفار هو أيضًا أنسب ختام لكل عبادة. فكما تُختتم الصلاة بالاستغفار، يدرك المؤمن أن عمله مهما بلغ لا يخلو من نقص. ولذلك يصبح الاستغفار اعترافًا دائمًا بالتقصير، وتعبيرًا عن تواضع مستمر بين يدي الله.

6. الخطر العظيم في طلب العون من الجن

يعرّفنا القرآن على خلق موازٍ للإنسان: الجن، الذين خُلقوا من نار، ولهم عقل وإرادة وتكليف. فهم مثل البشر:
- يؤمنون أو يكفرون،
- ويتلقون الهداية،
- وسيقفون للحساب يوم القيامة .

لكن رغم هذا الاشتراك في التكليف، يرسم القرآن حدًا حاسمًا لا مساومة فيه:
الجن ليسوا مصدر حماية أو ملجأ أو اعتماد.

وينقل القرآن اعترافًا صريحًا على لسان الجن أنفسهم:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن 72:6)

وقوة هذه الآية تكمن في مصدرها. فهذه ليست مجرد إدانة بشرية للخرافة، بل شهادة من الجن أنفسهم.
فالجن المؤمنون، بعد سماعهم القرآن، يذكرون هذه الحقيقة لا افتخارًا، بل اعترافًا بالضرر الذي نتج عنها.
وكأن القرآن يحول هذه الشهادة إلى تحذير خالد: ما يبدو حماية هو في الحقيقة باب للأذى.

فالإنسان الذي يلجأ إلى الجن يظن أنه يكتسب قوة، لكنه في الحقيقة يتنازل عنها.
وكلمة ﴿**رَهَقًا**﴾ تحمل معاني:

- القهر،
- والضغط،
- والاضطراب النفسي،
- والخضوع المذل .

فبدل أن يُحمى الإنسان، يدخل في علاقة تضعف قلبه، وتفسد توكله، وتفتح باب التلاعب به.
والقضية ليست مجرد تعامل مع عالم الغيب، بل انحراف في التوكل نفسه.

فالاستعاذة عمل قلبي يعلن ضعف الإنسان واعتماده الكامل. وعندما تُصرف لغير الله، فإنها تضرب أساس التوحيد.

وقد تبدو صور الاستعاذة القديمة بالجن بعيدة عن عصرنا، لكن جوهرها ما زال قائمًا:
- التعلق بالقوى الخفية،
- والانبهار بالأسرار الغيبية،
- والرغبة في السيطرة بطرق غير مشروعة .

وسواء ظهر ذلك في السحر، أو الشعوذة، أو بعض الممارسات الروحية المنحرفة، فالحقيقة واحدة:
طلب ما لا يملكه إلا الله من مخلوق.

ولهذا فإن الدرس القرآني واضح:
الالتجاء المطلق لأي مخلوق، إنسانًا كان أو جنًا، ليس فقط خطرًا روحيًا، بل طريق إلى الضعف والهزيمة.
فالملجأ الحقيقي هو رب الغيب والشهادة، الذي بيده الضر والنفع، والذي لا يُغلب أبدًا.

7. من التزمل إلى القيام: نداء حي من سورتي المزمل والمدثر

كثيرًا ما نتعامل مع القرآن بإحدى طريقتين:
- إما كتابًا نتلوه طلبًا للبركة،
- أو نصًا ندرسه لتحصيل المعرفة .

وكلا الأمرين مهم. لكن هناك طريقة ثالثة أعمق وأشد أثرًا:

أن نتعامل مع القرآن بوصفه خطابًا مباشرًا لنا، يخاطب واقعنا الحالي.
ويؤكد علماء التفسير أن افتتاح سورتي المزمل والمدثر يتعلق بحال النبي ﷺ في بداية الوحي، حين التفّ بثيابه من شدة الهيبة والخوف. ونحن نؤمن بذلك كامل الإيمان.

لكن القرآن نفسه يقرر:

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء 17:9)

وفعل «يهدي» جاء بصيغة المضارع؛ أي هداية مستمرة حية متجددة. فالقرآن ليس سجلًا لهداية مضت، بل هداية تتحرك مع كل جيل.

ومن هنا تتحول هاتان السورتان من مجرد وصف تاريخي إلى مرآة لحالتنا نحن.

الحالة الأولى: متلفف ومنغلق

يفتتح الله سورة المزمل بقوله:
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المزمل 73:1-2)

والمزمل هو المتلفف بثيابه، المنغلق على نفسه.

والتلفف يمنح الراحة، لكنه يخلق أيضًا نوعًا من العزلة؛ يمنع دخول الجديد ويحافظ على ما هو موجود.
واسأل نفسك: بأي صورة أنت "متزمل" اليوم؟

فكثير من الناس ليس تلففهم جسديًا، بل فكري وروحي:
- "أنا أعرف معنى القرآن ".
- "درست التفسير ".
- "سمعت الشروح ".

وهذه المعرفة قد تتحول إلى سقف يمنع التغيير الحقيقي. فنكف عن انتظار أن يغيّرنا القرآن، ونستخدمه فقط لتأكيد ما نعرفه مسبقًا.

ومن الخارج قد يبدو الإنسان متدينًا:
- يقرأ،
- ويحضر الدروس،
- ويناقش .

لكن شيئًا داخليًا يكون قد أُغلق : القدرة الحقيقية على التلقي.

حقيقة القرآن الذي نزعم الإيمان به

يذكّرنا الله بحقيقة القرآن:
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل 89)

فالادعاء هنا مطلق: القرآن تبيان لكل شيء.

والمشكلة غالبًا ليست في إنكار هذه الآية، بل في الفجوة بين الإيمان بها والتعامل مع القرآن وكأنها حقيقة حية. ولذلك فإن العلاج الذي يقدمه الله ليس المزيد من المعلومات، بل تغيير الحالة التي نقترب بها من القرآن:

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل2 -4)

ولماذا الليل؟
لأن الليل يزيل الضوضاء والأدوار الاجتماعية والهوية الخارجية. ففي الليل لا تعود العالم، أو المعلم، أو صاحب الخبرة، بل تصبح عبدًا يقف أمام كلام الله.

وهناك انسجام دقيق هنا مع طريقة عمل العقل البشري. فالدراسات العصبية الحديثة تتحدث عن "الشبكة الافتراضية للدماغ(DMN) "، وهي شبكة تنشط حين تقل المثيرات الخارجية، فيميل العقل إلى التأمل وربط المعاني والتفكير العميق.

وسكون الليل يخلق هذه البيئة تمامًا.
ومع اختفاء الضوضاء الخارجية، يصبح القلب والعقل أكثر استعدادًا للتلقي، فيلتقي الإنسان بالقرآن في حالة يصبح فيها التدبر طبيعيًا والمعنى أعمق. ولهذا قال الله:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل:6)

فيتوافق القلب مع اللسان، ويتغلغل المعنى بعمق أكبر، ويبدأ الغلاف بالانفتاح.

فالقضية ليست اكتساب معلومات جديدة، بل استعادة القدرة على التلقي وكأنك تسمع القرآن لأول مرة.

الحالة الثانية: مُتدثِّر لكنه لا يتحرك

ثم يأتي النداء الثاني:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر 74:1-2)

لقد تغيّرت الحالة الآن. فالمزمل كان متلفعًا ومنغلقًا عن التلقي الكامل، أما المدثر فقد تلقى وتأثر، لكنه ما زال متغطّيًا عن الحركة والعمل.

إنه الإنسان الذي شعر بأثر القرآن، وذاق وضوح المعنى، وحصل على بصيرة، ثم عاد إلى حياته المعتادة دون تغيير حقيقي. دخل الحق إلى قلبه، لكنه لم يدفعه إلى الحركة.

ولهذا تغيّر الأمر الإلهي: قم... لا لتتلقى، بل لتعمل.

لكن قبل أن يأمره الله بالحركة، وضع شروط هذه الحركة:
﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ (المدثر 74:3-5)

والترتيب هنا بالغ الدقة:
- عظّم ربك: صحّح موازينك الداخلية .
- وطهّر ثيابك: طهّر ظاهرَك وباطنَك وأخلاقك .
- واهجر الرجس: أزل التناقضات والشوائب .

فلا يمكنك أن تحمل رسالة لم تتجسد فيك أولًا.
فالإخلاص الداخلي يسبق التأثير الخارجي، والاستقامة تسبق النفوذ.

ثم يأتي التحذير الحاسم:
﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر 74:6)

أي:
- لا تعمل طلبًا للاعتراف،
- ولا تتكلم طلبًا للتأثير،
- ولا تنتظر المقابل من الناس .

الرحلة الكاملة
عند قراءة سورتي المزمل والمدثر معًا، تتكشف رحلة المؤمن كاملة:

1. أنت متلفف: مرتاح لما تعرفه، ومنغلق عن تحول أعمق .
2. تُدعى إلى القيام: من خلال قيام الليل، والتواضع، والانفتاح .
3. تبدأ بالتلقي: فيبدأ القرآن بمخاطبة واقعك الحقيقي .
4. تُؤمر بالحركة: فلا يجوز أن تحتفظ بالهداية لنفسك .
5. تُطهّر نيتك: فتعمل بإخلاص دون انتظار مقابل .

إن نزع هذا "الغلاف" عن النفس ليس أمرًا بسيطًا، بل فعل إيمان عظيم: أن تثق بوصف الله لكتابه أكثر من ثقتك بألفتك المعتادة معه.

فالقرآن يظل مفتوحًا دائمًا.
ويبقى السؤال الوحيد: هل ستأتي إليه بقلب مفتوح كذلك؟

8. لا أعذار: أنت الشاهد على نفسك

تنقلنا الآيات التالية إلى لحظة فاصلة في يوم القيامة، حين يُواجه كل إنسان بسجل كامل لا يمكن إنكاره لحياته:

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ (القيامة 75:13-15)

إنه مشهد يزيل كل الأوهام.
فيُعرض على الإنسان:

- ما قدّمه،
- وما أخّره،
- وما اختار فعله،
- وما أهمله .

ولا يُغفل شيء.
وأشد ما في الآيات وقعًا قوله تعالى:
﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾

فهذه الآية تهدم أساس خداع النفس.

فالإنسان في الدنيا يستطيع:

- أن يبرر أفعاله،
- ويعيد تفسير نياته،
- ويصنع روايات يدافع بها عن نفسه أمام الآخرين .

لكن في ذلك اليوم تنكشف الحقيقة الداخلية كاملة.

فالنفس التي كانت تخفي الحق تصبح شاهدة عليه.
ثم تأتي العبارة الأشد: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

فمهما كانت الأعذار:

- منطقية،
- أو عاطفية،
- أو متقنة الصياغة،

فلن يكون لها وزن؛ لأن صاحبها نفسه يعلم الحقيقة .

ثم تستمر الآيات:
﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة 75:16-19)

والتفسير المعروف عند العلماء أن هذه الآيات خطاب للنبي ﷺ أثناء نزول الوحي، يطمئنه الله فيه بأن القرآن محفوظ ومبيَّن، فلا حاجة للاستعجال في تكراره أثناء نزوله.

لكن عند قراءة الآيات في سياقها المتصل، يظهر بعد تأملي إضافي.
فاللغة توحي بمشهد استماع كامل:

- لا مقاطعة،
- ولا محاولة لتغيير الرواية،
- ولا إعادة صياغة للحقائق .

وكأن سجل الأعمال يوم القيامة سيُتلى كاملًا ويُشرح بوضوح لا يترك مجالًا للإنكار.

أما في الدنيا فنحن:

- نقاطع،
- ونجادل،
- ونبرر،
- وندافع .

أما هناك، فالسجل هو الذي يتكلم... وانتهى الأمر.

وهذه الآيات لا تصف مستقبلًا بعيدًا فقط، بل تقدم مرآة للحاضر قبل أن يأتي اليوم الذي تسقط فيه الأعذار، وتصبح النفس شاهدة على صاحبها.

وكأن القرآن يسألنا: لو وقفت اليوم أمام سجل أعمالك، هل ستظل بحاجة إلى الأعذار؟

فأعظم فرصة نملكها الآن هي أن النفس الشاهدة ما زالت قادرة على التغيير... قبل أن تصبح مجرد شاهد ضدنا.

9. صفات الأبرار ومركزية إطعام الطعام

قبل أن يصف الله صفات الأبرار، يكشف أولًا عن مصيرهم:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (الإنسان 76:5)

يبدأ القرآن بالنتيجة: مشهد من الطهر والراحة والتكريم في الجنة. لكن هذا الجزاء ليس عشوائيًا، بل هو ثمرة مباشرة لما كانوا عليه في الدنيا.

وفي قلب شخصيتهم تبرز صفة محورية: رحمة عملية متجسدة، لا في الكلمات، بل في أفعال التضحية والعطاء.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان 76:7-9)

إن أعمالهم نابعة من التزام صادق بالله، ومن وعي عميق بالآخرة. ثم ينعكس هذا اليقين داخليًا وخارجيًا: ليس في صورة كرم عابر، بل في صورة عطاء مقصود مما يحبونه ويحتاجونه، لا مما يفيض عن حاجتهم بسهولة.

وتكشف كلماتهم عن إخلاص نادر:

- لا ينتظرون مكافأة،
- ولا يطلبون اعترافًا،
- ولا حتى يبحثون عن الشكر .

ولعل أكثر ما يلفت النظر في هذه الآيات تنوع من يشملهم هذا الإحسان:

- المسكين،
- واليتيم،
- والأسير .

فالأولان متوقعان، أما الثالث فيتحدى الطبيعة البشرية. فالأسير، خاصة في السياق التاريخي، قد يكون عدوًا سابقًا، ومع ذلك يقدّم له الأبرار الطعام نفسه، والعناية نفسها، والإخلاص نفسه.

وهذا يكشف مبدأً عظيمًا: الرحمة الحقيقية ليست انتقائية.
فهي لا تقوم على القرابة، ولا الألفة، ولا استحقاق الناس في نظرنا، بل تنبع من معيار أعلى: ابتغاء وجه الله وحده.

ولهذا يصبح إطعام الطعام أكثر من مجرد صدقة؛ إنه اختبار للإخلاص، وتجسيد للإيمان، ومرآة لحقيقة القلب.

ويتكرر في القرآن الربط بين الإيمان ورعاية المحتاجين، وخاصة من خلال الإطعام، حتى يبدو وكأن القرآن يقرر حقيقة واضحة: الإيمان الذي لا يتحول إلى رحمة عملية لم يترسخ بعد في القلب.

وتتركنا هذه الآيات أمام أسئلة عميقة:

- هل نعطي مما لا نحتاجه، أم مما نحبه؟
- هل نعطي لله، أم بحثًا عن التقدير؟
- هل نعطي انتقائيًا، أم برحمة شاملة؟

10. الكاذبون حقًا: إنكار الحقيقة الواضحة

تقدم سورة المرسلات واحدًا من أقوى البنيان البلاغي في القرآن. فهي تخاطب منكري الحق لا باعتبارهم مجرد مخطئين، بل باعتبارهم أناسًا يصرّون على إنكار ما أصبح واضحًا جليًا.

وتبني السورة حجتها عبر سلسلة من التحديات الحاسمة، يتبع كل واحد منها ذلك النداء المزلزل المتكرر: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

ويتكرر هذا التحذير مرات عديدة في السورة (المرسلات 77:15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49)

وليس هذا التكرار عشوائيًا، بل يأتي بعد كل دليل وكأن السورة تقول: ها هو البرهان، فماذا بقي بعد ذلك من مجال للإنكار؟

وتبني السورة حجتها عبر عشرة تحديات متصاعدة:

أولًا:
مشاهد كونية مرعبة تعلن نهاية العالم وانهيار الكون نفسه. وعندما ينهار الواقع بهذا الحجم، يصبح الإنكار ضربًا من العبث.

ثانيًا:
تذكير بالسابقين الذين كذبوا فهلكوا. فالأمر ليس احتمالًا نظريًا، بل سنة متكررة عبر التاريخ.

ثالثًا:
خلق الإنسان نفسه: من ماء مهين، في رحم محفوظ، بتقدير دقيق. فيصبح وجود المنكر نفسه دليلًا عليه.

رابعًا:
النعم الظاهرة : الأرض المهيأة للحياة، والجبال الراسية، والماء العذب. علامات مستمرة لا أحداث عشوائية.

خامسًا:

تصوير حي للعذاب: دخان، ونار، وشرر كالقصر، ولهيب هائل. تصوير حسي يزيل أي وهم بأن العاقبة مجرد فكرة مجردة.

سادسًا:
الصمت الكامل يوم القيامة. لا جدال، ولا دفاع، ولا قدرة على التبرير. فاللسان الذي كان ينكر لم يعد قادرًا على الحماية.

سابعًا:
الحشر الشامل: كل الأجيال مجتمعة بلا استثناء، ولا تأخير، ولا مهرب.

ثامنًا:
المشهد المقابل للأبرار: في ظلال وعيون ورزق كريم، ينالون جزاء أعمالهم. ويكشف هذا التباين ثمن التكذيب الحقيقي.

تاسعًا:
خطاب ساخر قاطع: "تمتعوا قليلًا..."وهو تهكم مقصود يفضح قِصر لذات الدنيا وسرعة زوالها.

عاشرًا:
الانكشاف الأخير : حتى حين أُمروا في الدنيا بالسجود رفضوا، أما يوم القيامة فقد انتهت الفرصة، وأُغلق الباب الذي أعرضوا عنه إلى الأبد. وعند النظر إلى هذه التحديات مجتمعة، تظهر حقيقة قوية:
لم يعد الإنكار ناتجًا عن غياب الأدلة، بل عن رفض ما عُرف، ومقاومة ما اتضح، والإعراض رغم اليقين.

ولهذا يسميهم القرآن :﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لا مجرد "غير المؤمنين"، بل المنكرين الذين يرفضون ما يدركونه في أعماقهم. فهم ليسوا أناسًا يجهلون الحقيقة، بل أناسًا يرفضون ما عرفوه.

وتتركنا السورة أمام حقيقة لا يمكن الهروب منها: أعظم الكذب ليس أن تفشل في رؤية الحق، بل أن تراه واضحًا ثم تعرض عنه بإرادتك.

الخاتمة

تستمد الأقسام العشرة في هذا الفصل مادتها من مواضع مختلفة من الجزء التاسع والعشرين، لكنها تجتمع كلها حول حقيقة واحدة محورية: أن لحياة الإنسان اتجاهًا، وأن القرآن جاء ليهديه إلى هذا الاتجاه.

بدأنا من حيث يبدأ القرآن خطابه:

- بالحياة والموت،
- وبحقيقة الابتلاء،
- وبالسؤال عن الوجهة التي ينبغي أن تتجه إليها جهود الإنسان .

ثم انتقلنا عبر معالم الحياة التي تنسجم مع هذا الهدف:

- أخلاق النبي ﷺ بوصفها النموذج الحي،
- والارتباط العميق بين الإيمان والرحمة،
- ودور الصلاة في إعادة تشكيل النفس،
- وقوة الاستغفار الصادق،
- وخطر التعلق بغير الله،
- والدعوة للخروج من الانغلاق الروحي إلى الحركة،
- واليقين بالحساب حيث تسقط الأعذار،
- وصورة الأبرار الذين قادهم الإخلاص والتضحية إلى الجنة،
- ثم تحدي القرآن المتكرر لمن يصرّون على التكذيب .

وما يتشكل في النهاية ليس قائمة أعمال متفرقة، بل رؤية متكاملة للحياة:
حياة تسير في الدنيا بهدوء واتزان، لكنها تسابق نحو الآخرة؛
حياة تعطي بلا انتظار مقابل، وتخدم بلا طلب شهرة، وتذكر الله بلا انشغال عنه؛
حياة تصلي باستمرار، وتتوب بصدق، وتتفاعل مع القرآن لا بوصفه معرفة موروثة فقط، بل هداية حية تخاطب واقعها الخاص.

إن الجزء التاسع والعشرين يسمّي الحالة الإنسانية بصدق:

- قلقنا،
- وترددنا،
- وتعلقنا بالراحة،
- وتأجيلنا لما هو أهم .

لكن كل كشف للضعف يصاحبه طريق إلى القوة. فالقرآن لا يغلق الحوار، بل يفتحه. ويدعو الإنسان بنداء بسيط وعميق:

قم... وتفاعل... وارجع إلى الله. وثق أن الذي خلقك يعلمك تمام العلم، وقد منحك بالفعل الهداية التي تحتاجها.

جواهر الجزء الثلاثين: النداء الأخير — من الوعي إلى العمل

(من سورة النبأ 78:1 إلى سورة الناس 114:6)

المقدمة

يتميّز الجزء الثلاثون من القرآن بخصوصية فريدة. فسوره قصيرة، وآياته موجزة، وأسلوبه مباشر، لكن داخل هذا الإيجاز تكمن كثافة استثنائية من المعاني. وهذه هي السور التي يحفظها معظم المسلمين أولًا، ويكثرون من تلاوتها في الصلاة، ومع ذلك — وبصورة مفارِقة — فهي كثيرًا ما تُتلى بأقل قدر من التدبر.

إن التأملات الآتية ليست تفسيرًا شاملًا للجزء الثلاثين، بل هي عشر جواهر مختارة بعناية، تُقدّم، عند جمعها، الأسس الجوهرية لحياة يعيشها الإنسان في علاقة واعية مع الله.

تبدأ هذه الجواهر بأهم سؤال يمكن أن يطرحه الإنسان: من هو ربك؟ ثم تنتقل إلى اليقين بالآخرة، وحقيقة الحساب، وضرورة العدل، والحاجة إلى الشجاعة الأخلاقية. ثم تتجه إلى الداخل لتزكية النفس، قبل أن تعود إلى الخارج لتبيّن البنية العملية للدين. ثم تضع القارئ أمام إلحاح الزمن، قبل أن تختم بما ختم به القرآن نفسه: استعاذة المؤمن بالله من الأخطار التي تحيط به وتسكن داخله.

هذه التأملات ليست مكتوبة للمتخصصين فقط، بل لكل من يريد أن يخاطبه القرآن مباشرة:

- في حياته،
- وقراراته،
- وصراعاته،
- وخياراته اليومية.

فالقرآن لم يكن يومًا مجرد كتاب معلومات، بل كتاب تحول وتغيير، ولكن فقط لمن يقترب منه بالقدر الكافي ليشعر أن الخطاب موجّه إليه شخصيًا.

1. معرفة الله: أساس كل عمل

يبدأ القرآن بمعالجة أعمق سؤال يمكن أن يطرحه الإنسان:
من هو ربك؟

إنه ليس إلهًا بعيدًا أو فكرة مجردة، بل هو الخالق الذي أوجد كل شيء، وأحكمه، وما زال يدبّر كل تفصيل في الوجود.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى 1-3)

والتسبيح هو تنزيه الله عن كل نقص، وإثبات كماله المطلق.
والجذر اللغوي لكلمة "سبّح" يحمل معنى الحركة المستمرة والانطلاق الدائم، وكأن التسبيح الحقيقي ليس مجرد كلمات تُقال، بل حالة متواصلة تظهر:

- في الاعتقاد،
- والنية،
- والعمل.

فالتسبيح الحقيقي لا يُتلى فقط، بل يُعاش.

وهو ينبع من معرفة الله على حقيقته. وقد قدّم القرآن أكمل تعريف لذلك في سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص:1-4)

وهذا ليس تجريدًا فلسفيًا، بل إعادة توجيه حاسمة للقلب الإنساني.

فعندما يترسخ أن الله وحده:

- الخالق،
- والرازق،
- والقائم عليه كل شيء،

فإن كل:

- خوف،
- ورجاء،
- واعتماد،
- وقصد،

يجب أن يتجه إليه وحده.

فمعرفة الله الحقيقية تعني إعادة ترتيب العالم الداخلي للإنسان كله، بحيث لا ينافسه شيء في القلب، ولا يُعتمد على غيره اعتمادًا مطلقًا.

2. اليقين بالآخرة: المحرك الحقيقي للسلوك

يكشف القرآن أن أصل الفساد الأخلاقي في العالم ليس الجهل بالقوانين، بل ضعف اليقين بالحساب.
فعندما يؤمن الإنسان حقًا أنه سيقف بين يدي الله ويُسأل عن كل عمل، ينعكس ذلك على سلوكه:

- ضبطًا،
- وأمانة،
- وإخلاصًا.

أما إذا ضعف هذا اليقين، فإن حتى المعرفة نفسها تصبح عاجزة، فيبدأ الإنسان في ليّ القوانين وتبرير الانحراف.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المطففين 4-6)

تتحدث هذه الآيات عن الذين يغشّون في الكيل والميزان:
- يأخذون حقوقهم كاملة،
- ويُنقصون حقوق غيرهم.

والقرآن لا يفسّر فعلهم بأنهم يجهلون معنى الأمانة، بل يكشف سببًا أعمق: ضعف اليقين بيوم القيامة.

ومن هنا يبدأ الانحدار الأخلاقي:
- أولًا في الأمور الصغيرة،
- ثم في الأكبر منها.

ولهذا فإن المنهج القرآني لا يكتفي بوضع القوانين، بل يربطها بالإيمان العميق بالحساب.

فالآخرة ليست فكرة بعيدة نستحضرها عند الجنائز فقط، بل حقيقة حاضرة ينبغي أن تؤثر في:
- كل قرار،
- وكل معاملة،
- وكل لحظة خفية في الحياة الخاصة.

واليقين بالآخرة يحوّل المعرفة إلى نزاهة عملية، فيصبح الحساب واقعًا حيًا لا مجرد عقيدة مؤجلة.
وقبل كل قرار، ينبغي أن يسأل الإنسان نفسه:
لو وقفت أمام الله اليوم، هل سأختار هذا الفعل نفسه؟

3. المحاسبة المطلقة: لا شيء يضيع

يؤسس القرآن مبدأً بالغ العمق:
لا شيء يضيع أبدًا. فكل عمل محفوظ، وكل نية مسجلة، ولا لحظة تختفي في الزمن.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة 7-8)

فالآيات لا تتحدث عن الأعمال العظيمة فقط، بل عن "مثقال ذرة": أصغر ما يمكن تصوره من الوزن.
وهذا يعني:
- لا ذنب صغير يُهمل،

- ولا خير صغير يضيع،
- ولا عمل خفي يخرج عن الحساب.

ويُروى أن رجلًا لما سمع هذه الآيات قال: "هذا يكفيني."
لقد أدرك أن الحياة كلها تختزل في سؤال واحد:

ماذا أفعل بكل لحظة من عمري؟

وهاتان الآيتان القصيرتان تهدمان وهمين شائعين:
- وهم أن الذنوب الصغيرة لا تهم،
- ووهم أن الأعمال الصغيرة لا قيمة لها.

وكلاهما باطل.

فالسجل كامل، ولا شيء يُغفل. وعندها لا تُقاس الحياة بالأعمال الضخمة النادرة فقط، بل بتراكم اللحظات اليومية، حيث يحمل كل موقف وزنًا عند الله.

وحين يدرك الإنسان أن لا شيء يضيع، تصبح كل لحظة:
- مسؤولية،
- وفرصة،
- واستثمارًا أبديًا.

4. العدل: الإيمان حين يظهر في المعاملات

يؤكد القرآن أن الإيمان الحقيقي لا يبقى حبيس الداخل، بل يجب أن يظهر في تعامل الإنسان مع الناس.
فالعبادات لها أوقات وحدود:
- الصلاة في أوقاتها،
- والصيام في زمنه.

أما العدل، فلا يتوقف أبدًا؛ فهو يحكم كل معاملة، وكل حق، وكل أمانة.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾
(المطففين 1-3)

وكلمة: ﴿وَيْلٌ﴾ ليست تحذيرًا خفيفًا، بل تهديد شديد بالهلاك والخسران.

واللافت أن هذا الوعيد لم يأتِ على جريمة استثنائية، بل على صورة "معتادة" من الظلم: ازدواجية المعايير. أن يأخذ الإنسان حقه كاملًا، بينما ينقص حقوق الآخرين.

وهذا النمط يتكرر بصور كثيرة:

- موظف يأخذ راتبه كاملًا ويقصّر في عمله،
- صاحب عمل يبخس الناس حقوقهم،
- شخص ينسب لنفسه ما لم يفعله.

وكلها تعود إلى المعنى نفسه: أن يأخذ أكثر مما يستحق، ويعطي أقل مما يجب.

ومن هنا يبيّن القرآن أن الإيمان لا يُختبر بالشعائر وحدها، بل يُختبر في اللحظات التي يستطيع فيها الإنسان أن يظلم... ثم يختار العدل.

فالسؤال الحقيقي للإيمان هو: هل يثق الناس أنك ستعطيهم حقوقهم كاملة حتى حين لا يراك أحد؟

فالإيمان يصبح مرئيًا من خلال العدل، حين يعطي المؤمن الناس حقوقهم كاملة ابتغاء وجه الله وحده.

5. طريق الشجاعة الأخلاقية

طريق الوصول إلى الله ليس طريق راحة، بل طريق :جهد، وتضحية، واختيار للحق على حساب السهولة.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ (البلد 11)

تأتي هذه الآية بعد وصف الإنسان بأنه خُلق في "كبد"؛ أي في معاناة ومجاهدة. ثم يطرح القرآن سؤالًا مؤثرًا: لماذا لم يقتحم العقبة؟

والعقبة في أصلها طريق جبلي شديد الانحدار يحتاج إلى بذل كامل لتجاوزه. ويستخدمها القرآن كرمز لطريق المسؤولية الأخلاقية. إنه طريق صعب بطبيعته؛ لأن الراحة وحدها لا تصنع الشخصية، بل قد تتحول، إذا استُسلم لها، إلى عدو خفي للنمو، بينما يصبح الجهد وسيلة الارتقاء.

ثم لا يترك القرآن معنى العقبة غامضًا، بل يفسره عمليًا:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد 13-17)

والترتيب هنا مقصود:

- تحرير المظلوم،
- ثم إطعام المحتاج وقت الشدة،
- ثم رعاية الضعفاء،
- ثم الانتماء إلى جماعة أخلاقية تقوم على الصبر والرحمة.

فالشجاعة الأخلاقية في التصور القرآني ليست فكرة نظرية، بل عمل مكلف:
- أن تعطي حين يكون العطاء صعبًا،
- وأن تقف مع الحق حين يكون الوقوف مكلفًا،
- وأن ترحم حين تتطلب الرحمة تضحية.

كما أنها ليست رحلة فردية فقط، بل تنتهي بالانتماء إلى مجتمع يُوصي أفراده بعضهم بعضًا :بالصبر، والرحمة، والثبات.

ويبقى السؤال شخصيًا ومباشرًا: ما هي عقبتك أنت؟
- ما المسؤولية التي تؤجلها؟
- وما التضحية التي تهرب منها؟
- وما الحاجة التي رأيتها ثم تجاهلتها؟

فالقرآن لا يدعو إلى التأمل وحده، بل إلى الصعود. وطريق الله يُصعد إليه عبر تضحية مقصودة، تتحول فيها الشجاعة الأخلاقية إلى عمل حي يجسد الإيمان.

6. المسؤولية الفردية: ستقف وحدك

يقضي الإنسان معظم حياته وهو يعرّف نفسه من خلال علاقاته: ابنٌ لشخص ما، أو زوج، أو أب، أو فرد في جماعة. لكن في يوم القيامة، تسقط كل هذه التعريفات.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس 34-37)

ويعرض القرآن هذه العلاقات بترتيب مقصود:
- من الأخ،
- إلى الوالدين،
- إلى الزوجة،
- إلى الأبناء.

وكأن الآيات تنزع طبقة بعد أخرى من الروابط التي نظن أنها لا تنفصم أبدًا.

ثم يأتي الحكم الحاسم:
﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

فكل إنسان سيكون مشغولًا تمامًا بمصيره هو .وهذا ليس وصفًا لقسوة أو انعدام مشاعر، بل كشف لحقيقة مطلقة :كل الأعذار المرتبطة بالآخرين:

- بالبيئة،
- أو التربية،
- أو ضغط المجتمع،
- أو الثقافة—

تفقد قيمتها.
فالحساب شخصي، والمسؤولية لا تتجزأ.

ومن هنا تأتي الدلالة العملية المباشرة في الدنيا:

- لا تؤجل التغيير انتظارًا لتغيّر الآخرين.
- لا ترث المعتقدات دون قناعة واعية.
- لا تسلّم حكمك الأخلاقي للثقافة أو الجماعة أو الراحة.

فكل قرار تتخذه يُسجل باسمك أنت، لا باعتباره مجرد نتيجة للظروف.

وفي ذلك اليوم، لن تُحاسب كجزء من جماعة، بل كروح منفردة تقف وحدها أمام الله .فالمحاسبة الحقيقية تبدأ حين يدرك الإنسان أن وقوفه بين يدي الله أمر شخصي مستقل عن كل الهويات الخارجية.

7. المعركة الداخلية: تزكية النفس

كل صراع خارجي يبدأ أولًا بصراع داخلي. فقبل أن يُبتلى الإنسان بالعالم، يُبتلى بنفسه.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:7-10)

تبدأ هذه الآيات بسلسلة من الأقسام: بالشمس، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، والأرض، ثم بالنفس نفسها.

وكأن الله يقسم بالكون كله ليقرر حقيقة واحدة: نتيجة حياتك كلها تعتمد على ما تفعله بنفسك. فالنفس ليست فارغة أخلاقيًا. لقد أودع الله فيها معرفة:

- الفجور،
- والتقوى.

وهذا الإدراك ليس مجرد خبرة مكتسبة، بل جزء من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فالإنسان يحمل داخله:

- القدرة على التمييز،
- وفي الوقت نفسه قابلية الانحراف.

ولهذا فإن السؤال الحاسم ليس: هل توجد هداية؟ بل: أي الميلين ستغذّي؟

ويستخدم القرآن كلمة: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ وهي من الجذر نفسه لكلمة "الزكاة".

وكما يُطهَّر المال بالزكاة، تُطهَّر النفس بإزالة ما يفسدها وتنمية ما يصلحها.

والفساد لا يحتاج إلى جهد؛ فهو يحدث بالإهمال. أما التزكية فتحتاج إلى عمل واعٍ ومقصود. ثم يبيّن القرآن ما الذي يغذي تزكية النفس:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الليل 5-7)

فتظهر هنا ثلاث صفات مترابطة:

- العطاء: تحرير القلب من التعلق والأنانية.
- التقوى: استحضار الله في الاختيارات.
- التصديق بوعد الله: العمل بثقة في الغيب.

ومن هنا يتضح أن أعظم المعارك ليست خارجية، بل داخلية صامتة مستمرة:

- بين نفس تعطي وأخرى تبخل،
- وبين قلب يذكر وآخر يغفل،
- وبين يقين وشك.

فكل اختيار:

- إما أن يرفع النفس،
- أو يدفنها.

وتزكية النفس ليست حدثًا عابرًا، بل جهاد يومي تتشكل فيه الحالة الداخلية مع كل قرار يتخذه الإنسان.

8. جوهر الدين الحقيقي

كثيرًا ما تُشغل التفاصيل الناس عن الجوهر، ولذلك يختصر الله دينه في آية واحدة تجمع ثلاثة أركان أساسية: الإخلاص، وإقامة الصلاة، والزكاة.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ (البينة:5)

فالإخلاص هو الأساس الذي تُوزن به الأعمال كلها .والإخلاص لا يعني الكمال، بل يعني خلو القلب من الشرك الخفي :أن يتوجه العمل إلى الله، لا إلى :الشهرة، أو المديح، أو طلب الاعتراف.

.أما الزكاة، فلم تُترك للاجتهاد الشخصي، بل حدد الله مصارفها في سورة التوبة، وبيّن النبي ﷺ مقاديرها ولهذا فهي ليست صدقة موسمية عابرة، بل نظام دائم للعدالة الاجتماعية. إنها تجعل رعاية الناس: ليست مرتبطة بالمزاج، بل جزءًا ثابتًا من بنية الإيمان.

إقامة الصلاة لا مجرد أدائها ومن أكثر الأوامر تكرارًا في القرآن: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

وقد تكرر هذا التعبير أكثر من أربعين مرة. والقرآن لا يقول: "أدّوا الصلاة"، بل: "أقيموا الصلاة". وهذا ليس فرقًا لغويًا بسيطًا، بل فرق في طبيعة الفعل كله.

- **أداء الصلاة** يعني تنفيذ حركاتها وأقوالها الظاهرة،
- أما **إقامة الصلاة** فتعني أن تصبح الصلاة قائمة في حياة الإنسان، تشكلها وتوجهها.

وكلمة "إقامة" من الجذر: قام أي: ثبت، واستقام، وقام قائمًا. فإقامة الصلاة لا تعني زيارتها في أوقات محددة ثم مغادرتها، بل جعلها جزءًا ثابتًا من بنية الحياة. ثم يوضح القرآن معنى هذه الإقامة:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ (الإسراء 17:78)

فالآية لا تصف الصلاة كزيارات منفصلة، بل كامتداد زمني متصل:

- من زوال الشمس،
- إلى ظلمة الليل،
- ثم افتتاح اليوم التالي بالفجر.

فالصلاة ليست خمس زيارات منفصلة للحضور مع الله، بل حالة مستمرة من التوجّه تمتد عبر اليوم كله.

ثم يخص الله صلاة الفجر بوصف لم يعطه لغيرها: ﴿**كَانَ مَشۡهُودٗا**﴾ وقد فُسرت بحضور ملائكة الليل والنهار. لكن قد يكون هناك بعدًا آخر:

فما يُؤسَّس في الفجر ينعكس على بقية اليوم كله .فما تقوله في الفجر:

- من "إياك نعبد"،
- و"إياك نستعين"،

- و"الله أكبر"،

ينبغي أن يشكل طبيعة يومك كله.

وهذا هو معنى الإقامة عمليًا: أن تدخل في حالة تبدأ عند الفجر، ثم تحملها معك بصدق عبر بقية ساعات اليوم.

التحول الذي تصنعه الصلاة: داخل الصلاة نفسها تكمن قوة التغيير. فعندما يقول الإنسان الله أكبر فهذا ليس لفظًا شعائريًا مجردًا، بل إعلان عن حقيقة: أن الله أكبر من:

- كل خوف،
- وكل ضغط،
- وكل رغبة،
- وكل همّ.

وإذا ترسخ هذا المعنى في بداية اليوم، فإنه يعيد تشكيل:

- القرارات،
- والأولويات،
- وطريقة فهم الأحداث.

وهنا ينتقل الإنسان من "أداء الصلاة" إلى "العيش بالصلاة."

فالصلاة ليست فعلًا محصورًا في أوقات معينة، بل حالة تبدأ في تلك الأوقات وتمتد بعدها:

- في الكلام،
- والسلوك،
- والنية،
- والتعامل مع الناس.

فالدين الحقيقي لا يُقاس بمجرد أداء الشعائر، بل بإقامتها: حين يرسخها الإخلاص، وتتحول إلى قوة تعيد تشكيل الحياة اليومية كلها.

9. الوقت والخسارة: إلحاح الحياة

الوقت لا يمرّ فقط، بل أنت الذي تمرّ خلاله.

والخسارة ليست نتيجة طارئة تحدث أحيانًا، بل هي الحالة الافتراضية للوجود الإنساني. فالنجاح لا يتحقق بمجرد أن يعيش الإنسان، بل يحتاج إلى سعي واعٍ يقاوم تيارًا دائمًا يدفع نحو النقصان والتآكل.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِی خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِینَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوۡا۟ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡا۟ بِٱلصَّبۡرِ﴾ (العصر 103:1-3)

ثلاث آيات فقط.
قسم واحد.
وحكم واحد.
واستثناء واحد.

وقد نُقل عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.»
وفي رواية أخرى: «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم.»

وهذا كلام يحتاج إلى تأمل عميق .ولفهمه، ينبغي أن نبدأ بالقسم نفسه.

معنى **"العصر"** تحمل كلمة: ﴿ٱلۡعَصۡرِ﴾ طبقات متعددة من المعاني، وكل معنى يزيد الرسالة قوة وإلحاحًا:

1. الوقت المتناقص
العصر هو الجزء المتأخر من النهار، حين يصبح غروب الشمس قريبًا، ويشعر الإنسان أن الوقت ينفد أمامه. فالقسم هنا يخلق شعورًا مباشرًا بالإلحاح: الوقت لا ينتظر.

2. **الضغط والاستخراج**
وترجع الكلمة إلى الجذر: عصر الذي يعني: الضغط، والعصر، والاستخراج. فالوقت ليس ساكنًا، بل يضغط حياتك باستمرار، ويستخرج منها كل لحظة.
فالقلب البشري ينبض في المتوسط ما بين مليارين إلى مليارين ونصف نبضة خلال العمر. وكل نبضة هي "عصرة" جديدة تقرّب الإنسان من آخر نبضة في حياته.

3. العصر بمعنى الحقبة والزمن
أي امتداد التاريخ الإنساني كله: أمم قامت، ثم ضعفت، ثم زالت. وكلها تشهد بالحقيقة نفسها.

وعند جمع هذه المعاني يظهر أن القسم ليس بالوقت المجرد، بل بالوقت:
- وهو ينتهي،
- ويضغط،
- ويشهد.

الحكم الشامل: الإنسان في خسارة
بعد هذا القسم المتعدد المعاني يأتي الحكم الصادم: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِی خُسۡرٍ﴾

وكلمة: خسر لا تعني خسارة عابرة، بل نقصانًا مستمرًا لرأس المال، كتجارة تتآكل مع كل معاملة.

والقرآن لا يحصر هذه الخسارة في العصاة أو الغافلين فقط، بل يجعلها الحالة العامة للإنسان.
فالخسارة هي نقطة البداية.

الاستثناء الوحيد
ثم يأتي الاستثناء الدقيق الذي ينقذ الإنسان من هذه الخسارة الأصلية، من خلال أربع صفات مترابطة:

1. الإيمان ﴿ءَامَنُوا﴾
إيمان حقيقي بالله وحقائق الإسلام:
- ليس تقليدًا موروثًا،
- ولا عادة اجتماعية،
- بل يقينًا واعيًا متبصرًا.

2. العمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾
فالإيمان الذي لا يغيّر السلوك يبقى ناقصًا .فالعمل الصالح هو ترجمة الإيمان إلى:
- أخلاق،
- ونفع،
- واستقامة عملية.

3. التواصي بالحق ﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ﴾
أي أن يدعو المؤمنون بعضهم بعضًا إلى:
- الصدق،
- والعدل،
- والحق،

حتى حين يكون ذلك مكلفًا أو غير مريح.

4. التواصي بالصبر ﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾
أي أن يساند المؤمنون بعضهم بعضًا:
- في الثبات،
- وتحمل الابتلاء،
- والاستمرار على الطاعة،
- والمحاسبة الرحيمة.

البناء المقصود للسورة
ومن اللافت أن أول صفتين فرديتان:
- ما تؤمن به،
- وما تفعله.

أما الأخيرتان فجماعيتان:

- ما تدعو إليه،
- ومن تقف معه.

فالقرآن لا يقبل إيمانًا فرديًا منعزلًا يتجاهل المجتمع. فالنجاة هنا تتطلب:
- صلاح النفس،
- ومسؤولية الجماعة معًا.

فالمؤمن الذي يحتفظ بإيمانه لنفسه فقط، لم يحقق إلا نصف ما تطلبه السورة.

السؤال العملي
كل إنسان ينفق الوقت باستمرار. والسؤال ليس: هل يُستهلك وقتك؟ فهو يُستهلك دائمًا.
بل السؤال: في ماذا يُستبدل؟

قف مع نفسك بصدق:
- ماذا أنتج وقتك هذا الأسبوع؟
- هل زاد إيمانًا؟
- أو ولّد عملًا نافعًا؟
- أو نصرة للحق؟
- أو دعمًا للناس؟

أم استُهلك في مشتتات لا يبقى منها شيء بعد لحظتها؟

والسورة لا تطلب الكمال، بل الاتجاه الصحيح. فالخسارة هي الحالة الافتراضية، والنجاة تحتاج إلى مقاومة واعية.

10. معرفة الخطر وطلب الحماية

يفتتح القرآن بسورة الفاتحة: دعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم. ويُختتم بسورتي: الفلق، والناس، وهما دعاء بالحماية أثناء السير على ذلك الصراط.

وهذا ليس مصادفة، بل بناء مقصود. فالرحلة مع القرآن تبدأ بطلب الهداية، وتنتهي بطلب الحفظ والثبات عليها. وتُعرف السورتان باسم: المعوذتين ووضعهما في نهاية القرآن يحمل رسالة عميقة: الهداية وحدها لا تكفي إن لم تُحفظ.

سورة الفلق: الحماية من الشرور الخارجية
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق:1-5)

وكلمة: **الفلق** من الجذر الذي يدل على الشق والانفلاق وخروج الشيء إلى الوجود. فالفجر ينفلق عن الليل، والماء يخرج من الأرض، والزرع يشق التربة، والطفل يخرج من الرحم.

فرب الفلق هو رب كل ظهور وخروج وخلق .ولذلك فإن الاستعاذة به تعني اللجوء إلى من يملك السلطان الكامل على كل ما يمكن أن يؤذيك.

وتذكر السورة أربعة أنواع من الشرور الخارجية:
1. الشر العام في الخلق،
2. وشر الظلام وما يختبئ فيه،
3. وشر السحر والتلاعب،
4. وشر الحسد.

وقد خُصّ الحسد بالذكر لأنه يبدأ في القلب ثم يتحول إلى أذى خارجي .فالقرآن يتعامل معه كقوة مدمرة حقيقية.

سورة الناس: الحماية من الشر الداخلي

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس:1-6)

وتتضمن السورة ثلاثة أوصاف إلهية عظيمة:
- رب الناس: المربي والمدبر،
- ملك الناس: صاحب السلطان الكامل،
- إله الناس: المستحق وحده للعبادة.

ثم يأتي وصف الخطر: ﴿**ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ**﴾

أي الذي: يهمس، ثم يختفي، ثم يعود عند الغفلة. إنه ليس هجومًا مباشرًا، بل تسلل مستمر:
- عبر الشهوات،
- والشكوك،
- والتشتيت.

وقد يأتي من :الجن، أو البشر، بل أحيانًا يبدو كأنه من أفكار الإنسان نفسه.

الفرق المقصود بين السورتين

في سورة الفلق: استُعيذ بصفة إلهية واحدة من أربعة أخطار خارجية.
أما في سورة الناس: فاستُعيذ بثلاث صفات إلهية من خطر واحد داخلي.

وهذا يحمل دلالة عميقة: الخطر الداخلي أخطر، وأدق، وأكثر استمرارًا.

لماذا خُتم القرآن بهاتين السورتين؟
بعد أن:

- عرفت الله،
- وآمنت بالآخرة،
- وفهمت الحساب،
- والعدل،
- والجهاد الأخلاقي،
- وتزكية النفس،
- وإلحاح الوقت،

فإن القرآن يعلّمك الحقيقة الأخيرة: لن تبقى ثابتًا على هذا الطريق بلا حماية. فالخطر:

- حقيقي،
- ومستمر،
- وكثيرًا ما يكون خفيًا.

ولهذا جعل النبي ﷺ هاتين السورتين جزءًا من برنامجه اليومي: صباحًا، ومساءً، وقبل النوم. فطلب الحماية ليس استجابة طارئة للأزمات، بل عبادة يومية مستمرة. إنه وعي دائم:

- بالخطر الخارجي،
- والضعف الداخلي،
- والافتقار الكامل إلى الله.

فالقلب ساحة صراع، والحماية ليست قدرة ذاتية، بل عطية من الله.
ابدأ يومك بطلب هذه الحماية بوعي:

- اعرف مما تستعيذ،
- واستشعر حاجتك الحقيقية إلى الله،
- واطلب الحفظ بصدق.

فالهداية تحتاج دائمًا إلى حماية.

الخاتمة

لقد جلست الآن مع أكثر مقاطع القرآن كثافة وتركيزًا، لا بوصفها نصوصًا بعيدة، بل خطابًا مباشرًا إلى:

- حياتك،
- وقراراتك،
- ونفسك.

وعند جمع هذه الجواهر العشر، يتشكل إطار متكامل للحياة. فهي تبدأ بالله:

- من هو،

- وكيف تعرفه،
- وكيف يصبح محور كل نية وعمل.

ثم تنتقل إلى:
- اليقين بالوقوف بين يديه،
- وكمال السجل الذي سيُعرض،
- والعدل الذي يجب أن يظهر في التعامل مع الناس.

ثم تدعوك إلى:
- اقتحام طريق الشجاعة الأخلاقية،
- وتحمل المسؤولية الفردية،
- وخوض المعركة الداخلية الحاسمة للنفس.

ثم تعطيك بنية الدين الحقيقية: لا كشعائر منفصلة، بل كأسلوب حياة.

ثم تضعك أمام حقيقة الوقت الذي يتناقص منذ ولادتك، وتسألك: في ماذا تستهلكه؟

ثم تختم بالحقيقة الأخيرة:
الطريق حقيقي، والأخطار عليه حقيقية، والحماية متاحة كاملة لمن يطلبها بوعي وثبات.

هذا هو جوهر الجزء الثلاثين:
ليس معلومات تُجمع، ولا قواعد تُحفظ فقط، بل دعوة:
- لإعادة التوجيه،
- والتزكية،
- والعمل،
- والرجوع المتكرر إلى الله في كل جانب من جوانب الحياة.

لقد تكلم القرآن.
ويبقى السؤال الذي يتركه لك كما تركه لكل من سمعه عبر التاريخ: ماذا ستفعل الآن بعدما سمعته؟

عن المؤلف

الدكتور ممدوح محمد سلامة هو زميل هندسي سابق في إحدى شركات النفط الكبرى، وزميل مدى الحياة في الجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين(ASME) .

حصل على درجة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية بامتيازٍ عالٍ من مصر، ودرجتي الماجستير والدكتوراه في الهندسة الميكانيكية من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) .

قام بتأليف أكثر من 150 ورقة بحثية تقنية، وحصل على 25 براءة اختراع، وحرر أكثر من 30 من وقائع المؤتمرات الدولية، كما شغل منصب رئيس عدة مؤتمرات دولية متعلقة بالتطويرات البحرية والقطبية.

إلى جانب عمله في مجال الهندسة، يُعدّ د. ممدوح محمد سلامة محاضرًا وناشطًا دعويًا في المراكز الإسلامية بمدينة هيوستن، حيث يُلقي خُطب الجمعة ويقدّم دروسًا ومحاضرات في عطلات نهاية الأسبوع. كما كتب مقالات عن الإسلام نُشرت في عدد من الصحف، وألقى محاضرات توعوية لجماهير مسلمة وغير مسلمة على حدّ سواء.

وهو مؤلف الكتب التالية:

- **انعكاسك في مرآة الإسلام**، وقد خضع لمراجعة واعتماد لجنة الأزهر الدينية وأُجيز لتوزيعه في الغرب.
- **تدبر القرآن من خلال عدسة المصطلحات الرئيسية**.
- **بأسمائه نَهتدي: رحلة إلى غاية الخلق وسرّ الحياة**

ويعمل حاليًا على عدد من المؤلفات الجديدة المستلهمة من محاضراته، من بينها:

- **من الفاتحة إلى الناس: المحور المركزي لكل سورة**.
- **القرآن: مخطط للحضارة والنجاة**.
- **مذكرات النبي ﷺ**.
- **صحابة النبي ﷺ**.

وتعكس هذه الأعمال التزامه بربط العمق العلمي بالتأمل الإيماني، من خلال هداية القرآن الكريم وتعاليم النبي ﷺ، سعيًا إلى تقديم فهم متوازن يجمع بين الفكر، والروح، والعمل.

الغلاف الخلفي
ماذا يطلب منك القرآن — الآن، في هذه اللحظة؟

يمثل كتاب **جواهر من النصف الثاني للقرآن الكريم** المجلد الثاني من رحلة علمية وإيمانية رائدة عبر القرآن الكريم كاملًا في مجلدين. ويغطي هذا المجلد الأجزاء من السادس عشر إلى الثلاثين — من ختام سورة الكهف إلى سورة الناس — مستخرجًا عشر جواهر مضيئة من كل جزء، ليبني مسارًا من التدبر يجمع بين العمق الفكري والتحول الروحي.

هذه ليست مجرد ملخصات، بل جواهر مختارة بعناية: آيات وتأملات تكشف البنية العميقة للقرآن، ودعوته إلى العدل والشجاعة الأخلاقية، وهدايته في أوقات الابتلاء والفقد، ورؤيته للإنسان بوصفه خليفةً مكرمًا في هذا الوجود، ونداءه الأخير العاجل للمحاسبة قبل مجيء الساعة.

وعبر هذه الأجزاء الخمسة عشر، سيجد القارئ:

- الدروس الحضارية في قصص الأنبياء — من موسى إلى يونس إلى سليمان عليهم السلام
- الإطار القرآني للعدل، والأسرة، والسلطة، والمجتمع
- المعركة الداخلية للنفس والطريق إلى تزكيتها
- علامات الساعة وإلحاح الحياة الهادفة
- النداء الختامي للقرآن: من الوعي إلى العمل

وسواء قُرئ هذا الكتاب في رمضان، أو دُرس في حلقات العلم، أو صَحِب القارئ في تدبره اليومي، فإنه يقدّم لقاءً منظمًا، ميسورًا، وعميق الأثر مع النصف الثاني من رسالة الله الخاتمة.

فالقرآن لم يُنزَّل ليُتلى ثم يُوضَع جانبً. بل أُنزل ليُعاش.

ومتوفر أيضًا:
المجلد الأول: جواهر من النصف الأول للقرآن الكريم (الأجزاء 1–15)